عبد المنعم العليلي

أيام الحسين

عرض وقصص

obeikandl.com

obeikandl.com

الفاتحة

●

هذه فصول من حياة تجدّدت فيها احلام الانسانية ، واتصلت في الواقع بقدْر غير محدود من روعة الاحلام ...

فلم تعد تحمل اسمها التقليدي « الاحلام التائهة » الذي اعطـاه اقدم ناطق بالشعر منذ فجر الانسانية ، يوم غدت واقعاً حياً لكائن حي ...

✲

وكان هذا الفجر قد انبثق في الغاب ، واتصل بلألائه في المغاور والكهوف ، حيث اطل الانسان لاول مرة الى الافق متأمـــلاً ، وشعر بوجوده ...

ولكن لم يسقط من وجوده الاعلى اشبـــاح ورموز ، ثم لم يفهم ...

✲

اتصلت حيرة الانسان بكنْه انسانيته في مراحل النشوء العقلي ، ومَدّ الخيال في معنى الحيرة ...

ولم يزل يلج معصوب العينين هيكل الوجود الاصم ، حيث لا يكون للصوت رجعٌ ولا صدى ، الا حفيفاً خافتاً ولغطاً ينبعث

من كل مكان ، بيد انه مبهم كنغمة الوتر المقطوع ، او رجفة الحنين الشاردة الذاوية ...

*

يمر شريط الوجود سريعاً كاللمحة المُضْمَحِلة . وما يثبت منه الا رُؤى يمدها السراب والآل ، كتلك الرؤى التي تتراقص على القمم في عين الفجر واغتماض الغروب ...

ان انسان اليوم حين يلتقي في بعض منحدرات* الطريق بانسان التاريخ البعيد ، لن يجد لديه بعد رحلة الزمن الطويلة به ما يخبره عنه ...

*

واخيراً ثبت في طبع الانسان ان بحث الوجود يحول دون تذوّقه ، فانكفأ عليه ونسج احلامه عن السعادة والخير والجمال ...

وكثيراً ما كان يمر بين حين وآخر في جو الانسان ، كواكب ملتمعة تضيء جوانب هذا الوجود ، وهي تجنّح احياناً وتذهب صُعُداً احياناً ، لتنقل البشر من الحيرة الى التأمل ، مأخوذين بنشوة خفية تظل الذكرى تُشيعها ابداً ...

*

والى هذه الذكرى التي تحمل معنى أزلياً ، قصدنا في عرض حياة الحسين ، الكوكب الذي غاب في الاحزان ، وترك ألوانه المثالية الرائعة تشير الى الخلود ، وتنسدل بشَفَقها المشعّ على البقاء ...

(*) كناية عن القبر .

obeikandl.com

مقدمة

●

لم اقصد في هذه الحلقة الثالثة من سيرة الحسين الى التاريخ إلا فيما يدخل في حد تصحيح الرواية او الخبر ، واما ما وراء ذلك فقد أوسعت تحقيقه ودرسه في الحلقة الثانية التي خصصتها بالوجه التاريخي المحض وما يدخله من قرب او بعد ، لكي يتسنى للمطلع ان يتصل بالشخصية التي يدور البحث عليها اتصالا تاماً يخوله ان يصدر حكمها بسلب او ايجاب .

وحاولنا هناك ان نتفهم حركات الحسين بالاضافة الى عوامل العصر ، التي لا بد ان تقيد مجاري التاريخ ان للجماعة او للافراد .

وهذه العوامل التي هي مصدر ألوان الزمن ، نسميها تاريخاً حينما تقع في المكان وتحرك الجموع على ما استنّت من اتجاهات وحددت من مذاهب . وبدونها لا نفهم من التاريخ الا انه تكرار لحركات مبهمة لا تعبر لنا عن شيء يدخل في حد فائدتنا .

ويكون الغرض من التاريخ قد ضاع ، حين لا يتسنى لنا ان نصل الجانب الواقعي من الحياة التي نعيشها بالجانب التاريخي . فان الحياة كلمة مؤلفة من الواقع والتاريخ جميعاً وان الجزء الاهم فينا جماعات كنا اوافراداً ، تاريخي محض ، وما دمنا لم نستطع ان نصل مـــا

استوى فينا من الواقعية بما استوى فينا من التاريخية ، فلن تكون لنا فائدة من التاريخ .

بيد اننا نشعر بالحاجة الى التاريخ ، حتى ليخيل الينا ان لدى الانسان طفلاً وشيخاً حاسة سادسة تاريخية ، تُلحّ فيه بحاجتها وتشيع في دخيلته اطمئناناً مشفوعاً بتلبّس للقصة ، كأنما هو يسمع حكاية نفسه او كأنما انتقل عبر الزمن الى حيث يكون الزمان الموهوم وتقوم وقائع الماضي .

وهذا الميل في الانسان يرجع عندي الى ما استوى في مزاج النفس ووحدتها من الجزء التاريخي ، فاذا صادف ما يبعثه تحرك بقوته واخضع المشاعر لمدّه في نوع من الهيام والحنين ، وفي نوع من الاحساس العميق بانه شيء يتصل به اتصالا ذاتياً كأنما مرّ عليه منذ بعيد .

وهذا يبيح لنا ان نستنتج ان الانسان الفطري — او بعبارة اشمل الانسان الذي لم يكوّن له تاريخاً — يفقد هذا الجزء ، ولذلك هو لا يتحسس بهذا الميل او النزوع .

وعليه ففقر القصة او عدمها في أدب أمة ما يرجع الى ضعف هذا النزوع ، الذي يرجع الى عدم توافي الجزء التاريخي فيها واستوائه . وهذا ظاهر لدى عرب الجاهلية الذين لم تكن القصة تستهويهم استهواء يجيء في درجة شهوات النفس او الجسد الاخرى . بينما نجد القصة بدأت تبرز في أدب العرب الذين استقروا وكوّنوا لهم تاريخاً نوعاً ما ، كالحيريين في عهد المناذرة والشاميين في عهد الغساسنة ، فتولد لديهم الميل الى قصص التاريخ . ولعل في الظاهرة

الآتية ما يقطع كل ريب في صحة هـــذا الرأي ، وهي ان القصة اثر كنزة لا تكون إلا حيث يكون للامة تاريخ منوّع .

فالعرب عادوا بعد التاريخ الى تذوّق القصة ،لانه توافرت فيهم لذة الاستماع التي يبعثها الجزء التاريخي في النفس ، وقد قويت هذه اللذة ادراكاً مع التاريخ وتقوى كذلك في كل امة وقبيل .

ونحن نلمس في عصرنا الحالي ميلاً أشدّ الى القصة حتى كادت تتميز باسم الأدب وتستبدّ به عما سواها ، ولقد قال بعض الناقدين : إن الادب هو القصة في القرن العشرين .

واما الشعور بكلية الحيـــاة والشعور بان التاريخ والقصص يعبران عن معان مشتركة اللذان يعلل بهما عادة الميـل الى القصة ، فقد تولدا بلا ريب بعد التاريخ . فان هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الانسان بها بين نفسه وبين الماضين ، وادرك هـذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها . فتعليل الميـــل الى التاريخ والقصص بهذا الشعور التجريدي الكلي ، تعليل بالسبب المنفعـل دون السبب الفاعل الحقيقي .

وهذا الرأي الذي نعطيه في بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها ، حتى وصلت الى درجة ان تصبغ الادب وتسيطر عليه بصبغتها ، حقيقي جداً . . . وانا اشعر بحاجة الى الزيادة من ايضاحه لانه يصحح جملة الاوهام وطائفة الاخطاء الشائعة في الموضوع .

لا ريب في ان الانسان الذي اسلمه التاريخ الى العصور يمتاز بحاسة تاريخية خاصة ، تفصله عن الانسان الذي اسلمته الطبيعـــة الاولى والذي انبثق من يد الله . وهـــذه الحاسة تزداد عملاً في

الانسان بازدياد عمل التاريخ فيه وتنبّه العصور في اعماقه ، والميل الى التاريخ او القَصَص وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها ، وهو أي الميل يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري . ومن الخطأ الظن بان ميل الانسان الى القصص فطري او عفوي . بل هو نتيجة تلبّد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومده بايحائها . وهذه الحاسة التاريخية الحية تتطلب غذاءها وتكون في بعض من الشعوب نهمة ونهمة الى حد كبير ، ولكن هذا النهم ليس متروكا للعفو والطبيعة العرقية بل هو خاضع لسنة نشوئية خالصة ما دامت الامة قد اتصلت بالتاريخ واتخذت خطواتها فيه .

وهذا الرأي ينتهي بنا الى تفسير : لماذا كان ادب اليونان فقيراً من القصة في جاهليتهم ؟..

ولماذا أثروا بالقصة بعد التاريخ ؟

ولماذا كان أدب العرب كأدب اليونان فقيراً منها في الجاهلية ، ثم اثرى بها بعد التاريخ حتى بلغت قمتها في الف ليلة ؟

ولماذا بلغ نهم الحاسة التاريخية بعد ذلك في الجمهور العربي الى درجة لم يثبت أمامها نحو من الادب والفن ، كما تشهد بهذا قصة حب علي بن آدم والبخلاء ورسالة الغفران والزوابع والتوابع وحي بن يقظان والمقامات واحاديث ابن دريد الاربعون ومصارع العشاق ، واعطت عصور النهم قِصَص عنترة وابي زيد الهلالي والملك سيف ؟

ولماذا زاد الميل الى القصة في الأدب الاوربي الحديث عنه في

القرون الوسطى ؟

ونحن إذا نحصر نظرنا في الادب دون أن نلتمس أنحاء أخرى ، لان الادب أكثر استجابة إلى رغبات الجمهور وتطلّع المحيط، وهو إلى ذلك يتلوّن بمختلف الالوان ويحفظ بتلونه تراوُح العوامل التي أثرت فيه .

فعدم وجود أدب القصة في أدب العرب الجاهلي ، معناه عدم ميل الجمهور اليها او ضعف هذا الميل عنده التابع لضعف الجزء التاريخي في مزاج النفس ووحدتها .

إذن فما ذهب اليه مؤرخو الآداب من إسناد خصائص واستعدادات مزاجية لبعض الشعوب دون بعض اقتضت ذلك ، خطأ محض . ناهيك أنه تعليل غارق « باوهام الكهف [1] والسوق » على ما يسمي ذلك « بيكون » في منطقه الجديد ، كما أنه تعليل يعطي في كل مثال [2] رأياً ولا يقوم في قانون يبيّن العلاقة الموحدة بين حادث السبب وحادث الاثر .

---

(١) يعني بالكهف شخصية الفرد التي تكونها الطبيعة والبيئة والتغذية والتربية . ولما كانت تلك العوامل مختلفة باختلاف الافراد كان لكل انسان نزعته الخاصة واخطاؤه الخاصة. ويعني بالسوق عقلية الوسط ولها اوهام تنحل في تفهم الافراد وتعقلهم .

(٢) من مثل تعليل فقر الأدب العربي من القصة بعدم استعداد العرب الطبيعي لها ،وتعليل القص عند بعض الأدباء العرب في العهد العباسي بالتأثر الأدبي والدموي ،وتعليل ظهور الف ليلة بالمزاج الأدبي الخليط ، وتعليل القوة والضعف في القصة عند الأمم المستعدة لها في مزعمهم بتعاليل شتى لا تستند الى تعليل يقوم على مؤثر واحد .

والقصة على أي حال وباطلاق لا يمكن أن تنشأ إلا في أمة اجتمع لها تاريخ منوع ومر بها زمن كان كفيلاً بتزويد الافراد بحاسة تاريخية تجعلهم يتذوقونها ويميلون اليها .

وهذا الرأي الذي نقرره يكشف عدا الخطأ المذكور، عن كثير من الأوهام التربوية التي جنحت إلى القصة كأسلوب للاطفال بتعميم خاطيء . بل لا بد لسلامة التطبيق من مراعاة مرور الزمن وقيمة هذا الزمن في توفير الحاسة التاريخية في الوسط المشترك للطفل وتفاوتها . وقد ينتهي بنا هذا الرأي الى إخضاع الأسلوب التربوي للقصة لمن هم فوق الطفولة ، اذا كانت الحاسة فيهم أكثر تحكماً واقتياداً .

كما يدلنا على السبب الصحيح لاخفاق أدب القصة لدى بعض الشعوب ، والسبب في عدها نسيجاً أعلى عند بعض الشعوب الأخرى ، وأيضاً يدلنا على أن العناصر التي تلزم لتذوق القصة تتفاوت بتفاوت الحاسة المذكورة . والقصة في نظري لا فن لها ولا عناصر قاعدية إلا نسبية فقط ، فهي محدودة بالزمان والمكان والسكائن . والتقليد او الاحتذاء وَهم وبُعْد عن فهم ما ثبت في جوهر النفس المتحول الذي يسح الفن بتهاويله ويمد الادب بالحياة والروح .

فالداعية الخفية فينا الى التاريخ والقصص التي نحس بها ظامئة على الدوام ستطلّعة على الدوام ، هي وليدة ما استحال في جوهر النفس من أشياء الماضي المتلبد ، وتمدد في بنائه كهُلاميّات عاملة حية . واذا ثبت أن فينا جانباً تاريخياً ، فلا منقلب لنا عن أن نتفهم وقائع الماضي كتاريخ ، وان نتصل بالمشاعر التي سيطرت

فيه كعرض وقصص ، وبذلك يظل التاريخ مادة حية شاعرة .

واستواء الحياة في الحاضر إنما يقوم على دوافع الماضي وجواذب المستقبل ، فلا جرم أن كانت بنا حاجة إلى التاريخ التعليلي من حيث اتصل بالمؤثرات الحقيقية ، وداعية إلى التاريخ الوصفي من حيث نرى الصور المختلفة التي طفت على سطح الحياة المحتجبة .

*

ونحن في هذه الحلقة نحاول عرض حياة الحسين في شيء من القصص الواقعي الذي لا بد أن يُنبِه فينا كامن الحس بما يبث من الايحاء الصامت ، ويهيء جوهر النفس لما سماه « تولستوي » عدوى الشعور ، وهو ذو أثر بعيد فعال في تكوين الشخصية الممتازة .

وقصة حياة الحسين لا تدعنا نخرج بتأمل سلبي تختلط فيه الدهشة بالاعجاب فقط ، بل تزودنا بما يدعونه « الاشتراك في الوعي » أي بتأمل إيجابي يجعل فينا اشتراكاً في الصفة الشعورية .

وكذلك تستحيل النفس الانسانية استحالة أخرى بما أسميه « عدوى التاريخ » . فعلينا لذلك أن نعرف كيف نستثمر التاريخ مثل قوة تنصَبّ في شراييننا وعروقنا ، وكيف نحوّل تياره المبعثر في اللجج الباهت ليزيد حياتنا حركة ، وحاضرنا اندفاعاً ومضاء .

والحسين شخصية إيمان ومبادىء ، وشخصية دعة وسلام ، ولقد أرانا في كل جانب ألواناً .

فكان جزءٌ من تاريخه عقيدة والجزء الآخر جهاداً ، فكُتِب الخلود له وكتب علينا أن نأتمّ به لنجرب إيماننا في الجهاد وجهادنا في إيمان .

وأية شخصية هي أحفل من شخصيتنا التي ندير الحديث عليها بمعنوياتها وفعّالياتها ، وأيها أحظى بآثارها ، فلم يكن لنا معدل عن أن نتوخاها ونستفيد منها في الذكرى ، كما استفدنا منها في الحياة.

ولست أزعم لنفسي شيئاً من الفضل وإن جهدت في تفهمها زمناً غير يسير ، فانني كلما أوغلت فيها رأيتُني أحوج ما أكون إلى ابتداء درسها مرة أخرى بمعنى جديد . وكذلك ستظل ينبوعاً يَرِدُه الصادي وهو يجد في كل رشفة معنى ولذة ونكهة ، ثم لا يحور معناها ولذتها ونكهتها في مذهب إحساسه وشعوره .

يوم المدينة

كنت ترى الناس في المدينة يروحون أفواجاً ويغدون أفواجاً ، والغبطة تملأ جوانحهم بهذا الحدث المجيد . وهم وان لم ينصبوا « قوس النصر » حقاً ، فقد كان معناه في قلوبهم الطافحة بكبرياء العقيدة وكبرياء المعنى ، وفي عزائمهم الطافحة بكبرياء الذاتية وكبرياء المجد . وكان الناس يختلطون ويتحلقون في كل مكان ، وعلى أفواههم كلمات ضاحكة بسر المرح المنشور ، فقد كان هذا اليوم يوم الظفر ببدر [1] .

غدت المدينة منذ هذا اليوم ، بلد الدولة بعد أن لبثت زمناً وهي بلد العقيدة ، وفازت بتجربتها الرائعة وخطّت أبهى سطر في مجد العرب ومجد الانسانية جميعاً . فلم يكن هذا النصر تسجيلاً لهزيمة فريق وظفر آخر ، بل كان تسجيلاً لظفر الانسانية الجديدة المحرّرة على الانسانية الرجعية العتيقة ، إنسانية الأغلال والقيود وإنسانية الاستعباد الوحشي المنكر .

كان هذا الظفر في حقيقته ظفر الفكرة الجديدة والعقلية

---

١) مناسبة هذا الفصل من حيث ما ورد في الروايات من أن زواج علي بفاطمة كان بعد وقعة بدر الكبرى فهدنا بهذا الفصل لفصل يوم القران ...

المتطلعة ، وظفر المثالية والاخلاق على المادية الصارمة والاباحية الجامحة ، وكان يوم تحرير الانسان من شتى العبوديات الدينية والاجتماعية ، ويوم تجديد الانسان وإنشائه إنشاء آخر .

غدت المدينة في أبهائها وأمجادها الحفيلة بلداً جديداً ، فلم تعد « يثرب القديمة » التي كانت كفيرها وكراً من أوكار الفكر البالي والعقلية الجامدة ، التي لا لون لها سوى ذلك اللون القاتم وكان يشيع في جزيرة العرب ، ولم تعد ابداً بعد اليوم مركزاً للنظام الاجتماعي المتأخر الموروث من شرائع الغاب وفيه الطبيعة البربرية ، وكان يشيع بشتى مظاهره في كل العالم القديم . فالشعب ضحية الطبقات وهؤلاء جميعاً ضحايا فرد مستبد يلاشي كيان الأمة في كيانه ، ويحوّل تيار النشاط في الشعب الى ما يغذي أطماعه ويشبع ميوله ورغباته .

غدت المدينة منذ هذا اليوم ، مركز الفكر الناهض المشع والنظام الاصلاحي في كل حقل من حقول الاجتماع ، ومركز الدولة الحية الجديدة التي بدأت تنزع الأغلال السابغة عن كل انسان في كل مكان . وكذلك امتدت وانطلقت كما يمتد وينطلق خيط النور سريعاً سريعاً حتى انتظمت معظم العالم القديم .

لبثت المدينة أياماً مديدة وهي غارقة ببهجاتها ، منتشية بما أحرزت من نجاح ، فقد حملت شعلة الاصلاح وغدت رسول المدائن والأمصار ، وهي لن تتنازل عن رسالتها الى العالم مهما كلّفها تبليغ هذه الرسالة من تضحيات دامية ووثبات حمراء .

احتضنت المدينة عقيدة خالدة ونظاماً إصلاحياً خالداً ، ثم ألفت

حزباً خلاّقاً فدولة محرِّرة . وكان من حظ بلاد العرب أنها شهدت لأول مرة تجربة نظام محمد الاجتماعي ، وقد نجحت في حـــدودها ونجحت خارج حدودها ، وفيها القدرة على النجاح دائماً ...

كان في أفواه الناس حديث واحـد كله الاعجاب ، منذ تسنى لفئة قليلة مؤمنة ، أن تحطم حملة كاملة جهزتها مكة وتمزقت شعاعاً . وخطورة النصر ترجع الى أن المعركة لم تكن من نوع المعارك التي تحدث كثيراً وتقع كثيراً ، وإنما كانت صراعاً بين مبدأين وعقليتين وحياتين وقد انتهى بغلبة الاصلح منهما في كل أولئك جميعاً . فشاع في الناس كافتهم نوع من الفرح العقلي كالذي يحس به رجل الفكر وهو يجهد جهده بسبيل المعرفـة ، ونوع من الفرح النفسي كالذي يستخف المكافح الظافر والآمل الواجد .

وكان يمر بين جموع الناس رجلان يهوديان مطرقين في تأمل في أكثر تطوافهما ، وأحياناً يأخذان باطراف الحديث الخفيض الهامس وهما : مُخَيريق (١) وعبدالله بن سلام .

قال مخيريق : لشد ما يدهشني ويروّعني هذا الظفر الذي أحرزه محمد وحزبه ، فقد كان ظفراً سريعـاً وناجحاً ولا ينشب ان يتخطى حدوده الضيقة ويشمل الجزيرة كلها بنظامه الاصلاحي القويم وتعاليمه

---

١) هو مخيريق النضري الاسرائيلي . قيل من بني قينقاع وقيـــل من بني القيطون . وذكر الواقدي والبلاذري أنه كان عالماً وأسلم . قال لليهود يوم احد : ألا تنصرون محمدا والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم بمقتضى المعاهدة . فقالوا : اليوم يوم السبت . فقال : لا سبت . واخذ سيفه ولحق بالنبي فجرح جراحاً قاتلة ، فلما حضره الموت قال : أموالي الى محمد يضعها حيث شاء . راجع الاصابة لابن حجر العسقلاني ج٦ ص٧٣ .

الواعية الأخاذة ، حتى لقد بلغ من مدى فاعليتها أنها تحقق لنفسها الانتشار السريع دون ما دعاية وتبشير .

قال ابن سلام : لكأنك – يا مخيريق – تحس بما في نفسي وتنطق عن لساني ، فاني دَهِش كدهشتك ومروّع كارتياعك ، وما أحسب محمداً إلا مفضياً الى منتهى عظيم جلل ، وكل ما يبدو لي ينذرني بهذا المنتهى إن لم يكن أقل ما سيبلغ اليه .

ومحمد واثق كأشد ما يكون ، فقد أوجد مادة حية وصححها تصحيحاً معنوياً ، وولّد فيها قوى لا حد لها وغزاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكوّن بينهم وحدة في الصفة العقلية والشعورية ، كما غرس في قلوبهم طبيعة الايمان الصحيح الذي يزدري هبة العاصفات ، وحرر أفئدتهم من الأساطير والاوهام وبَلوَر عليهم الفكر وعوّدهم النظام وألزمهم الطاعة وكلمة التقوى فكانوا أحق بها وأهلها . وليس يخطئني ظني في أنه لن تقوم لشريعته شريعة ، ولن يثبت لقومه قوم .

قال مخيريق : هيّجت وايم الله في نفسي حديثاً طالما كنت أذوده عن لساني ذِيَاداً حتى لا يجري به ولا أراني إلا مفضياً به اليك .

نظرت في شرائع العالم ونظمه على اختلاف ألوانها وقلبتها على شتى وجوهها ، فانتهيت الى أنها تتناصر على سحق قوى الأفراد والجماعات واستغلالهم استغلالا أنانياً صارماً . وهذه الشرائع والنظم متعاونة فيما بينها من أجل هذه الغاية التي لا تتفق بحال والحرية الذاتية للبشر ، فسبيلها القضاء على الكفاآت والقابليات التي هي

عنوان امتياز الانسان ، ليعولوا دون أن يتم النشوء دورته وبذلك يستسلم لهم القطيع .

ولقد بات المجموع البشري من تأثير هذه الأدوار في روحية جدّ مريضة ، وانكفأت الجماعات تهوي في أتون التنازع الساحق ، حتى لكأن البشرية في دور احتضار لا تلبث معه طويلاً أن تنقلب هامدة لا حِراك فيها .

فلم يعد في الأديان ما يروي ظمأ النفوس ، بل على العكس غدت الأديان مادة الظمأ ، كطالب الري بالحنظل فانه لا يروى ولكنه يزيد شعوراً بالحاجة الى الري . فالأديان الذاوية الكسيفة ، و« الهرطقات » المستطيرة ، والاوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والنظم الاقتصادية التي أذكت نضال الطبقات بشرّته المفظعة ، والتداعي الاخلاقي ، ويقظة الاباحية الطامسة ، كل ذلك أعـــد العالم بقصد ودون قصد الى انتظار كلمة البنّاء العالميّ . ولا أظن محمـــداً إلا ذلك البناء العالمي الأعظم ، ولا أظن دولته الصغيرة في حدود المدينة إلا نواة تلك الدولة العالمية العامة ، التي ستصهر في بوتقتها الفوارق الملية وتستعلي عـــلى الاجناس والشيع ، فالاسلام عقيدة ودولة وجنسية .

عرف محمد سلسلة الارباب المترابطـــة في نسق ، وعرف ان البشرية لن تتحرر من هذه العبوديات المركبة المتداخلة ، التي تؤلف خطراً على الفكر البشري وبوارز الامتياز الانساني ، وتغل النشاط الحيوي بما ترزح به ككابوس ضاغط وجاثوم مروّع الا بعمل عنيف ، وعرف ان حجر الاساس في بناية العبوديات الشامخة هي الطبقـة

الروحية التي تسوق الجموع طائعة بما تسيطر به على مناطق اللاوعي ومراكز اللاشعور . فأعملَ معوله الاقدس في بنـــاية العبوديات الراسخة التي شهدت من نوع تلك العواصف شيئاً كثيراً ، فمزقت رياحها المتناوحة المزمجرة وبقيت في محلها شامخة راسخة . لكن محمداً عرف سر ثباتها فسدد ضربته الاولى الماضية الى هذه الطبقة وربوبيتها [1] وتحداها في نوع من السخرية والاستفزاز المثير ، وما هو الا ان تزلزل حجر الاساس وخرت صروح الربوبيـــات التي سخرت بالزمن مذرورة متناثرة في حالة تبعثر وتراكم .

ثم وقف محمد فوق أطلالها شامخاً يعلن حرية الانسان [2] وحقوقه في الاستقلال [3] الذاتي ، ويعلن حرية [4] العمل والانتاج والجهد ، ويقرر مبدأ [5] المسؤولية الشخصية في الحقوق والجزاء ونظريـــة

---

(١) قال تعالى [تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابـــاً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون] سورة آل عمران .

(٢) قال تعالى [فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الاعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والاولى] سورة الذاريات . وقال [فاستخف قومه فأطاعوه] سورة الزخرف . وقال [لست عليهم بمصيطر] سورة الغاشيـــة . وقال [ربنـــا إنا اطعنا سادتنا وكبراء نا فاضلونا السبيلا] سورة الاحزاب .

(٣) قال تعالى [لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت] سورة البقرة . وينبغي ان يلاحظ ان القانون العام يخضع للقانون الادبي .

(٤) قال تعالى [وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الاوفى] سورة النجم .

(٥) قال تعالى [وكل انسان ألزمناه طائره في عنقـــه] وقال [ولا تزر وازرة وزر اخرى] سورة الاسراء .

الجزاء للحق العام[1] ، وينزع أغلال الفكر . فمحمد حارب الربوبية في شخص الاوثان الجامدة وحارب الربوبيـة في شخص الاوثان الاجتماعية الحية ، وبذلك حرر الفكر وحرر المجتمع .

والمدهش — يا ابن سلام — في منهج محمد الاصلاحي انه قام على الزلزلة الفكرية، ليُعِدّ النفس التي خلصت[2] من وراثاتها الى اعتناق كل مبدأ صالح مهما بدا نابياً والمبادىء السائـدة ، ويفسح للافراد والجماعات سبيل التفكير المنطقي الهادىء الخـالي من شوائب الافكار الاولى ونزغاتها . وكذلك لم يعمد الى تصحيح الاوضـاع القائمة وتغييرها فقط كما عمد المصلحون من قبل، بل قصد الى تصحيح فكرة الحياة اولاً ليضمن روحية جديدة يتوقّى معهـا الردة والانتكاس اللاشعوريين ، وكانا آفة كل اصلاح خرج عن يـد المصلحين السالفين .

اولئك كانوا يصححون الاوضاع ويشيعونها في المجتمع، وروحية الجماعة لم تزل غارقة في الاوحال والامراض ولم تزل تالفةً اشـد ما يكون التلف . فلا تلبث الاوضاع ان تفسد بفساد روحيـة

---

(١) قال تعالى [ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون] سورة البقرة .

(٢) قال تعالى [واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينـا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون] سورة البقرة . وفي هذه الآية تحرير للعقل من الوراثات ودعوة الى نقدها على ضوء المنطق والفكر المجرد ، وبذلك قضى القرآن على الوراثات كأساس للفكر وحكم العقل بها فلم يشجب القديم الموروث مرة واحدة بل القديم الذي يصطدم بالمنطق في سنـة النشوء وجاء تحريره للعقل من حيث انه قضى عليها كأساس للفكر .

الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاوده الحمى، ويكون المصلح لم يزد عن انه نجم التمع فجأة ثم ابتلعه خِضمّ الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة اولا ثم صحح النظم والاوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحمى.

فمحمد لم يصنع أمة في عِداد الامم بل صنع أمة في عداد الرسل الى كل الامم، واكبر ظني ان امته ستنطلق في جسم العالم المتداعي كما تنطلق العصارة وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم — يا ابن سلام — بُداءة دنيا جديدة وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة اخرى كما أراد محمد ان تكون، وكذلك يفرض المصلح نفسه على الزمن.

قال ابن سلام: أراك — يا مخيريق — تتكلم كلام من استهوته رسالة محمد وما ابرئك، ومع ذلك فاني انصفك بانك لم تجاوز المنطق في دائرة اولها الفكر وآخرها الحس. ولقد شاءت لي الظروف ان اجتمع ببعض من أتباعه، وهو وان لم يكن له جلاء منطقك ودقة تحليلك فقد غمرتني روحيته ولعبت بي تياراتها، وما احسب نفسي أقل انجذاباً منك.

واذكر اني سمعت آية [1] تدعو الى الايمان العقلي من قرآن محمد، وما هي الا ان تمددت في قلبي وعقلي جميعاً فتمددت لها نفسي واخذت طريقها الى ما وراء القوى الواعية ومضت تفعل فعلها تارة

---

(١) قال تعالى [قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني] سورة يوسف.

في الفكر وتارة في مذاهب الشعور ، حتى انتهت بتركيز فلسفتها عليّ وتركيزي عليها ، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بانها فلسفة ينبغي ان اعهدها في اول ما اعهد من قضايا العقل ، واذا بي احسّ احساساً عقلياً بانها كل المنطق حتى لم يعد لي مَعْدِل عن ان تكون مقدمة الفكر .

والعجب – يا مخيريق – ان محمداً عالج قضايا الدين والعقل والحياة والاجتماع ، وأعطى حلولا هي ما ظلت الانسانية تائهة عنها وعبثاً تنشدها . ولعل أعظم ما يستوقفني ويغريني حله لمعضلة الاديان فهو لم ينقضها بل صححها من الطفيليات العالقة عليها ، فان في كل دين قضايا الحق الاولى وقد تناولها كل قبيل بنوع عقليته وما ثبت فيها فلوّنها بلونه ، ولا زال يلبسها ويضيف اليها ويحمل عليها حتى اختفت قضايا الحق وراء استار صفيقة ، وغدت كاللباب تحجبه قشور قاسية . والذي يثبت في عقل الجماعة مظاهر الاشياء دون حقائقها المحجوبة ، فوقف ايمان الجموع عند حد المظاهر وعمل التاريخ عمله في هذا الايمان فتحجّر عليها ، رغم ان هذه المظاهر والاشكال ليست سوى انعكاس من وراثات القبيل .

ولكن محمداً استطاع باعجاب ان يكتشف قضايا الحق الاولى وان يبصر مكانها في كل دين رغم كل الاستار الصفيقة ، فاعلن للناس على اختلافهم وحدة الاديان وان قضايا الحق الاولى واحدة في كل دين ، وهي لا تتغير الا اذا تسنى لناموس الطبيعة ان يتغير ، وأعلن أن ما يتوهمه الناس لباباً هو قشور فقط وبضربة حطمها ، وأعطى تحديده الدقيق للدين الجديد. فكان عمله وجهاده فقط في

تجريد قضايا الحق مما ران عليها وعلق بها ، أو رَدّ النـــاس الى حقائق دياناتهم ، التي أفسدها النضال الطبقي والقومي وأفسد كل مجتمع من ورائها ، رغم ان الاديان ما جاءت الا لمحو هذا النضال .

وكما قلت — يا مخـيريق — ليس من الممكن للمصلح إذا أراد البناء المكين ، أن يتجه الى العقل الملوّث المنحرف والفكر الغارق بالاوهام ويحمله رسالته ، بل لا بد من مهاجمة هذا العقل وهـــذا الفكر حتى اذا تطهرا اتجه اليهما من جديد وذهب يبني ، وبعبـــارة أصح ذهب يخلق ، وكذلك فعل محمد وكان له ميزة على المصلحين .

وينبغي أن نعرف أن محمداً لم يكن مغامراً يتستر بخطة الاصلاح ، وإنما كان مصلحاً دفع المغامرة في طريق الاصلاح . وبينهما أن أولهما أناني بلحمه ودمه ، يطلق العاصفة كهملاق ويدفع الجموع الى التواثب فوق القمم ، وزلة في العاصفة تترك الجموع في فضاء الهاوية طيوراً تحوّم في المنحدر السريع السحيق ، ودائماً ينتهي بالتهديم ليقف من بعدُ على أطلال الاشلاء مسخاً جاحظاً متقلصاً . وثانيهما غـيريّ في شعوره وضميره ، يضبط العاصفة ويصرّف مخزونها فيما يعود عـــلى المجتمع بالانشاء وتوفير القوى والطاقات ، ودائماً ينتهي بالبناء ليقف واتباعه من بعدُ على القمم .

قال مخيريق : لله كم تفعل العقيدة في النفوس ، فانها تصنع من الضعف قوة وقوة لا حد لها . ألا ترى أصحاب محمد كيف غـدوا بفضل العقيدة الخلاّقة ، قوة لا تتصل بالضعف بعد ان كانوا ضعفاً لا يتصل بالقوة ... وهذا صحيح فان الفكرة تصنع الحياة والحياة تصنع القوة ، فلا قوة بدون فكرة تقذف الطاقة والحياة جميعـاً .

بلغني وانا مما بلغني في عجب ، إخالك تعرف فتى قريش وطالما شاهدته هنا في المدينة ، وهو من ينعتونه بحامي الاسلام « علي بن ابي طالب » ، بلغني انه كان من استبساله وتفانيه في نصرة مبادىء هذا الدين الجديد ، ما جعله في بدر الكبرى أمة من الابطال كأنها تنطلق في كل مجال اذا انطلق ، فمن كل وجه عليٌّ ، ومن كل صوب عليٌّ نفسه ، حتى لأجد على كل لسان : ان فتى قريش هزم الجموع من قريش .

قال ابن سلام : اذكر اني أعرفه وأذكر أن له سيماء ناطقة بالصلابة والعزم القصي ، ورغم حداثته فقد قذف في روعي أنواعاً من التجلة وأنواعاً من الاسر ، حتى لاحسبني بتّ مأخوذاً عن نفسي ساعةً بشيء لا أفهم كنهه وهو ما يسمونه سحر الشخصية .

واذكر أن حديثه اليوم على كل لسان ، وهم يشفعونه باعجاب طائف ممدود ، (أليس الذي فعل الأفاعيل بقريش) ، هذه عبارتهم التي لا تكاد تسقط من حديث احد عنه ، حتى غدت تقليدية وطبيعية . قال هذا وسكت مطرقاً ويده تداعب جبهته كالذي يريد ان يتذكر شيئاً اقدّر انه خطير ، وعلى فُجاءَة نقر جبهته نقرة شاع سرورها في مقلتيه واساريره .

قال : يا مخيريق سأخبرك خبر فتى قريش يوم تزمّل في فراش محمد ليلة الهجرة إيهاماً عنه ... قال مخيريق : اذكر اني سمعت شيئاً من ذلك ... ومضى ابن سلام في حديثه : إنها مغامرة يظنها البسطاء دون استبساله في معركة بدر ، لكنها عندي من وجهة العقيدة اعظم شأناً وقد لا يعدلها موقف . فان الاستبسال قد تولده حماسة

المشهد واصوات الجموع الماجّة ، وقد تولده خيلاء الذاتية في موقف لا مفر عن الظهور فيه ، وكثيراً ما بدّلت هـــذه المشاهد نفسية الجبان كما لا تدل على اثر العقيدة دائماً .

ولكن تلك ، هي مغامرة العقيدة المجسمة ، فقد كانت تعريضاً للنفس دون تذرّع باسباب الدفاع وبكل هدوء ، فليس فيها انفعال عنيف يُنسي المرء ذاته ويدفعه الى عدم المبالاة دفعـــاً قسرياً ، وهي مغامرة ان كانت تعبر عن شيء فانما تعبر عن نسيان الذات على كل حال ، بفاعلية العقيدة وحدها التي طغت على كل المشاعر واستبدت بها . ان التضحية رهيبة — يا مخيريق — دائماً ، ولكنها أرهب ما تكون في المواقف الهادئة التي لا تثير الاعصاب بشعور غير عادي .

إن محمداً عرف كيف يجعل النفس العربية مؤمنة ذات آفاق في الايمان ، فكانت بذلك قوية ذات آفاق في القوة . خصوصـــاً وايمان محمد يجعل المرء لا يرى في حدود الايمان ويرى الايمـــان في حدود كل شيء ، كتلك الفراشة التي أسلمها المصباح اليـه فهي لا تحول عنه وان كان في ذلك انها تحول عن الحياة . وبهـذا صغرت الدنيا والحياة وفكرة متاعهما في قلب أصحابه ، لان عقلهم لم يعد ينبعث من حدود غرائزهم بل من حدود تعاليمهم . والاعتقاد نفسه غريزة طبيعية ، وبين الغرائز كما بين سائر الاشياء تناحر على الظهور والبروز ، وأكثر ما تتم الغلبة للغرائز الدنيا لانها ادخل عضوياً في تركيب الكائن الحي ، ولا تتم الغلبة لهذه الغرائز أبداً الا وتشـــد اليها العقل والقلب فيفسد العقل وينحط القلب .

فعمل المصلح ينحصر في تنشيط غريزة الاعتقاد لكي تسيطر بروح الايمان الجديد، وهي تشد العقل والقلب اليها فيصلح العقل ويسمو القلب ، حتى الغرائز الدنيا تصبح دنيا بمعنى جديد . فهي لا تنبعث في شهوة الجسد بل في شهوة الروح المركزة بالايمان ، وان شهوة الروح الشعورُ بذاتيتها العليا في الفطرة والاخلاق والاجتماع ، ولا يزال الايمان يعمل عمله حتى يجعل في الغرائز عقلاً وفي الشهوات ارادة وأخلاقاً . فمحمد صحح نفوساً وأوجد مادة مؤمنة تنطلق كما ينطلق القدر الواقع الى مصيرها وغايتها ، وهي بهذا الشعور مجتمعة كمثلها متفرقة ، فقلب الجماعة شعور متجاوب بين قلب وقلب .

ويعجبني في فتى قريش أنه يملكه إيمانه حتى في أحرج ما تكون رهبة النفوس ، وقليل هم الافراد الذين يملكهم الايمان، وهذه ميزة أصحاب محمد ، بينما الآخرون يحاولون أن يملكوا الايمان ، وفاتهم ان الايمان إما أن يكون كل شيء في النفس واما ان لا يكون شيئاً فيها ، والفرق بينهما كالفرق بين من يُصَرّفه الايمان وبين من يتصرف به .

قال مخيريق : لشدّ ما تفعل العقيدة في النفوس ، ولله أنت يا محمد كم هي أخّاذة تعاليمك ... قال هذا وسكت يفكر في امر يبدو مهماً ، ولبث طويلاً يحاول ان يجد النقطة التي يبتدىء منها الحديث فاطّرد معناً يقول :

يسرني اننا متفقان في الفكرة والميل ، ولكن ما الذي يحول باليهود عن محمد رغم ما يعلمون انه سيغمرهم لا محالة ، فاذا طاولوه كان لهم منه يوم كيوم « بختنصر » ... وكان مجرد ذكر بختنصر

كافياً لبعث آلامه القومية الدفينة ، فتغشّته سحابة حزن ولكنه واصل حديثه :

أعرِفُ أن قومنا شردوا مراراً واضطهدوا مراراً ومن شعوب مختلفة ، فحقدوا على كل امة وتآمروا بكل مجتمع ، وبثوا روح الانتقام في كل تصاريفهم متخذين كل شعب هدفاً ، غير مفرقين بين قبيل وقبيل . وبذلك أخطأوا في عدم تحديد التبعة الذي اكسب نفوسهم صفة الغل السحيق وأفقدهم رغبة التعاون مع الغير ، وصفة التبادل المخلص حتى مع قوم لم يكن منهم إلا الاحسان اليهم ، كهؤلاء العرب الذين احتضنونا بينهم وآحلونا محل أنفسهم واختصونا بانواع من العطف في هجرتنا الاولى [1] والثانية الى جزيرتهم .

قال ابن سلام : ان ما ذكرته سبب ولكن وراءه اسباباً اكثر فاعلية فيما أعتقد ، حتى لقد جعلت روحية اليهود من سوء أثرها البارز في كل دور معضلة اجتماعية ، وعناصر هذه الروحية كما أحس :

أ ــ المادية : التي استهوتهم استهواء فظيعاً وحلت معنويتهم الى درجة جعلتهم لا يتورعون عن استخدام أسمى مثالياتهم ومثاليات من يحلون عليهم بسبيل المطامع ، ولا يعوقهم عنها أنها دنيئة أحياناً . فكان لهذا أثر في توليد صفة الجشع والشره والافتراص ، وحين تكون المادية هي مثالية الامة فقد باتت خطراً وشكلت معضلة دائماً .

ب ــ طبيعة التطفل : حقٌ للفرد ان يجني ثمرة جهده ، وحق

(١) راجع كتاب « تاريخ اليهود في جزيرة العرب » للدكتور ولفنستون .

للجماعة أن تجني ثمرات جهودها ، وأما ان يجني المرء ثمرة جهد الغير فهذا عدوان منكر . والحياة قائمة على الجهد فمن لا يجهد لا يحيى . هذا منطق الطبيعة ، وخفف المصلحون من حدته بالتعاون الذي يحفظ توازن الطبقات ، على شكل ما ترى في تعليم محمد الجديد في نظام الزكاة والصدقات والكفارات . واليهودي من طبيعته انه لا يبذل جهداً يوازي الفائدة ، بل يسعى الى أن يستحوذ على أكبر فائدة باقل مجهود . وهذا لا يأتي الا عن طريق التطفل على جهد الغير واستغلاله. فتولدت بينهم طبقات المرابين والمضاربين وما شاكلهم ، وهؤلاء جميعاً يشكلون في النظر الاجتماعي بيئة طفيلية شديدة الخطر على سلامة أي مجتمع كان .

فاليهود طفيليون يمتصون المجتمع بشتى الطرق والوسائل كالهوامّ التي تطلب حياتها على جسم حي ، ولذّ لهم هذا الطريق الهين فألفوه وافتنّوا في أشكاله مستفيدين من الوسائل الخاصة بكل عصر .

ج – الفوضوية : عرف اليهود أن وسائلهم للامتصاص لا بد أن تنكشف ما دام المجتمع في حالة من الهدوء ، فأخذوا أنفسهم بايجاد أسباب الاضطراب والفوضى ، تارة باختراع مذاهب دينيةّ ومحافل سرية ، وآونة ببث مبادىء اجتماعية جديدة ، واخرى بتزيين الحروب . وثبتت هذه الفوضوية فيهم كطبيعة حتى غدوا مادة الفوضى والثورات في كل مجتمع .

من هذه العناصر تألفت الروحية اليهودية .

واليهودي قد يصلح اذا ارتد الى الارض وفارق صفة التجواب

التي تجعله لا يخلص لأمة مهما عاش بينها واسترد مثاليته الضائعة . ألست تلاحظ معي ان « بني قُريظة » المزارعين أكثر ميلاً للتعاون مع محمد ودولته الجديدة من « بني قينقاع » المرابين ؟

قال مخيريق : بلى نعم ما تلاحظ.. ومضى ابن سلام في حديثه : ولست أتردد أبداً في أن هذه الروحية البغيضة هي التي تحول بين اليهود ومحمد الذي حارب هذا الخليط المنكر في روحيتهم .

قال مخيريق : ألا تجيبني الى أمر قد يحقق فكرة انقاذ الشعب اليهودي التائه ، وانتشاله من أوحال المادية الصارمة التي لا تلبث ان تقضي عليه وتحطمه ؟ فأنت حَبر اليهود ولك محلك ومقامك ولي منزلي ومكاني ، فتنضم وأنضم الى حزب محمد ، فنضعضع من قوة موقفهم السلبي تجاه الحركة التحريرية المنقذة ، ولا بد أن نترك بينهم أثراً يكفل لنا عدداً إن لم يكن اكبر عدد ، خصوصاً ونفسية الجماعة سريعة التردد سريعة الاستسلام .

قال ابن سلام : هذا ما فكرت به وعقدت العزم عليه وكأن القدر ساقك لتشجيعي ..

وعلى ذلك افترقا ... فمضى مخيريق في الطريق المؤدي الى المسجد، مركز الدعوة والدولة.. وتمهّل ابن سلام حتى يجعل لدخوله صدى أوسع انتشاراً وأشد وقعاً . ولكنه ظل شاخصاً في إكبار لتصميم مخيريق الذي هو دليل النفس الكبيرة ، وفي اعجاب بمنطقه الدقيق الذي هو دليل الفكر النابغ ..

*

الاسلام عقيدة وعمل وحياة ونظام ...

وله في الافراد والجماعات تفاعلات على أنحاء أربعة ...

تتفاعل العقيدة فيه مع الاوهام العالقة بالفكر ، فيغدو فكراً جديداً بمنطق جديد ...

ويتفاعل العمل فيه مع الجهد المبدّد ، فيغدو جهداً منتجاً ...

وتتفاعل الحياة فيه مع الحيـاة المغللة الـكاسفة ، فتغدو طلقة شامخـــة ...

ويتفاعل النظام فيه مع النظام المحموم ، فيغدو انسانياً صحيحاً ...

*

والاسلام بعد ذلك فكرة وإعداد ،

وبينهما تتولد على الدوام الامة والدولة والمجتمع ...

يوم القِران

❁

مضى بين يوم المدينة وهذا الليل الذي استيقظ فيه النبي على ذكرى ناعمة كرَجْع الحنين ومُنعشة كلمسة الحب وشيّقة كوَقع الأمل، أيام إن شئت تحسُبُها بأسابيع[1] فذاك وإن شئت تحسبها بأشهر فقد تصيب.

انجرد النبي من الليل ويده تمسح النوم عن جفونه التي اخذها رقاد هنيء رافهٌ بأحلام الغد، وكانت نفسه تجيش بذكرى محببة اليه قريبة منه حتى لكأنها ترجع الى امس النهار الذي لم يفصل عنه يوم وغد.

وهي ذكرى ما كانت تمر في خاطره إلا وتجيش بها نفسه ويشملها اطمئنان ورضى، على انها لم تكن تعبر مجازها في خياله الا وتترك على مقلتيه دمعة متبخرة واخرى تذوب في خفقة رقيقة وزفرة غير طويلة. ذكرى يحركها عنده طيف ابي طالب الذي كان يتراءى له ويلمّ به احياناً، وغدا بعد يوم المدينة كثيراً ما يراوحه. وكان الطيف يبدو بعد هذا اليوم مزدهياً تلفّه من نواحيه نشوات، ومتلفّعاً باشراقةٍ تشيع عليه من اقطاره، وهي تعبر عن

(١) سكتت الروايات عن تقدير المدة بين وقعة بدر واقتران علي بفاطمة.

وهوّ المكافح الميت بمجد المكافح الحي .

كانت تمر عليه في طيف ابي طالب صور متحركة سريعة ، تتصل بغار حراء ومكة ودار الأعداد والدعوة « بيت الارقم » فيحس بالحنين العميق .

وتمر به صور الاوثان المنضدة التي تحداها في سخرية وهاجمها في تحطيم ، فيحرّق الأرّم .

وتمر به صور ما لاقى من عَنَتٍ إجماعي وهو ماضٍ في كفاحه لا يحفل ولا ينثني ولا يتردد ، معتقداً بالظفر رغم الجموع ، والنجاح رغم تأشّب الباطل وسَورته . وكذلك المصلح الحق ينقطع الفكر بينه وبين العقبات ، ليقول كلمته ويسمع صداها ، ودائماً يكون مزلزلاً مرعداً .

ويبدو ابو طالب من ورائه يدفع عنه ويشد ازره ويحمي حماه ، فيشمله رضى بأنه أدى رسالته وشهد نجاحها في الخلق والانشاء .

وتمر به خديجة في هالة الحب الزوجي الاقدس ، وفي صورة من مقام المرأة وأثرها في حركات البعث والانقلاب ، فيعروه حزن صامت وتقدير خفي واكبار يظهر اثرهما في مركز المرأة من التشريع الخالد ... وتزوي تلك الصور وتثبت هذه الحقيقة :

نجاح الحركات الخلاقة بدعائم ثلاث ، رجلِ المباديء الذي يعمل بقواه المعنوية والفكرية مجتمعة ، والمرأةِ التي تعمل بروحيتها المشعّة وعواطفها الواعية ، ورجلِ الدفاع الذي يعمل بكل وسائله باخلاص ...

وتنتقل به الذكرى ولا تنقطع ، الى الهجرة ، فيمر به عليّ

وتضحيته الرهيبة في التزمّل عنه ، فيرنو في دهشة مُكبرة .

ويمر به غار أبي ثور وصاحبه الباسل أبو بكر ، والطريق المروّع وهما ينهبان الأرض نهباً ، فيشعر بأسى وينكمش على خاطرٍ أن يغدو صانع المجد طريد المهد .

وتمر به يثرب وجهوده في تثبيت العقيدة واستثمارها في بناء قواعد الدولة الجديدة ، فيثغر في ابتسامة عريضة هادئة .

وتمر به سلسلة المعارك التي كان أهمها بدر ، ويرى الجمعين وقد تصافّا للقتال ، ويرى أبطاله على درجاتهم ، ويرى علياً صاعقته المدّخرة تنقضّ في كل مجال ، ويشهد النهاية الظافرة ، فيهزّه في مظهره الوقور سرور بعيد الغور .. وتروي تلك الصور أيضاً وتثبت هذه الحقيقة :

إن أبا طالب كان أسد محمد ورسالته في دور التأسيس ، ولم ينفض يده من الحياة إلا بعد أن قدم في فتاه عليّ ، أسد محمد ورسالته في دور التشييد والاعلاء ...

قام النبي وقد عزم على امر أرضى به ضميره وحبه معاً ، وخرج وهو يشعر بانه أدى حقاً . ومرت به فاطمة وهي تخطر لبعض شأنها ، فقبلها قبلة اجتمع فيها شعور جديد أحست معناه غامضاً مبهماً ، ولكنه استَنبَهَ فيها شيئاً لم تدرِ كنهه إلا انه مبهج على أي حال .

لم يَفصِل النبي عن حجراته بعيداً حين أقبلت أسماء بنت عُمَيْس على فاطمة تزورها ، فأنست اليها كما لو كانت تنتظر لقاءها بلهفة وصبر نافد .. والمرأة تتكشّف الى المرأة بحقيقتها العارية ، وتظهر

المرأة الى المرأة بكل ذاتيتها ، وليست تعطي الرجـــل إلا نصف معناها ويبقى النصف الآخر مجهولاً غامضـــاً ويذهب في غموضه أبداً . فنحن نفهم المرأة نصف فهم لأنها لا تتكشف لنـا الا نصف انكشاف ولا يخرجها من صَدَفتها للعراء إلا الحب ، والمرأة اذا تفتحت أنوثتها ونضجت ،حنت حنينا مبهماً فانها تجد نصف معناها في الرجـل والنصف الآخر في الولد ، وهي تريد ان تحل لغزهـــا فيأخذها هذا الحنين .

أقبلت أسماء إقبال من فهمت شيئاً وتريد المزيد ، وقالت لها : مررت بالنبي وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة وإن كانت لا تفارقه ، حتى لقد خيّل اليّ أنه عزم على أمر فشاع سروره على محياه البهي . ولا يبعد بي ظـــني أنك وقفت عليه ، فقد أعلم أنـــه يَستروح فيك رَوح النبوة وما هو بغريب ، فانك ولدت له بعد مبعثه وقد استحالت النبوة في معناه وغدت له ذاتية ، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى .

استوت فاطمة وقد تألقت في عينيها إشراقة من حلاوة هـذه الملاحظة ، فقد كانت تعزو ما يلقاها به النبي من احتفاء واحتفال إلى محض الحنان الأبوي . وألقت في ابتسامة مفترّة : إذن فأنا شيء منه كالوحي او كالنبوة ، وطيف سماوي في خيـــال أبي عندك يا أسمـــاء .

قالت أسماء : وأنا وايم الله ما جلست اليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله ، وشملتني سكينة لا أحددّها إلا بما تترك في نفسي من اطمئنان لادّ رغيب . ولا تحسبيني من هذا الشعور كما

قيل « تخيّل ثم خالا » بل هو واقعٌ نفسيّ كالري على الظمأ او كالأمل الندي .

قالت فاطمة : يسرني أنك تحبينني هذا الحب ، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي على ما انتهى اليه حَدسُك ؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك ، وإنه عراني إحساس غامض حين قبّلني أبي في هذا الصباح قبلة جديدة المعنى، وبث في قبلته إلى جانب الحنان الذي عودنيه شعورَ من يخشى فراقي ، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزايله حين مررت به .

وكانت حجرات النبي تشرف على المسجد فرأتا شبحاً لم تتبيّناه جيداً ، يدخل مسرعاً ويخرج سريعاً فاشرأبت أسماء تنظر وأطلت من قريب ، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم ينبسط اليه . ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فسارّه بشيء لم تتبينه أسماء أيضاً ، فلم ينبسط اليه وظهرت عليه حركة إعراض غير خافية . وما جاوز المسجد حتى أقبل عليّ فتلقاه ببهجته التي لحظتها عليه ساعة أبصرته أول النهار ، فسارّه طويلًا والنبي ينبسط اليه ويحتفل به ، فقام وعلى ثغره ابتسامة عريضة لم يجتهد باخفائها وإنما تركها تنطلق إلى منتهاها .

فانقلبت إلى فاطمة تقص عليها ما رأت ، ومر بخاطرها وقد ضمت قدميها للجلوس ، شيء اطمأنت اليه في تفسير ما شهدت وغمغمَت : لعل ... لعله أن يكون .

وعرض لها ما ثبّت هذا الخاطر عليها ، فقالت بينها وبين نفسها : لذلك ... لذلك لم يكاشفها بالأمر الذي عزم عليه .

ورأت أسماء أنها أحرجت حينما قالت لها فاطمة ، لعلك وقفت من الأمر على جليته او على ما يتصل به . فأذارت الحديث بلباقة الى وجه آخر البسته شكل المفاجأة لتكسب اهتمامها بما تريد أن تصرفها اليه .

فقالت : نسيت شيئاً كنت أريد أن أخبرك به وقد ذكرته الآن . فبدا الاهتمام على وجه فاطمة وأصغت في كثير من التلهف والشوق الى هذا النبأ الجديد .. فواصلت تقول :

سمعت الناس في طريقي هذا الصباح يقولون : إن عبدالله بن سلام حبر اليهود أعلن إسلامه وكاشف به . وكان نبأ شديد الوقع على اليهود حتى لقد باتوا يخاطب بعضهم بعضاً بكلمات مختلطة امتحاناً لحواسهم التي بدأوا يشكون في سلامتها ، فان ابن سلام رمز ديني من رموز اليهود وعجيب أن يميل الى دين أبيك . وتوقع الناس أن يكون لهذا الصدى الذي أحدثه أثر كبير في الاضعاف من سلبية موقفهم إزاء الدعوة الجديدة ، كما تدارك اليهودَ خوف عميق من أن يفضح لأبيك سر الروحية التي يجتهدون بجعلها لغزاً . ولكن رغم ما أحدثه اعتناقه الاسلام من صدى عكسي عنيف ووقع مزلزل ، لن يؤثر في سلبية اليهود إلا أثراً ضئيلاً علله ابن سلام بما في طبيعتهم من « البُهْت » .

كما أن القومية اليهودية وحدها قامت على الدين الموروث والكنيس الرمزي في هذا الشكل حسب ، وبعبارة اصح ان القومية اليهودية كنيس فقط ولا شيء وراء هذا التقليد الديني . فهم لا يتمسكون بدينهم رغم الكوارث بحكم صحته ، بل بحكم أنه قاعدة

قومية تكفل وحدتهم ، فاليهودي لا يرفض مبدأ لأنه فاسد او ليس بصحيح بل لأنه لا يتفق ومثله القومي الذي يجب أن يقبله بدون مناقشة . وهو قد يعتقد بعدم صلاحيته كطب للروحية البشرية ولكنه يقبله على أي حال ، لأنه الضمانة الأكيدة لسلامة الوحدة اليهودية . فاليهودي لا يُعمل عقله في مُثُله بل لا يجب أن يعمل عقله ، ما دامت هذه المثل تحفظ عليه وحدته العامة التي تتصل ببقائه ، فلو فرض واتسع اليهود كمجموع بشري يعيش على شتى الأمم لاتباع أي المبادىء التي تروق لهم لذابوا وغمرتهم اللجة . فمعتقدهم الديني الموروث حفظ وحدتهم وبقاءهم كأمة او كقبيل من البشر يمتاز بخصائصه وحفظ اتصال تاريخهم ، وبذلك كان لهم عنصراً أولياً كالارض بالنسبة الى غيرهم من ذوي القوميات الخطيرة في الزمن .

قالت أسماء : بهذا يعلل ابن سلام سلبية اليهود الصليبة وليس إزاء الاسلام خاصة بل إزاء كل المبادىء وكل الاديان ، حذراً من تفسخ وحدتهم وتبعثرهم في الأمم .. قد يُرى يهودي يروّج لمبدأ وآخر يروج لمبدأ ثان ولكنهما لم يؤمنا أبداً بما يروجان له ، وانما يفعلان ذلك بما في طبيعتهم من عنصر الفوضوية ومحبة إشاعتها في كل مجتمع ، ليتسنى لهم العمل والنجاح .

وبينا هي في حديثها دخل النبي فهبت اليه فاطمة وتبعتها أسماء ووجدت إذ ذاك فرصة مكنتها من إذنها ، فانطلقت قُدُماً وراء خاطر سنح لها عند الخروج ، بأن أنساً خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير . فقصدت اليه ،

وكانت أمه إحدى صويحباتها ، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشرى فذة ، وكان فيما روت لها عن ابنها :

« أن أبا بكر أقبل الى النبي فقعد بين يديه ، فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتي و قَدَمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ، فسكت عنه .. فرجع أبو بكر الى عمر وهو يقول : هلكت .

قال عمر : وما ذاك ؟

قال : خطبت فاطمة الى النبي فأعرض عني .

قال : مكانك حتى آتيه فأطلب مثل الذي طلبت .

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ، فسكت عنه ..

فرجع الى أبي بكر ، فقال : إنه ينتظر أمر الله بها .. قم بنا الى عليّ نستحثه أن يطلب مثل الذي طلبنا .

فأتياه وهو يعالج وَسِيلًا له ، فقالا : إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة .. فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه .

فقال : يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الاسلام وأني .. وأني ..

قال : وما ذاك ؟

قال : تزوجني فاطمة ... فأشرق وجه النبي ، وقال :

فما عندك ؟

قال : فرسي وبزتي .

قال : أما فرسك فلا بدّ لك منها وأما بزتك فبعها .

فغادر وباعها باربعمائة وثمانين وجاء بها حتى وضعها في حجر النبي، فقبض منها قبضة .

فقال : أي بلال . ابغنا بها طيباً (١) » .

شاع الخبر في المدينة سريعاً كما يشيع الاريج العابق في كل مكان مع النسم الندي ، فكانت أسماء لا تمر بمحلة من دور الانصار الا وترى المرأة تميل الى المرأة وتقول لها في بشر ظاهر :

أما بلغك النبأ ؟ علي خطب فاطمة ، وبارك النبي العقد . وإنه لنعم الحدث . ليس لهذه السيدة المصطفاة الا هذا السيد المصطفى . هي ربيبة الوحي والرسالة ، وهو ربيب الوحي وبطل الرسالة .

وفي استدارتها صوب منزلها سمعت رجلاً يسمر الى آخر في ناحية من الحي ويقول :

إن النبي لم يزوج علياً ، وانما كرّم البطولة الخالدة المظفرة في شخص البطل الخالد المظفر، وان من حق البطولة تكريمها ، وما فات النبي أن يكرم البطولة باعز ما عنده وأقرب ما هو الى قلبه ، فان فاطمة قلب النبي مصوراً في إنسان ملاكي او ملاك إنساني . وليس في هـــذا الِقران معناه بل معنى التكريم ، فان محمداً في حقيقته رسالة ودعوة وهو المبتـدأ ، وان علياً في حقيقته إيمان وإجابة وهو الخبر ، ولا شك في أن فاطمة رابطة الاسناد .

---

(١) راجع كتاب الرياض النضرة للمحب الطبري ج ٢ ص ١٨٠ الى ١٨٤

وما فات أسماء ان تسمع ما ردّ به الآخر وكان من المهاجرين الاولين : كما تقول . وأيضاً لقد كرم النبي بهـــذا القران بطولة أخرى هانئة في أبديتها المشرفة الواعية، إنه كرّم أبا طالب النصير البر والمجاهد الاول .

قال الانصاري : إذن فهـــذا القران تكريم مزدوج ضاعف معناه ، وأخلِدْ بهذا اليوم يوم تكريم البطولات ، إنه ليستخفني بمعناه الكبير .. وكانت أسماء في الظلام وأحدّت بصرها كمن رأى شبحاً ، فاذا شخص يقبل عليهما وإذ تبيناه هتفا جميعاً : أهلا بك سلمان .

وكان سمع بعض الحديث ووقف منذ حين على الخبر فقال :

إنه جدير أن يستخفك يا هذا، إنه تكريم لأكبر مما كنا نصنع نحن الفرس في جاهليتنا من إقامة تمثال جامد تخليداً للبطل . فان محمداً منح تمثالا حياً أسمى تخليداً للبطولة الحق ، فكل ما في عمل الفرس وغيرهم أنه تخليد بمقدار ما في الحجر من القوة على البقـــاء ولكن الفناء في طبيعته ، وهذا تخليد بمقدار ما في الروح من القوة على البقـاء ولكن الابدية في طبيعتها .. وأغرق ثلاثتهم في تأمل صامت طال عليهم وجعل أسماء لا تنتظر وتاج المنزل .

أخذها الليل بنوم هادىء تخللته أحلام بهيجة استيقظت منه على لذتها ، فخفّت الى حجرات النبي بقدم شاعرة تحت قصد غير شاعر، وكانت فاطمة تتحيّنها ايضاً وتنتظر منها شيئاً . فان أباها الليلة أخذ بها في أحاديث شتى كما تشاء الابوة ولكنها لم تفصح لها عن شيء يضع حداً لتساؤلها ، بيد أنها تريد ان تعلم ، ومن لها غير اسماء ؟

بدرتها فاطمة : لعلك أتيتني اليوم بخبر إسلام كعب الاشراف وفلان وفلان .. فابتسمت أسماء وأدركت انها تريد ان تعلم ما كان بالامس .

فقالت : كأنه لا يهمك كثيراً إسلام هؤلاء ...

قالت : بلى يهمني ولكني لحظت بالامس أنك حدثت عن حديث بحديث .

قالت اسماء : كان الامر يتعلق بابن عمك علي .. وافاضت في اطرائه مثل معجبة اتصل بها اعجاب وحب .

قالت فاطمة : وقد شعرت بانها تحيد ايضاً .. وما انا من هذا الآن؟

قالت أسماء : أوَلستِ تحبينه وتعجبين به ؟ وليس من أحد اليوم الا وهو يحبه ويعجب به ثم لا يل الحديث عنه ؟

قالت فاطمة : بلى ، إني لأحبه بحب أبي له وأعجب .. فقاطعتها أسماء : وانك سوف تحبينه بحب قلبك وحب أبنائك ايضاً ..

جمدت فاطمة ساعة ، وصبغها لون قد يكون أزهر وقد يكون ناطقاً . ثم قالت بعد لأيٍ : حسبكِ لقد فهمتِ الآن ، فهمت كل شيء . انه يحبه ويحبه الى حد كبير ولكن .. وضغطت على كلامها وأخذتها إطراقة مفكرة لم تحاولها أسماء صرفاً عنها ، ورأت حسناً أن تنصرف وتتركها الى خواطرها وأفكارها .

بعد أيام من حوارهما أدناها النبي اليه ، وأعلمها في أحاديث بين الحنان والاشفاق .. فمرت فاطمة في سُبات واجم ، وكان طويلاً غالبت فيه عواطفها مغالبة شاقة ، وقالت في جهد من مشاعرها :

« يا رسول الله ! زوجتني برجل فقير لا شيء له .

فقال النبي : أما ترضين يا فاطمة ، ان الله اختار من أهل الارض رجلين جعل أحدهما أباك ، والآخر بعلك [1] . »

وكان لكلمة النبي في أذن فاطمة معنى كما تحمل الالفاظ ، وفي قلبها معنى آخر هذه الفاظه : إن الغنى ليس شيئاً في المال وهو اصطلاح زائف اخترعه مكر الشهوات في عقل المدنية المدخول ، وانما الغنى شيء في المعنى الانساني الذي هو ناموس خالد يدور عليه التفاضل في ظل الوجود. فالزهرة تكون أبهى وأحب وأغنى بما فيها من المعنى الزهري الذي هو الجمال والعبير وليس بما يعلّق عليها وهو خارج عن معناها . والضوء يكون أغنى بما فيه من المعنى الضوئي كذلك . والاسد يكون أغنى بما فيه من المعنى الاسدي ، وهكذا كل شيء يكون غناه على مقدار ما فيه من معناه .. فالغنى ذاتية مطلقة ثابتة ، والمال نسبية مضمحلة ولا تكون شيئاً اذا لم تكن الشهوات كل شيء ، ولا تجد قيمتها إلا في مدى مَسافّ الغرائز ومساقطها .

والمرأة تستكمل معناها بانسانية الرجل دون بهيميته وما يزين هذه البهيمية ويكملها ، كما يستكمل الرجل معناه بانسانية المرأة دون بهيميتها وما يكملها . والمال مكمل للبهيمية الطائشة ، وليس شيئاً وراءها او بعيداً عنها . ولن تشعر المرأة بذاتيتها وتعتدّ بكبرياء معناها اذا كان المال شارياً والرجولة من ورائه كسيفة خائبة وبائرة متوارية ، وانما يأخذها احساس عميق بأنه لم يُضمّ به معنى الى معنى بل حيوانية مبذولة وجدت ضعفها الى حيوانية باذلة

(١) راجع كتاب الرياض النضرة للمحب الطبري ج ٢ ص ١٨٢ .

وجدت قوتها . فتذهب تلك ذاوية ويأخذها تلاش سريع ، وتذهب هذه منتفخة ويأخذها جبروت سريع ، وينتهي المال وقد عمل عمله بانه الصق عبداً بوب ، ولم يضم انسانية الى انسانية تجدان وحدتهما ، بل تباين على مثل الطير في مخلب الطير تكون الدعابة منه نَهْسَةً يشعره فيها بهوانه وانه في مكان النهاية من فمـــه . وتكون نهاية زواج المال استرقاقاً او افتراساً في شعور القلب ، وتكون في شعور المجتمع اختـلالاً في توازن الاسرة يصيبها بالفساد ويتجاوز بأثره الى توازن الجماعة فتختل وتضطرب . وفي كلمتي زواج وقران رائحة هذا المعنى ، بيد ان الاولى قُصد فيها الى الروح واحاسيسها والثانية قُصد فيها الى الواقع الاجتماعي وارتساماته . فزواج المال ليس فيه معناه وانما فيه معنى العقد الذي هو احتيال بقانون .

والانثى اذا لم تُنر فضاء الرجل النفسي فما تزيد عن انهـا جسد فقط ، والرجل اذا لم ينر فضاء المرأة النفسي فما يزيد عن انه جسد فقط ، والزواج في حسّ الروح فضيلة تكمل فضيلة ، ونور يمده نور .

وكان معنى اختيار علي الى جنب النبي جمعَ كل الانسانية فيه ، وجاء معه علامة على ان الانسانية بكل ما ثبت عليها لن تنحرف عن النبوة الجديدة بكل ما ثبت فيهـا . فكانت فاطمة منهما بين مصدر اشراق النور ومجلى انعكاسه ، وموجات الشعاع تمور متألقة في جو نفسها المتسامية ابداً .

ومرّ في مجرى قلبها ، ان أبي يقول في تعبير آخر ، ظهرت حقيقة الخَلق في عالم الابداع الالهي بمظهرين ، مظهر النبي الكامل ومظهر الانسان الكامل ، وحبيب الى نفسي ان يكون حظي هذا الانسان .

«وأمر النبي ان يجهزوا فاطمة فعمل لها سريراً مشرطاً بالشرط، وقال لعلي : اذا اتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك ... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب ، وجاء رسول الله فقال :

— ههنا أخي ؟

قالت أم أيمن : اخوك وقد زوجته ابنتك !

قال : نعم ...

ودخل رسول الله البيت، فدعا بماء فقال فيه ما شاء الله ان يقول ، ودعا فاطمة فجاءت خَرِقَةً من الحياء تعثر في مِرْطها ، فنضح عليها وقال لها :

— إني لم آلُ ان انكحك أحبّ أهلي اليّ ، اللهم اني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ...

ورأى رسول الله سواداً وراء الباب فقال :

— من هذا ؟

قالت : أسماء .

قال : اسماء بنت عميس ؟

قالت : نعم .

قال : أمع بنت رسول الله جئت كرامةً ؟

قالت : إي وايم الله ... فـدعا لي دعاء إنه لأوثق عملي ، ثم خرج فما زال يدعو لهما حتى ضمه منزله »(١).

*

(١) راجع كتاب الرياض النضرة ج ٢ ص ١٨١ و١٨٢

يظل الزمان حقيقة موهومة ، لولا بعض الاعمال الخالدة التي تؤرخه ...

وتكون هذه الاعمال أكبر من الزمن ، لان حقيقته بعض هباتها ...

فيوم علي وفاطمة ، أكبر من الزمن وأخلد من التاريخ !..

*

أثبتت النبوة معناها الخالد في روحية الانسان على وجه ...

واثبتت النبوة ذاتيتها الخالدة في دم الانسان على وجه ...

فيوم علي وفاطمة ، بُداءة حياة النبوة الخالدة في الدماء !..

*

كانت النبوة ستظل ذكرى فقط ...

ولكن شاء الله أن تكون حياة أيضاً ...

فيوم علي وفاطمة ، إبقاء لحياة النبوة على الدهور !..

*

تضع الحقيقة الكبرى خصائص معناها في النواة ، لأنها تريد البقاء ...

والنواة لا تختلف في خصائصها ، الا اذا كان لناموس الوراثة الطبيعي أن يختلف ...

فيوم علي وفاطمة ، يومُ بروز النواة عن مثل خصائصها في شكل آخر !..

*

تذهب النواة التي هي مخزون الخصائص ، تتم دورتها وتعطي

اشياءها ...

والنبوة فكرة السماء المصلحة في محيط البشر ...

فيوم علي وفاطمة ، طَبْعٌ لعقلية النبوة في عقل الناس!..

*

اجتمعت في عليّ قابليات لا حد لها ...

واجتمعت في فاطمة إشراقات لا حد لها ...

فيوم علي وفاطمة ، يومُ نَظَرِ النبوة الى نفسها في المرآة !

obeikandl.com

يوم الايمان الشامخ

جمدت في مآقي الناس دمعة حرّى لم يكن الحزنُ كلّ معناها كما لم تخلُ من بعض معناه، فقد اتصلت بكل قلب اسباب حزن مرير، حين استفاق الناس بعد «أحد[1]» على مشهد البطولة الكليمة الجريحة.

وجراح البطولة لا تقذف في النفوس ضعف الألم بل كبرياءه، ولا تلفّها بذلة التجربة ولكن بتجديدها في عزيمة تضاعفت حقيقتها وتمددت في كل أشياء الحس. فان الألم مع الايمان ظهورٌ لذاتية الوجود بقوتها، كما يكون الالم مع الجحود ظهوراً لذاتية العدم بتلاشيها.

وإن الالم في غايته تحدٍّ، وتحدي القوة مبالغة القوة في إظهار طبيعتها ومعناها، وتحدي الضعف مبالغة الضعف في إظهار طبيعته ومعناه.

وتزأر القوة اذا أصيبت زئير القنبلة اذا انفجرت، وهي تعبر

---

(١) جبل في الحجاز قرب المدينة كانت فيه معركة شهيرة بين النبي وأتباعه وبين المشركين وشنها المشركون كمعركة ثأرية بمعركة بدر الكبرى ووقعت الواقعة في صفوف أتباع النبي لأنهم تركوا المواقع الستراتيجية التي عينها لهم النبي قبل نهاية المعركة وإن ظهرت تباشير الظفر أولا في جانبهم، كما هو معروف في كتب السير والتاريخ.

عن أن في بعض الكسر ما هو انطلاق لأعمق القوات الكامنة . وتُرعِد إرعاد الاسد اذا خانه الموقف ، وهو يعبر عن أنه الاسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يطلقها به . وتلك القوات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر او جرح ، وهما تحسان به إحساس المادة الملتهبة بالنار لا تميل بها الى ضمور العدم بل إلى كبرياء الوجود ، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف وصموت طامس بل إلى اعتداد رهيب وردّ مُفْحِمٍ ، ويكون الكسر او الجرح قد أضاف إلى معناها معنى جديداً او سمح لكل طبائعها بالظهور .

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقضّ مُتَنَمِّرَةً ظامئة ، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يبرز ويبدو في أتعس أشكال العبوديات الذليلة (١) مَهَانة وخوراً .

والايمان قوة تصنع البطولات المستهينة ، ويوم أحد يومٌ أصيبت البطولة فيه ، فكان ابتداء إحساسها بالألم ابتداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدّب مع الآفاق . . والدماء الصبيبة لا تلهم الابطال روعة الدم الراهبة بل رجفة الدم النابضة ، ولا تمر بهم إلا وقد استحالوا قوى مُرْعِدة منقضة في مسافات أشواطها لا يحول دونها إلا ما قدر له أن لا يكون .

والالم للايمان كالحركة للحياة يُمريان الحرارة فيهما ، وكما تذهب

---

(١) العبوديات الذليلة هي عبودية الانسان للانسان على اشكالها . وأما العبودية لله التي جاءت بها الأديان فانها تحرير لنفس الانسان من شتى العبوديات وإشعارها بكبرياء الذات .

الحياة بدون الحركة في ضمور ، يحور الايمان بدون الالم في تلاشٍ ويأخذه همود سحيق . والايمـــان قوة ولكن سرعان ما تتفلّل حرارته في أعماق النفس اذا لم يُركزها الالم ويقربها من عمليـة الحيـــاة .

وإن حركات التاريخ برمته تقع بين جواذب الالم ودوافعه ، بل خطى النشوء للكل الاجتماعي تنتظم بين هذا الدفع وهذا الجذب ، وكانت أكبر الحركات لا تزيد في جوهرها عن أنها إيمان بفكرة وألم في الايمان ، وأبداً لا يشتد الايمان ويخطو صعداً إلا اذا قدح الألم زناده وطاير بالشرر . وفي محيط المادة كما في محيط الروح نفس الناموس ، فان الجسم المادي الضعيف يَلين على الالم بينما الجسم القوي يشتد ويهيج حتى يملأ الفضاء مشيراً إلى قوته وأنه لم يَهِنْ .

فاذا كان في يوم بدر بعضُ الظفر ، ففي يوم أحـد كل الظفر لان الايمان أحس بقوته وأنه شيء ، وبدأ يخطو في ذاتية واعتداد .

اندفع الناس الى الناس « يهيء بعضهم بعضاً » بأنهم وان خسروا المعركة فقد ربحوا الايمان بالمبادىء وربحوا العقيدة الـتي ظهرت سلامتها ، وأنها رباط تسنى له أن يجمع قلبـاً إلى قلب ويمزج نفساً بنفس ، وأنه لن يتفلّل عـــلى الضغط مهما كان عنفوانه ، ومهما جاء منـــه .

ظهر أنهم لا تجمعهم جامعة من شهوات الارض بما اكتظت به من أهواء واحتفلت به من مطامع ، وإنما تجمعهم جامعة من رغبات السماء ، ورغبة السماء في تطهير ما على الارض من شهوات وأرجاس تمور موراناً وتسوق الجموع الانسانية بعُنف وقَسْر الى حيث لا

تكون إنسانيتها وتخسر معناها .. وكانت معركة أحد تجربة سعيدة لاختبار بناية محمد الجديدة في أعماق النفوس ، فقد ثبتت على العاصفة التي تمزقت رياحها على صخرات الايمان الشامخ .

ما الشهوات النهمة ؟

ما اللذائذ الدنيا ؟

ما البُلَهْنِية والترف؟

إنها لا شيء في مذهب رغباتهم الكبيرة ، إنها لا تمر بأفئدتهم التي بلورها السمو بمعناه القدسي ، وحاطها حتى لاتهوي مسفّة وترتطم بالاوحال ، إنها أوحال من سفساف الأرض فهم ينظرون اليها بتقزّز واستعلاء .

هم فكرة من التطهير وفكرة من الاصلاح والعمران وصيّرهم الجهاد فكرة من التنظيم ، فكانو معلمين أطلقهم الايمان الجديد ليحلوا في عقل المجتمع المحموم كما يحل الاكسير الذي يحمل في معنى الدواء أبدية النشاط وخلود الحرارة والحركة والحياة .

لم يكن فساد المجتمع بمعنى ذاته وإنما كان بفكرة أهوائه التي نفذت الى محل الضمائر وتمددت ، فوقف الفرد للفرد والجماعة للجماعة في كل مكان ، وقد تملأوا بضراوة وحشية كالحة وذهب كل حي يكافح التيار ، والمجتمع يطفو ويرسب في فوضى اللجة العاتية النكراء .

لو تأتّى لأتباع محمد الظفر دائماً لتحوّل الايمان بدون شعور الى فكرة مادية من الغنائم والاسلاب وتبخّر عليهم معناه ، ولكن شاء الله أن يكون جهادهم جهاد إيمان فقط ، فكان في ظفرهم واخفاقهم

ظفر لفكرة الاصلاح التي يحملونها، ذاك في التفوق وحيّزُهُ الواقع وهذا في التركيز وحيزُهُ النفس .

وقد أظهروا أنهم مؤمنون فقط استهوتهم الفكرة وأخذت عليهم أحاسيسهم وتفجرت في خلايا نفوسهم ينابيع، فهم لا يندفعون بدافع من شهوة الناس في لذة الحياة بل بدافع من تطلّع العقل وشعور القلب في لذة الايمان . وقد أراد النبي أن يلقنهم درساً بالغاً في ان الايمان لا تظهر حقيقته الا في الألم ، وأن الايمان في مظهر الغضارة الرخيّة إيمان بليد منحلّ او ليس شيئاً خالداً في شعور النفس :

«اذّن مؤذن رسول الله غداة منصرفه من أحد بالخروج في طلب العدو ، وان لا يخرج الا من حضر معركة الأمس ، وأتباعه مثخنون بالجراح .

قال رجل من بني عبد الأشهل لأخيه : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟.. ووالله ما لنا دابة نركبها وما منا الا جريح ثقيل. فخرجنا وكنت أيسر جرحاً منه، فكان اذا غُلب حملته عُقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا الى ما انتهى اليه المسلمون . وكان النبي قد انتهى الى حمراء الاسد وهي من المدينة على ثمانية أميال ، وأقام بها الاثنين والثلاثاء والاربعاء» (١) .

كان رَجْعُ الألم في الايمان هبة لاتعرف الونى ولا تتصل بالفتور والاستخذاء ، إنها انطلقت أشد مضاء واكثر اندفاعاً، فقد أحست القوة باعتداديتها وغمرتها موجة الكبرياء لأنهم تحدوها واستثاروها .

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٠

والقوة اذا استثيرت تنتشر طاقات في أخرى أكبر منها، حتى تسد الآفاق وتملأ أقطار الفضاء ، كمادة الفحم وفيها مخزون من القوة تعلق بها شرارة وتتصل حتى تؤجج بالشرر .

قالت الانسانية الجديدة بعد التحدي وانتظار الرجع (أنا) وهي شامخة بمعناها . وولت الانسانية العتيقة المتهرئة متساقطة متواردة الى اوكارها ، وهي شامخة بخيال المعنى الضائع والمصادفة العارضة ، كالذي تعثر به قدمه فيهوي الى حفير فيه كنز ، فانه يحس بالارتياح الى ما صادف من الثروة ولكنه لا يحس ابداً بفخار الثروة ، لانها لا تتصل بذاته اتصال الايجاد ، وانما تتصل باطلاعه اتصال الرغبة بما يثيرها ويحركها .

وكان الفرق بين الشاعر بمعناه والغائص فيه معناه ، كالفرق بين من يسقط في حفير فينسى الألم ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيعيد التجربة ، او يطمئن في إحساس أنه حي بحياة المبدأ الذي قضى دونه .. وبين من يسقط في حفير فينسى الحياة والقوة ويهون في إحساس جراحاته وكسوره ، او ييأس في احساس انه مضغة بين فكي العدم الصامت . فاولهما يطرد ضعفاً بقوة ، وثانيهما يضيف ضعفاً الى ضعف . . ومر على مسرح أحُد صورة هذين الرجلين :

« ارسل النبي من يبحث عن سعد بن الربيع ، أفي الاحياء هو ، ام في الأموات ؟.. فنظر فوجده جريحاً وبه رمق في القتلى .

فقال له : ان رسول الله أمرني أن انظر أفي الاحياء انت ام في الاموات .

قال : أنا في الاموات . فأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له

ان سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته . وابلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان سعداً يقول : ألا إنه لا عذر لكم عندالله إن خلص الى نبيكم وفيكم عين تطرف [1] »

كلمات كلها يقين واطمئنان ورضى بهذا المصير وهذه النهاية التي يحس بانها كبيرة خالدة .

« قاتل قزمان قتالا شديداً فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين ، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة . فاحتمل الى دار بني ظفر ، فجعل رجال من المسلمين يقولون له :

والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر .

قال : بماذا أبشر ، فوالله إن قاتلت الا عن احساب قومي ... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته فقتل به نفسه [2] »

وأسدل التاريخ من دونها ستاره واعلن هذه الحقيقة : قضى أولهما دون فكرة العقيدة فكان بطلاً وتلفّع بالخلود . وقضى ثانيهما دون فكرة الأحقاد ونزغات الاعصاب فانحل بانحلالها وتلفع بالعدم .

وقف النبي وأصحابه في « حمراء الاسد » وقفة الاسد في وثبته الحمراء ، وتحدى طويلاً ورجع الفضاء دويه الرهيب ، وصمت كل شيء ، وبقي الصدى يعلن غلبة الانسان الجديد ...

لفّت المدينة أيام لم يكن فيها من سواد الأسى أثر كبير ، وهي الى أنها أيام تأبين أقرب منها إلى انها ايام احزان ودموع ، على أن من الحزن ما هو بهيج وليد شعور بالاعجاب ، ومن الدمع ما هو

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٦

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٢ .

ضاحك وليد شعور بالامل .

حين شاع الايمان بمعناه الهيامي في الناس شاعت البطولة بمعناها الرائع في الرجال والنساء جميعاً ، وأعطوا صوراً خالدة تضاف الى اشياء التاريخ الكبيرة . فكان لنا من يوم أحد أبطال في شخص الشهداء كحمزة ، وأبطال في شخص الاحياء كعلي ، وابطال في شخص النساء كنُسَيْبة المازنية [1] ، حتى الطفولة [2] لم يفتها نصيب من البطولة ...

في ظلال النخيل التي بدت واجمة في إطراقة الحالم ، كان الشاعر يستوحي ويستلهم ، وجرت على خدي حسان عبرات الاعجاب الذي اتصل بعاطفة ملتاعة محزونة ، وكانت نفسه مكتظة بمشاعر شتى اكتظاظ اليوم الغابر بالروائع الخالدة ، ومرت به نسمات اجاشت عليه شاعريته فاطلقها على هينتها في كل مجال .

لقد كان هذا اليوم مادة الملحمة العربية المفقودة ، لو تأتّى لشاعر خالد ان يستلهمه ويبرز ما قد طفا على سطحه من روائع ، ينقلها نقلاً امينا لا تقل عن روعة واقعها . فان ملحمة تكون مادتها هذا اليوم تظل بدون ريب أداة بعث في كل يوم من أيام

---

(١) كان من قصتها أنها خرجت في يوم احد ومعها سقاء تسقي منه الجرحى والريح للمسلمين ، فلما هبت عليهم انحازت الى النبي وباشرت القتال عنه تذب بالسيف وترمي عن القوس حتى حصلت الجراحة لها ، وفيها قال النبي ما التفت يميناً ولا شمالا يوم احد الا ورأيتها تقاتل دوني . راجع السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٠ (٢) قتل سمرة بن جنوب لما رده النبي يوم احد لصغر سنه وأجاز رافع بن خديج ، قال لزوج أمه أجاز النبي رافعاً وانا اصرعه ، فقال النبي تصارعا فصرعه فأجازه وضمه الى الجيش . راجع السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٠

العرب والمسلمين ، وتتجدد كلما جـــدد العرب والمسلمون حركات الانبعاث وعَزْمةَ النهوض . وكانت أبرز ما تركت معركة احـد هذه الحقائق :

ان نجاح الاعصاب في الكفاح على مقـــدار نجاح الايمان من السيطرة ، وان قيمة الكفاح على مقدار قيمة الفكرة التي يحتـدم من أجل تركيزها ، وان الكفاح الظافر لا يكون إلا حيث تكون العقيدة الصليبة ، واذا لم يكن الايمان فلا يزيد الكفاح عن أنـه فورة خامدة وحركة محتضرة ، ولا يزيد هذا البعث عن أنـه بعث فيه برودة الموت ومغزى الانحلال .

وطلع عليه وهو في لذة انشائه وانشاده الحجاج بن عِـــلاط السّلَمي ، وكان شاعراً مفتون الشاعرية ببطولة عـلي يوم احد ، فراح يفتن بالوانها ويتغنى بآياتها . فأوسع له حسان في مجلسه :

وقال : كنت اشتهي لقاءك منذ اليوم ، وأحسب ما يقال من أن في قلوب الاخلاء آذاناً تتصل بكل ما في النفس من رغبـات وخلجات ، وتحس بها لحينها ، حقيقياً جداً .

فقال السلمي في دعابة مفترّة : ولا سيما إذا كان الامر بـــين شاعرين شيطاناهما ألمعيان .

فلم يبد على حسان ما كان ينتظر من أثر الدعابة العارضة ، وانما أخذه اطراق خاشع حتى لقد أحس السلمي بانه لايشاركه المجلس والحديث .

فقال له : ما بك ؟ أراك كالمأخوذ عن نفسه !

قال حسان : تعاظمني يوم احد بتها ويله حتى لقد ضاقت شاعريتي

ببعض ما جمع ، وأحسب أن القول فيه إلهام من الالهـــام وليس شعراً من الشعر . أما بلغك نبأ مخيريق ؟

قال السلمي : انبأء أسلامه الذي فاجأ به منذ حين غير بعيد ؟

قال حسان : كلا . ولكن نبأ استشهاده الرائع الذي جعل نفسي وكل نفس تذهب في الدهشة كل مذهب .

قال السلمي : ماذا تقول ؟!

قال حسان : نعم ! انه استبسل دون العقيدة التي عَهِدَها جديدة في قلبه ، استشهاد من يريد الموت أو الحياة في دنيا الفكر الجديد.

قال السلمي : عجيب أنت يا محمد . وعجيب ايمانك الذي يقتلع رَئِيسَ النفس بل النفس من أقطارها ونواحيها حتى لا يحس المرء بشيء وراء معناه .

ونهض الرجلان في استغراق الشاعر حتى أفضيا الى الحي ، وما انتبها الا على حديث الناس « أن النبي لما انتهى الى أهـــله ناول سيفه ابنته ، فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنية فوالله لقد صَدَقني اليوم .. وناولها علي بن ابي طالب سيفه ، فقال : وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه فوالله لقد صدق اليوم رسول الله .. فقال النبي : وصدق اليوم القتال سهل بن حُنَيف وأبو دُجانة » .

كانت فاطمة تمر بها هـذه الاحداث وهي بمرأى ومسمع ، وفي أحشائها (١) روح جديدة تتآلف أمشاجها ، فكان في جملة عناصرها

---

(١) لا يظن أن هذا القول يدخل في حـــد الخيال الشعري بل هو حقيقة نفسية ثبتت على البحث الجديد ، فقد قرر العلماء وراثة الجنين لـكل ما يختلف ويتراوح على الأم في دور الحمل من تأثرات ومشاعر وإحساسات .

بل اكبرَ عناصرها ، عنصرُ التضحية الدامية للفكرة والعقيدة .

وقفت فاطمة تزيل أثر الدماء وقد ضمت سيفاً الى سيف أي(١) قوة الى قوة فان السيف رمز العزم على العمل ، وكان معناه أن سيف العقيدة مصلتٌ في مدى سيف المبادىء ، وأنهما معاً ينجحان جميعاً . فأحدهما سيف المبادىء وفعله في الفكر ، وثانيهما سيف العقيدة وفعله في المجتمع ، وبهما تتكوّن الروحية العامة الطافرة . فكل منهما يكون في حاجة الآخر ، وهما جميعاً في حاجة الأمة اذا أريد خلقها او بعثها من جديد . فالنبي حينما خلق الامة جرى على هذا الطريق ، ونحن حينما نريد تجديد الامة نجري على نفس الطريق .

ضمت فاطمة سيفاً الى سيف ، وكان معناه أن حركات الخلق لا تنجح الا بقوة الفكرة وقوة التضحية لها . وكان معنى إصلات النبي سيفه ، أن صاحب الفكرة ينبغي أن يكون أشد المؤمنين بها والمكافحين من أجلها ولو على أمرّ صورة .

فنحن نجلّ محمداً لرسالته الى حد كبير ، ونجل محمداً لكفاحه واستبساله وآلامه في سبيلها إجلالا غير محدود ، فان الذي يعطي فكرة ولا يوقف كل اشياء حسه ونفسه عليها جهاداً وتضحيـــة ، يبلبل فكر الجماعة ثم لا ينقـذ المجتمع ، بل يزيد في معنى دائه فان فكرة الاصلاح لاتكون شيئاً نبيلا اذا لم يجعلها الكفاح كل شيء .

---

(١) إن السيف في كلامنـــا رمزي بحت يشير الى القوة ، فسيف النبي رمز لقوة المبادىء وسيف علي رمز لقوة العقيـــدة . ولا يتوهمن أن كلامنا يدور على السيف الآلة المحددة بل نعني القوة الأدبية . وهذا التنبيه لكي لا يتوهم البسطاء ان الاسلام كانت قاعدته السيف واننا نهيب بالناس الى نهضة السيف قاعدتها .

إن الفكرة قد تشير الى امتياز مُلهمها ، ولكنها لا تشير الى خلوده الا اذا تحمل آلامها . وقد بارك الله آلام محمد الخالد حين أدّى رسالته وحمل ثقل الكفاح والجهاد [ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك] .. والوزر في الآية بمعنى الثقل ، وهو ثقل آلام الكفاح بسبيل الرسالة الجديدة .

وكان وضع الثقل عنه اعلاناً بان انسانية محمد اخذت طريق نجاحها ، وقامت على قاعدتها ، ونشت مرارةُ الدواء ألم الداء المصمت الجهيد ...

بعد حين ، ترآى أحد للنبي من بعيد ، فأثار فيه ذكريات عذبة بأشيائها الكبيرة وأطيافها اللامعة الرائعة ...

وكانت هذه الذكريات قد استحالت إلى حنين فحب ، جعلاه رمزاً من رموز الانبعاث والانقلاب والتجديد في ضمير المؤمنين الشاعرين ...

فقال النبي يكرمه « إن أحداً جبل يحبنا ونحبه » ، يحبنا لانه رضي عن استبسالنا وثباتنا ، ونحبه لانه رمز هذا الاستبسال وهذا الثبات ...

وكأن النبي « دَشّن » بهذا المقال في أحد ، تمثال الايمان الشامخ ..

*

كان يوم أحد يوم الشهداء ...

والشهيد في سبيل أمة ذكرى حية في ضميرها ، ومادة هامة في كبرياء مجدها ...

فيوم أحد يوم الذكريات الحية الخالدة ، ولذلك أحبه النبي

ونحن نحبّه ولا ننسى عظته الناطقة في الضمير !..

*

استحال يوم أحد إلى ذكرى من الروائع ...

واستحالت الذكرى الى حب وهيام بالامجاد ، ما دام على الارض عرب أو مسلمون ...

وأبرز الغيب بعد ذلك روحاً جديدة ، جمعت طائفة هذه المعاني وسماها النبي حُسيناً ...

ودار الزمن دورة قصيرة، وثار الحسين وصوت الحق يدوّي في صوته المرَسل ...

وانطلق الناس يقول بعضهم لبعض :

تحرك اليوم أحدمرة أخرى، وثار بركان الاصلاح يزلزل بالحمم..!

يوم الميلاد

تنادت نساء الحي أن فاطمة أجاءها المخاض ، وكن يُلِممْن بدارها كوكباتٍ كوكبات ،وينتظمن هنا وهناك كما شاء المجلس لهن . ومرت لحظات أخذت عليهن كل ما كان يبدو من حركات شاءها الظرف والبشر ، وشملهن صموت خاشع فيه بادية الحذر ، حتى ليخيل للناظر أنهن دمى مجنّحة تطمح الى شيء في غير مرأى العين .

وكانت أسماء بنت عميس وحدها تُرى غادية رائحة ، ومر بها خاطر أنكرت معه موضعها . فقد ترآى لها أنها في معبد اكتظ بالمجنّحات ، التي تطل في صورها ملائكُ في فرحة خاشعة .

وسبحت مع خاطرها وراحت في مقعد الأحلام ، حتى لقد انفصلت فوق حدود الزمان والمكان ، فكان لها عالمها الجديد الذي يغاديها برؤى يقظى على خيوط النور .

حسبت كل شيء واقعاً وحسبَت أنها تغدو وتروح في عالم ما ترى . إنها أحست بلذاذاته طافحة حتى لقد غمرتها .

لا يمكن أن يكون هذا حلماً ، إنه لأكبر من الحلم في مذهب الحس البادي .. هكذا تناجت في حديث نفسها حينما أنبهتها

زغردات النساء التي بدأت همسات حلوةً ناعمة:

فقد أسلمت فاطمة وليدها . . .

ولكن أين ما كنت أرى ؟ . أين هو أو أين أنا ؟ . لست ، لست أدري . أحسبني في معرض العجائب . أحسبني في عرس الاملاك . حقاً ان للانسان عوالم شتى وهو يعيش في أقلها تطرية ، او يجعلها واقع الزمان والمكان أقل تطرية وبهجات . هناك في غير واقع الزمان والمكان يحس الانسان بالاشياء مكبرة ويتصل بكليات معانيها لأنه يحس بكل نفسه ، وأما هنا فانه يحس ببعض نفسه على مقدار ما يسمح الواقع الجامد ، ويبقى كل النفس ظامئاً .

لم يكن ما رأيت حلماً ؟؟ إنه خالطني حتى لألمسه . نعم . نعم . لقد أدركت الآن والآن فقط ، سر النبوات وسر القداسات وسر الالهام والهيام في الفكر والفن والاشياء . . وان يكن حلماً فليتني أظل حالمة ، ولكن هيهات أن يكون في كل يوم مثل وليد فاطمة أرى على وجهه او أحلم . . هكذا كانت تقول بينها وبين نفسها قبل أن انطلقت وغابت في الجموع المائجة الفرحة ، وضاع وقع خطاها في الرنين الضاحك . . .

كان (جميلاً) كخفقة الضوء ، وبهياً كقطرة الندى وقد تحاضنتها أكمام الزهر حتى لكأنها في جو الاحلام ذابت فيه النشوات واستحالت الى أريج تهدهده أيدي النسيم ، وكان لألاء كزنبقة الغور وقد مصت إشراقة الغروب التي خلّفت فيها الشمس ذكراها السعيدة الى الليل ، وكان ملء العين والهوى حتى لقد قلن إن الجمال اختصر به او إن سنا الوجود المفرق جمع عليه ، وكانت تحوطه

الى ذلك هالة مشعة فيها (جلال النبوة) وجمال الطهر البريء ، وكان عابقاً كأن السماء اطلعت على الارض بالاريج .

خرج الحضور عن صمتهم ، وغمرت الاثير موجة بشر ظاهرة خفق لها خفقات كانت مؤذنة بالوليد السعيد ...

برز النبي (ص) وسط الجموع كما تبرز المنارة وسط الضباب ، هادية بشعاعتها المستطيلة في انبثاق وتدفق . وأخذ وليده السني بيدين كانت حركات أناملها تعبر عن فرط السرور ، وحنا عليه حنو المرضعة يهمس في أذنه كلمة الاسلام الشامخة «الله أكبر ! الله أكبر!»

وغام على اسماء فقد كانت اليوم في حساسية جد نافذة ، وشعرت حيال هذا المشهد : بأن الاحياء بنزغاتهم هم ضباب الحياة وكثيراً ما يكون مطبقاً داكناً حتى لتبدو الحياة نفسها كرة من الضباب ، تدور في مثل حركة الاعصار هادرة بما فيها من الاهواء . ولكن الشمس تطلع من ورائها فتبخر ما استوى فيها وتراكب عليها وعلق بانحائها ، وتمدها بمعنى الضياء فتغدو مزدهية متألقة ، ويخشع الانسان عندها في محراب الله الأزلي . إنه خرج من التيه ، ونفض غبار البيداء واستعلى على السراب .

أف .. للذين يظنون ان الحياة ضباب منتشر في آفاق هذا الوجود ، والانسان يطفو ويرسب مغمض العينين .. إن وجودهم لم تشرق عليه هذه الشمس التي تغمرنا بشعاعها ، إن صورة الحياة في خيال الأعمى مليئة بالظلام وفي خيال الأعشى مليئة بالرماد او الضباب ، ولكن هل الحياة كما تنعكس في مرائيهم المتحجبة ؟ إن شمس النبوة وفيها المعنى الأتم المشرق للانسانية والحياة لم

تسطع في سماوة فضائهم .

هنا وفي هذا المكان ، أجد حقيقة الحياة العارية تحت ينبوع النبوة وشعاعتها الخالدة .. هنا وفي هذا المكان ، حيث يبارك النبي إنسانية جديدة ويتفرع منه رافد نير وثمد فوار في صلب الانسانية الحية ، في دمائها المنصبة إلى بحيرة المستقبل البعيد القرار ، يجد الظماء ما يبرد حرارة عقولهم وقلوبهم ، يجدون الينبوع الذي حجبهم عنه سراب الفكر المدخول ...

قال قائل في الظلام – والناس يخرج أحدهم في إثر الآخر – إيه أبا رافع .. وربت على كتفه : أرأيت أعجب من اليوم ، النبي يسرّ في أذن الوليد وكأنه يقول شيئاً !..

قال أبو رافع : نعم . إنه (أذن في أذنه كما يُؤذّن للصلاة » .

قال الرجل : ولكن أترى أن له نفساً مدركة تعي ما يقال لها وما تخاطب به ؟

قال أبو رافع : نعم . وماذا تظن أنت ؟ لعلك انصرفت بظنك إلى أن نفس الوليد خلاء من القوى ، إن كان ذاك فبُعد ما تظن . إنها واعية كأتم ما تكون نفس من الوعي ، ولكنها غائمة بما في التركيب العضوي من الوهن وضعف الحساسية .

والنبي توجه الى هذا الوعي وهو في أكمامه ليضع فيه شيئاً خالداً ، ليضع فيه كلمة الله فلا يحول عنها ولا يزول مهما اضطربت عليه بواعث الشباب واضطرمت فيه نزواته ، لأنها سوف تأسره بحنين الصوت البعيد .

إنه وضع في آخر مرحلة التخلّق وأول مرحلة التفتح والازدهار ،

عبق المثل الآلهية ، عبق الحقيقة المطلقة ، الذي ينفح ولا ينقطع ، الذي يفيض ولا يغيض .. تمر به الأهوية الهادرة الهابّة فلا تغيّر فيه وإنما يغير فيها ، بما يحمّلها من أريجه الفوّاح فتغدو وقد فقدت ما تنذر به بما تبشر ، إنها حملت روح الزهرة في الحقل...

إن النبي لنا اليوم زهرة الحقل ، وهو يمد يده في أحشاء الزمن بزهرة حقل المستقبل ، فعسى أن يتركها الانسان تضمّخ فضاء الغور في عين الشروق والغروب ، ولا تلتف عليها أفعى الشهوات فتقضمها ، إني لحذر . اني ... تلعثم ووضع يده على قلبه مخافة السقوط وأغمض عينيه في خيال رهيب .

وكان أبو رافع مولى للنبي ، فلم يطق ما مر بخياله وتحامل على صاحبه مدة ظل فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبته اصوات متقطعة للذئاب .

وشمل الرجل تيّار أبي رافع فاستغرق في وجوم ، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبر عن انها ذاهلة لا تقصد الى شيء ولا تتصل بما تنتهي اليه . وما استفاقا إلا على صوت الانسان في الغلس ينادي بكلمة الله الارواح الشاردة الهائمة . واختلط الصوت بسكون الليل فعبر عن انه قال كلمته ، واستحال الى صدى فيه شرود السكون .

خفّ الناس من كل مكان وفي اعينهم بقايا الحلم السادر ، متوافدين مع النداء الى حيث يمتزجون بالمجهول ، الى حيث يصححون ضمائرهم في عمل الحياة ، الى حيث يجددون عقودهم مع الله على الخير والحب والمثل ، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة .. مدّ الرجل خطاه

وهب يطلب ما يطلب سائر الناس .

فقال أبو رافع : على رِسْلك يا هـــذا ، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا !

قال الرجل : والآن نصلُ صلاة بصلاة [1] .

قال ابو رافع : نعم . ولكن رُوَيدك ، فان النبي رأى جماعة تتراكض الى الصلاة ، فقال « ليأت أحدكم الصلاة هَوْناً » . وهو يشير بهذا الى ان الصلاة لا تكون واعيـــة الا اذا تلبّست فكر فاعلها ونفسه ، فهي ليست عملاً خالصاً بل فكرٌ في العمل وبذلك يكون لها عمل في الفكر ، والاعجال يضيع على الفكر اطراده وانسجامه . والنبي يريدنا ان نبـدأها صلاة بالفكر صلاة بالروح ،

---

(١) لا ريب في ان الصلاة عقد « كونترا » بين الله والانسان. واذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادل. وعلى ضوء هذه الملاحظة ينكشف لنا سر تكرار الصلاة اليومية على الشكل المعروف في الاسلام وجعلها ليلية ونهارية. وهذا السر هو تجديد العقد وتوكيده حتى لا تضعف فعاليته وحتى لا تمر بالمرء ساعات فتور واسترخاء يخل فيها باحكام العقد فيظل بذلك دائماً طرفاً في عقدجديـد. وكما هو معروف على البحث أن الضمير والوجدان والعقائـد تتولد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً . هـــذا فهمنا للصلاة في الاسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فانهـا أصح طريقة واسلوب، واصح شكل وصيغة لما يسميه (ساندرسون) أحد علماء النفس التطبيقي معبد الرؤيا، هذا المعبد الذي يتأمل فيه المرء منفرداً ويخشع مستغرقاً متفكراً ، وهو يري بأنه لا صلاح للفرد وبالتالي للجماعة الا بمعبد الرؤيا، او ساعـة التأمل اليوميـة وقد ضمنها الاسلام على شكل مدهش من التكرار في صخب النهار وفي هدوء الليل ، وكأن الاسلام بصلاة النهار ينتزع الانسان انتزاعا ليغرقه في التأمل والاشراق ولو لحظات .

وإلا فهي صلاة شاردة غير واعية ، لروح اكثر امعاناً في الشرود .

قال الرجل : ان حديثك ملك عليّ نفسي منذ الليل ، ولقد مازجتني حسرة حين قطع الوجوم عليك الحديث ...

قال ابو رافع : لعل صلة الحديث الذي انقطع بيننا ، تجر الشجون الى استدراكها يوماً من اليوم .

قال الرجل : ولكني أجد في نفسي أمْر الحديث ومدّ الداعية اليه ، ولعل نفسي لا تجتمع كما اجتمعت عليّ الليلة من اقطارها ، وأجدُني أشدّ ما اكون انصرافاً الى مغزى الأذان في أذن الوليد ومغزى الاذان الذاهب كل يوم مرات فوق ضجيج الحياة وصخبها ، الاذان القارع في دنيا الاباطيل .

قال ابو رافع : انني لم أزل أخشع تحت ذكرى الرنات الهامسة التي ارسلها النبي في أذن وليده ، لتكون كلمة الله اول شيء يتمدد في فضاء تلك الروح ، واولَ شيء تتموج به وتشتمل عليه . وبذلك يبقى فضاؤها خَليّاً من الضباب ، فلا تمر به حلكة قاتمة ولا تجثم فيه ظلاميّة او دُجنّة ، فيتكوّر فضاءُ الروح تكوّر الفلك على الشمس .

والأذان الذي يُقصد به الى الروح لا تكون فيه ألفاظ الاذان بل روحانيته ، لانها تسمو بمحلها ومستواها ، عن الالفاظ ومذاهبها في التعبير . هذه الالفاظ التي تؤلف كائناً آلياً لا حس فيه ، واستأتى به الانسان الى إكمال آلية الحياة وحركاتها الرتيبة . ولذا ظل كائننا الداخلي المجهول اكثر انفعالا بالمعاني المطلقة عن الاداء ، كالالحان التي هي في حقيقتها معان لم تستحجر ، فتتجه

الى احساس الروح قُدُماً فتتموج بها سريعاً ، بينما الاداء الآلي « الالفاظ » يمر في الفكر وما وراءه من معـــابر ؛ حتى يتجرّد [1] ويستحيل معنى مطلقاً في احساس الروح .

فهذه الروح الجديدة الـتي — لم تحلّها آلية الحياة المخترعة بعدُ باشيائها والتي لا تزال غضّة لم تتحجر اطرافهـا — تموجت اولَ ما تموجت واتسعت اولَ ما اتسعت ، لكلمة الله الخالدة . فمهما مرّ بها من العواصف المتناوحة فلن تنطلق مع الهوى . إنها مركزة بجاذبية الكلمة الاولى ، وهي اذا رمت بالزبد فلن يكون إلا حَبَاب المثُل المتراكب . فانسانية هذا الوليد السعيد جاءت كما شاءت النبوة .

إنني لا تمر بي ذكرى الاذان في اذن الوليد إلا واخشع معها ، إنها تفعل بي فعلاً عنيفاً وعميقاً ، ولا ادري كيف أطوّع الفاظ اللغة التعبير عنها ...

فَصَلَتُ منذ بعيد وأنا دهش بالأذان الذي يَعْلوَ ذكرى الحياة بقاعدتها والانسانية بأنبل مُثُلها الخوالد ، ويصغي الوجود الى كلمة الله في فم الانسان كأنه يشهد .

---

(١) توجد الفاظ في اللغة لم تستحجر بمـــا اغدق عليهـــا الشعور حتى لتتصل بما وراء القوى الواعية وتحركها رأساً بدون ان تمر في الفكر كالفـاظ الجنة والنار في حس المتدينين ، فهي الفاظ تكمن فيها روح ، ويمكن لنا ان نسميها لغة روحية وتضم كل الالفاظ التي تملك خيالا وذكرى كالفاظ القومية والحب . وهناك الفاظ تتصل بمواطن الحياة وتؤثر متخطية الفـكر ايضاً او تمر به مراً سريعاً ، وهي الفاظ الغرائز وما اليها ونسميها لغة حيوية . وما بقي من الفـاظ اللغة الاخرى ، فهي الفاظ فكر لانها تؤثر عن طريقه ونسميها لغـة آلية مستحجرة .

وعلا ضجيج الناس بالتكبير ، وكانا قد بلغا باب المسجد فانتظما في صفوف المصلين ، وعاد الكون الى صموته يصغي الى صوت النبي المرسل في اذن الفجر يقرأ :

« الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاءِ » .

*

في حقل البشرية الشائك ، غرس النبي نواةً ...
عملت فيها النواميس ، فبرزت زهرةً لم تتفتق عنها الاكمام...
ومسحها النبي بيديه كلتيهما ، فنوّرت بين اصابعه ...
وماست فوّاحةً تملأ الحقل بالعبير ، حتى ليخيل ان الحقل زهر كله !..

*

قصدت اليها من بعيد ، افعى فاحمة لمّاعة الاديم ...
وكانت تفح فحيحاً لاهباً ، ويؤجّ من فيها الحمم ...
والتفّت عند اصل الزهرة ، وتكوّرت كعُقَد القضاء ...
وفي هَدأة الليل ، حين كان الكون في سُبَات قضمتها ...
وعادت وقد عاد الحقل شوكاً ملهباً ، وغدت زهرة الحقل ذكرى رمز سعيد ! ..

*

زهرة كانت من صنع النبوة في افتنانها وسموها ...
والنبوة شُعْلة في الحياة ، وشَفَق في الفكر لا يتناهى مداه...

وزهرة الحقل نثرها باطل الانسان ، ولكنهـــا اجتمعت في الذكرى الخالدة ...

فقد غرستها نبوة صنّاع ، والنبوة لا تحور ... !

*

زهرة وضعت فيها اللانهاية اسرارها ...

فلبثت رغم باطل الانسان ولن تدركها نهاية ...

وحار الباطل الى وماد في زوبعة الرياح ... !

*

تحوّل الباطل ، فكان ظلالَ الحياة ...

وتحوّل الحق ، فكان شمس الحياة ...

واخيراً وبعد حين ، ضاع الظل في الشمس !

obeikandl.com

مشاهـــد

مضى بين يوم الميلاد وهذا اليوم الذي تقاطرت فيه زَرَافات الناس من كل مكان « أسبوع » مُتألق وضيء كأنما تنفّست في جوه السعادة ، وطفرت من أعماق الحلم لتموج في واقعيـة الجموع ودنيا الحياة .

كان البصر يذهب مذاهبه ثم لا يقـع إلا عـــلى أوزاع مجتمعين ومتفرقين ، فقد حفـــل النبي بسابع ايام وليده وعقّ عنـه .

افتداه « بكبش » ذهب خيره في أشابة الفقراء ، وكان مغزاه أن الانسانية المثالية السامية ، اولَما تقوم عليه هو إهراق النزوات الحيوانية ونزغات ضَرَاوتها ، مجتمعة في حيوان يُهَرَاق . فاذا كان في نحر الحيوان من أجل الغذاء معنى الجسد وتوكيدُ أنه حيوان قَرِم ، فان في نحر الحيوان من أجل الفداء معـنى الروح المتسامية الى العـــلاء ، وكان وحيً وإشارة لشيء آخر مترتب ترتب النتائج على المقدمات : الحيوان يفدّى به الانسان الشاعر بمعناه ، ليتعلم هذا الانسان كيف يُفدِّي فكرة الانسانية وكيف

يضحي بسبيل مثالياتها .. ولذا لم يجد [1] المكافحون المستبسلون الى زمن قريب رمزاً لصدق الكفاح الدامي وللارتكاض الى الموت سوى إهراق حيوان بين يدي الصراع مشيرين الى المصير ولو كان هولاً .

وطعمته جموع الفقراء ليكون معناه : أن تضحية الانسان جانب الحيوانية فيه ، كي يملأ الفراغ في هذا الجانب بجماعات المجتمع المحرومة ، فيجد في شعورهم شعوره وفي آلامهم ألمه وفي سعادتهم سعادته . فقد مزجهم بنفسه وخلطهم بهواه ، وقامت طبيعة الانسانية فيه على ثنائية من الفردية المهذبة والغيرية النبيلة ، يجد في طبيعته سر الجماعة وفي الجماعة سره ، وبهذا يتم التواصل الانساني الصحيح الذي لم يزل خيالياً وكان في وليد النبي واقعاً .

طبيعة سمت عن الأنانيات ، فان النبي استطاع في مجتمعه أن يذيب « أنا » في « نحن » ، وحارب طوال جهاده الذين أذابوا بأحابيلهم « نحن » في « أنا » ، فكان لكل امرىء في مجتمع محمد أن يقول « نحن » وليس فيها كبرياء الفردية وعتوها ، وإنما فيها نبل الغيرية ووحدتها ، واشتراكيتها وتعاونها .

وقد تركت ذكرى هذا الفداء في طبيعته بعد أن استوى رجلا رمزها الانساني ومعناها النبيل . فلم يبال تحت ذكراه أن يحقق فيه مغزاه ، وأن يقدم في نفسه فداء الفكرة التي اذا تجرد الانسان منها ، عاد مخلوقاً بغيضاً ينحط عن أن يكون فداء الحيوان ذي

---

(١) كان من عادة الجنود في القديم نحر حيوان تحت العلم وعلى مرأى من الجند ، وبقيت هذه العادة حتى زمن محمد علي باشا خديوي مصر .

الطبيعة الساذجة وفيها إيثار دون قصد ، وفيها قناعة دون شعور ، وفيها رغبات (١) قاصرة ...

أشرف النبي في هناء الجموع وبهاء الحفل قال :

« أروني ابني ما سميتموه ؟

قال علي : سميته حرباً .

فقال : بل هو حسين ! »

تهامس الناس بعضهم الى بعض : سماه النبي حسيناً وهو كذلك في سمته ونفسه .

قال عمران بن سليمان : هو كذلك حسين ولكن فيه معنى التكبير .

فقال قائل له : لكأن النبي كره اسم حرب .

قال عمران : نعم . إن الحرب شذوذ في طبيعة الانسان يصيبها بالانتكاس ، والنبي نصير الانسانية يكره ما هو منها ولو بمنزلة الاسم ، لأنه جاء ليقيم الانسان على قاعدة الاحسان .

قال الرجل : ففيم حربنا إذن ؟

---

(١) نعني بالرغبات القاصرة أن الحيوان ينفعل بباعث الغريزة كالجوع ، فاذا سقط على طعام تناول منه حاجته وعف عن الباقي ، بينما الانسان يتناول حاجته ثم تتحرك فيه رغبة النهم حركتها فتحمله على الادخار واحتجاز ما فضل عنه دون الغير . فلدى الحيوان إيثار دون شعور . وبالجملة تكون رغباته قاصرة بينما رغبات الانسان شرهة صارمة . والتناحر لدى الحيوان على المقومات الحيوية لا يكون إلا حين الشعور بباعث الغريزة والحاجة ، ولكن التناحر لدى الانسان عليها قائم على ادخارها شرهاً فاحشاً فكان الحيوان بالطبيعة أفضل من الانسان .

قال عمران : إن الحرب هو العدوان طمعاً وعتواً واضطهاداً، وهو رجوع الى الحيوانية الضارية التي تستضيق على رحابة الوجود بغير ذاتها ، فتستجيب الى العدوان وتنازع الآمنين على بقائهم . وأما نحن فاننا نكافح هذا العدوان لنخلص الانسانية من أدران الضراوة الباغية ، فلسنا نحارب منازعةً على البقاء بل تعميماً لحرية البقاء . وهذا ليس حرباً بل نضال ضد الحرب ، وإن النضال من أجل حقوق الانسان ودونها إحسان .

فالنبي جاء بالاحسان مبدأ على شتى وجوهـــه ومن أقطاره ، ليطفىء نار الحرب في السلم الظالم وفي الصراع العـــاتي ، وليرد ذئاب البشر الى الذئاب بتمزيق أقنعتهم فيسلم الانسان .

وبهذا كان النبي اول من حارب الحرب وألغى مشروعيته وأعان حرمة الانسان أياً كان ، وروّى التاريخ نبل الجهاد .. وكان في تسميته الوليد حسيناً بعد تسميته حرباً ، إعلان بأن طبيعة الحرب لن تتحرك عليه الا إحساناً وفي سبيله ...

وفي تهامس الناس « أنّ الوليدُ » أنة ألم زاهقة ، كانت إيذاناً بختانه . وكان مغزى الختان في إشراق الروح ، أن في طبيعة الغرائز زائدة تذهب في شذوذها والتوائها حداً تضعها في مساف المساقط ومآتيها . فلا بد من تشذيب الغرائز لسمو الروح وكمالها ، ولا بد من تقليم الغرائز لدرك المثالية ونبالتها التي بها جميعاً يملك البشري إنسانية صحيحة تضعه فوق الواقع ودون الأحلام ...

*

بعد حين ، كثيراً ما كان يُرى هذا الوليد السعيد يموج في حجر

جده العظيم ...

وهو يرمي بعينين سادرتين، أرخت عليهما الجفون كلاليها فلا تزحزح إلا بفتور ...

ضجعة في جو الأحلام ، كان يرتضع فيها الوليد « إبهام جده » البطل النبي ...

ولم يكن في هذا الرضاع معنى الثدي بل معنى القلب ، فلا بدع أن كان له من النبوة طباعها ومن البطولة تضحياتها ...

*

ضجعة كأنها ضجعة الملاك في هالة النور ، او ضجعة النجم في الأفق المسحور!...

أغفى فيها إغفاءة الحشف على ثدي الامومة الحانية ...

وارتسمت ظلال هـــذا المشهد على لوح ، كان صورة لبطولة تغذيها نبوة!...

*

إبهام كان صلة معنى بمعنى ، وشريطـــاً تسري عليه روح الى روح ...

فلمـــا استوت نفس الوليد تألقت، وكانت بطولة مضيّة من ورائها نبوة تمدها بالضياء ...

*

هناك في وادي العقيق [1] كانت جموع السّمار تنتظم حلقات

(١) ان العرب تقول لكل مسيل يشق الارض ويوسعها عقيقاً . وفي بلاد العرب اربعة أعقة ومنها العقيق الذي هو بناحية المدينة فيه عيون ونخيل وقصور ودور ومنازل. راجع معجم البلدان لياقوت ج ٦ ص ١٩٨

في عفو ودون تكلف ، وكان هذا النوع من السمر محبباً الى اهل المدينة بما في طبيعتهم من روح مرحة لا كلفة فيها ولا تعقيد . ولم يكن مرحهم أثر روح مكدودة عراها تطيّر وتشاؤم بالحياة وأسبابها ، فهي تفر الى الخلاء الى الفضاء الرحب ، وهي تصطنع هذا النوع من المرح لتنسى همومها المشتعلة وضناها اللغوب ، وهي تنضو اثوابها الثقيلة وأغلالها الآسرة العانية لتنسى ذاتيتها بما فيها من عنصري المكان والزمان المرهقين ، لتعبث لتلهو هاربة مذعورة... تلك طبيعة روح معقدة حجّرها الجدّ الخشن ، فهي لا تفتأ شاعرة بالخشونة فيشيع فيها التجهّم والتقطيب .

لم تكن هذه الطبيعة تتصل بطبيعة أهل المدينة في قليل أو كثير من قرب أو من بعد ، وإنما بنيت طبيعتهم أول ما بنيت على مرح كاد يكون مجوناً دون قيد ، وعلى يسر كاد يكون انطلاقاً من كل قيد ، فشاعت عليهم سماحة مشرقة وانطبعت على أفواههم بسمات مشعة تمدها نعومة في الطبع تأبى الا ان تظهر في دعابة منطلقة عارضة ، وهي ان جدت تكون متكلفة في الجد ، كما تكون تلك الطبيعة متكلفة في المرح .

وأي شيء هذه الحياة اذا كانت لا تمنحنا قلباً سعيداً لم تتحجر فيه السعادة ، والجد لا يصل المرء بالسعادة لانها انطلاق وهو جمود يحجرها كما يحجر كل شيء يتصل به ، فيضيع فيه حيويته ويعزله من روحه ... هكذا كان يتحدث في مجمع وادي العقيق « نعيمان [1] »

---

(١) هو نعيمان بن عمرو بن رفاعة من بني النجار. توفي في زمن معاوية . كانت تغلب عليه روح الفكاهة والنادرة ، وكان يداعب النبي كثيراً . ذكره

طرفة اهل المدينة الذي لولا ما دخله من عنصر المادة الحيسة لكان روح النادرة المبدعة ...

ليلة كانت من هبات القمر، وهو يدنو فيها كثيراً ويشع كثيراً حتى ليخيل أنه يتحدى الشمس في بهاء وطراوة يشعران بالجمال. ودعاها العرب « أضحيانة » كأنما جمع فيها الضحى أو جمعت فيه، والضحى إغراء باليقظة، بيد ان ضحى الشمس اغراء بحياة التكاليف والذكرى واليقظة على الجسد والواقع القطوب، وضحى القمر اغراء بحياة وراء الحياة، كلها حرية وانطلاق، وكلها نسيان وولادة من جديد في اللحظات.

إن الذكرى وفيها عنصر الثبات والجمود تجعل الحياة ضربة لازب في مرارتها وسآمتها وملالها، والنسيان سيل من التجدد والصيرورة يجعل الحي في كل الآنات مولوداً جديداً يتقلب في اسباب الطفولة الناعمة الهانئة. فمدار الشمس دنيا من العمل والوعي الجهيد، ومدار القمر دنيا من النشوة واللاوعي الحالم ... كذا قال نعيمان وهو يتدفق في تندّره، وكان يسمي ليالي القمر ضحى الاحلام لأنها صحوات في أعمق سكر، ولحظات شعرية تفرّ من عتبات الابدية التي أدنانا القمر المسحور من آفاقها المطلة القريبة.

قال رجل من الحضور: لو شاء نعيمان حدثنا حديث هدایاه [1]

الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح وذكره ابن الجوزي في كتاب الظراف والمتماجنين، وترجم له بتوسع ابن حجر العسقلاني في كتاب الاصابة ج٦ ص ٢٥٠

(١) ذكر خبرها ابن حجر في الاصابة قال: كان لا يدخل المدينة طرفة الا شترى منها ثم جاء بها الى النبي فيقول ها أهديته لك. فاذا جاء صاحبه يطلب

التي ستبقى رمز خلوده وان كانت تطفيلاً في الكرم يشبه في المعنى التطفيل في النهم وليست تفضله ، وعلى اي حال فانها سخاء مضحك وهو معها ضحكة الاسخياء ... فسرت بين الحضور رنة ضاحكة ، انطلقت وترامت ابعد ما تترامى الاصداء في مطارح الخلطاء .

قال نعيمان : اما انت فضحكة البخلاء ، ومعناه انك اكثر من بخيل . وانا يسرني ان اكون كما تقول اكثر من كريم . واني لا اراك في طبيعتك إلا كمثل زهرة الحنظل ... فارتفعت الاصوات من كل جانب : وما مَثَل الزهرة الذي ذكرت ؟

قال نعيمان : زعموا ان فراشة ملونة تُخال كأنها زهرة حية طائرة ، مسها نصب الترنيق ولغب الطنين الذي هو نشيد أماني الفراش وهي قاصدة الى الحقول . فحطت مغتبطة على زهرة حنظل كانت تميس بين أيدي الرياح في غضاره وتملّؤ حتى لتحسب انها تفيض عُصارةً ومائية ، فدارت عليها الفراشة دورات يائسة كظامىء سقط على آل حَفِيّ ، فمدت جناحيها وخفّت تطير .

قالت الزهرة : اذا عدت بعد حين فسأسقيك من ماء ثماري الوفير .

قالت الفراشة : اذا كنتِ وأنت زهرة من بنات السراب ، فان ماءك وأنت ثمرة عصارة مستنقع كريه ؛ فزهرك باطل بين

نعيمان بثمنه أحضره الى النبي وقال: اعط هذا ثمن متاعه، فيقول النبي: أو لم تهده لي فيقول: إنه والله لم يكن عندي ثمنه ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك ويأمر لصاحبه بالثمن ، وذكرها ابن الجوزي في كتاب الظراف وغير واحد من المؤلفين في النوادر .

الزَهَر وشرك باطل بين الثمر، فان الزور اذا استحال فانما يستحيل الى زور اكبر .

وهداياي التي كنت أسوقها الى النبي إن كانت تعبر عن شيء، فانما تعبر عن مكان الندى والسماحة من قلب النبي الكبير ، وهو لا يفتأ يأخذنا بألوان منه ويملأ جو حياتنا بطراوته ، وقصاراه انه اخرجنا من بداوة الطبع وزودنا بقلب الانسان .

قال ابو هريرة وكان احد الحضور : ان الحديث ذو شجون ، وقد اذكرتني بلحن حديثك واقعة شهدتها . كنت عند النبي «وقد اخذ وليده الحسين يَدْلَع له لسانه فيرى الصبي حمرته فيهش اليه ، وعيينة بن بدر حاضر فقال :

يا رسول الله تصنع هذا بهذا فوالله ان لي الوالد وما قبلته قط.

قال النبي : من لا يَرْحَم لا يُرْحم » .

قال أبو الدَرداء وكان حكيماً : كم كنت جِدّ محسن يا نعيمان بقولك « وقصارى النبي انه زودنا بقلب الانسان » فقد جمعت غاية ما يقال في أخصر مقال ، وانه ليوحي بشيء كثير .. ثم أطرق في تأمل لم يطل به كثيراً ولكنه مس الجمع فنقلهم من جو أنفسهم في مرحه الى جو نفسه في تأمله .. وما هو الا ان أطرد يقول : لا أدري ماذا ترك في انفسكم خبر ابي هريرة ، فانه أيقظ نفسي على السر الالهي في محيط الكون الذي هو مصدر ما فيه من تناسق ونظام وجمال وتناغم. واذا كانت قصة المثل(١) تعبر عن واقعية كونية فانه يقع على قمتها ، وذلك السر هو الرحمة فانها المعنى الازلي الذي

(١) اي قصة المثل الافلاطونية التي تجعل الخير رأس المثل .

انبثقت منه الحقائق وكان الوجود احدى ظاهراتها وهي فيه مقياس القيم ؛ ونحن لن نتصل بالحقيقة الاخلاقيـــة والطبيعية وننفذ الى أغوار المطلق الا من طريقها وعلى اضوائها الملتمعة ، على ان الخير الذي اعتبرته قصة المثل رأساً ليس في حقيقته الا امتداد الرحمة وظاهرة من تحركها ، والجمال تجسّدٌ للرحمة باكثر مما هو تجسد للخير ، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونية والاخلاقية فهماً مطلقاً ، ونضع اليد على مقياس القيمة الحق .

وميزة الاسلام انه جعل الرحمة دعامته وقام عليها ، ولعله الدين الوحيد الذي تهدّى بها الى فهم الوجود وقياس الاخلاق وتركيز القانون والاجتماع ، وجعلها نظرية فلسفته الاولى . فقـد سمى الله احياناً رحيما واحيانا رحماناً ، وحين تحـــدث عن الكون قال في مقام « وسعت رحمتي كل شيء » وفي مقام آخر قال « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ، وحين تحدث عن المجتمع العـــام قال « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » وعن الاسرة قال « وجعل بينكم مودة ورحمة » وقال النبي يصف نفسه « أنا الرحمة المهداة » ، وحين تحدث عن الاخلاق قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » وما حدثكم به ابو هريرة الآن « من لا يرحم لا يُرحم » . ففلسفة الاسلام قامت على قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحيـاة من شتى وجوهه وجوانبه وبثها في قانونه وأناظيمه ، ودخل بها الى الهيكل المستغرق الخاشع والمجتمع الصاخب الداوي ، وكسر بها شرّة الانانيات الضارية وحَدّ بها من مَدّ الرغبات النهمة .

وبالرحمة عالج الاسلام طبيعة الانسان المعقدة ، ليبلغ بها مبلغ

المثل الاعلى الذي عبر عنه بقوله « رحماء بينهم » وليحقق بها مبدأ التآخي العام « إنما المؤمنون أخوة » .

وليس هناك كلمة كفيلة بان تدل على روح الاسلام الشائعة في كل اوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة ، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه . كالمحبة التي هي الرمز الجامع للمسيحية من اقطارها وحواشيها ، وفرق ما بينهما ان في طبيعة الرحمة توازنَ القانون وفي طبيعة الثانية خيالية التجريد .

وعلى اساس من الرحمة يقيم النبي التربية ويضع مناهج الرِبابة[1] السمحة التي تأذن لكل الطبائع بالنماء في تقدير موزون ، دون ما كبْتٍ يورث انتكاساً والتواء في الطبيعة المتفتحة . ولذا ذهب وليده بحنانه ولا يفتأ يغاديه بشآبيب حبه النمير .

قال شداد بن الهادي : لله درك أبا الدرداء فان فيما اذكره الآن شاهداً على ما تقول « إن رسول الله خرج علينا في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسيناً ، فتقدم النبي فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجوده فرفعت رأسي فاذا الصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد ، فرجعت الى سجودي فلما قضى الصلاة قيل : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة اطلتها حتى ظننا انه قد حدث امر او انه يوحى اليك ، قال : كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت ان اعجله حتى يقضي حاجته » .

فقال أسامة بن زيد « طرقت النبي ذات ليلة في بعض الحاجة ، فخرج النبي وهو مشتمل على شيء لا ادري ما هو . فلما فرغت من

(١) من وضعنا الجديد بمعنى تربية الطفل .

حاجتي قلت ما الذي أنت مشتمل عليـــه ؟ . فكشفه فاذا حسن وحسين على وركيه ، فقال: هذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم إني احبهما فأحبهما واحب من يحبهما » .

واستأنف أبو الدرداء حديثه فقال : إن الرحمـة في العضويات ومظهرُها الرقـــة والحَدَب هي سرُ كيان الموجود الاجتماعي وبقائه ، وإن الطفولة اذا لم تؤخذ برحمة الكِبرَ فلا بد أن تقـع هوة بين الطورين تذهب متسعة كلما ذهبت الايام ممتدة وتمتـــلىء بالكراهيات وتطفح بالأحقاد ، فتخبو النشوات المغرية بالحيـاة . لأن الطفل لم يعد يجد حاضره اللاذّ في الكبير ، ولأن الكبـير لم يعد يجد في الطفل مستقبل وجوده كحلم الخمرة في العنقود .

فمثل نظرة عيينة بن بدر الى الطفـــل تُؤرّث البغض الخفي وتذكي الصراع بينهما على نحو غير مشعور به ، فلا تتجاذب أجزاء الكائن بل تتدافع ولا تتجانس بـــل تتنافر ، وبذلك يندثر حب الذات في مظهره الاجتماعي وتبهت أحلامه فتبدو خابية .

إن النبي يبث في الشباب المستوي ، الرحمة على شتى أطوارها : بالشيخوخة لأنها الماضي فهو يستميلنا بالحنين ، وبالطفولة لأنهـــا المستقبل فهو يستهوينا بالأمل ، فتتواصل أطراف الكائن وتتّحِدُ في بقاء طويل ، ومحـال أن يقوم مجتمع على القسوة . فنحن وآباؤنا وابناؤنا أطوار كائن كروي واحد ، يدور ويرينـــا في كل وضع وحين وجهاً ، وكرة هذا الكائن إنما تدور بالرحمة فاذا نفدت جمدت الكرة وذوت فيها الروح . والحياة لا بدأن تتفسّخ وتُجتَوَى اذا لم تكن دنيا من الرحمة ، وهذا ما حققه النبي في فردوسه الذي

تزهو به أرض العرب ، ويلتمع الى بعيد في إغراء .

إن الطفل حيوان يعيش بالغريزة ، وبالرحمة يستطاع جعله إنساناً يعيش بالقلب .

قال نعمان ولم تفارقه دعابته : لا ريب أنْ كانت كل أضراسك — أبا الدرداء — ضرس عقل ، او لعل لك وحدك من بيننا ذلك الضرس .. فضحكوا وهم يتنادون متواثبين الى الرواح ، (وسالت بأعناق المطي الأباطح) ...

*

في بلاد العرب المُتَبَدِّية وضع النبي تصميم مدينة فاضلة ..

وما هي حتى استوت على قواعدها حتى وجد فيها العظماء الثائرون هيكل السعادة الشارد ...

وذُخِيَت لَبِنَاتها من كل مثالية التقى فيها الفكر والعمل ، فلم تغل بالمثالية فتطير بها اللبنات وتذهب في شرود ...

وكانت الرحمة ناموس تماسكها وتجاذبها ...

*

في هياكل هذه المدينة السعيدة كان حسين يجبو ...

وهو يتسامى في منبثق إشراقاتها يوماً بعد يوم ، كما تتسامى اللآلىء في رقارق النمير العذب ...

فكان كائناً كالالماس صقلته الأضواء وانطبعت فيه ...

وغدا بعد حين ، مشكاة متألقة تميس في فضاء الهيكل السعيد ..

وتهب الحائرين طمأنينة النفوس وأحلام السعداء !...

يوم الدولة

أصبح النبي وقد جمع اليه جزيرة العرب إلا قليلاً ، على ان ذلك القليل كان ذاهباً ايضاً في طريق سائرها ، كما تذهب الرحى راسمة خط دائرتها في غير توقف . وكان لا بد لهذه الرحى وفيها انطلاق وفيها حياة ،أن ترسم دوائرها واحدة في اخرى اوسع منها ، حتى تتصل أبعد ما يكون الافق المطبق، الذي هو في نفسه اقصى الدوائر في طاقة الحياة .

والنبي الى هذه البرهة من الزمن كان قد قذف الدين في حياة العرب روحاً ، وسوّى الدولة قطب الرحى في حركة الحياة الجديدة فانطلقت ولم تقف وتفرّجت ولم تنكمش . وابداً يقع مقياس الحياة الشامخة في الحركة بمقدار ما تستطيع ان تخط خطوطاً جديدة دائماً ، وتنثر في مدى خطوطها حَيَوات لا تغيض دفقاتها ولا تخبو اشعاعاتها ولا تبهت الوان احلامها ...

كانت سنةُ سبع وكان الناس يستقبلون بها عهداً جديداً ، فقد هيأ النبي الاسباب للاعلان عن ولادة دولة جديدة في المنأى البعيد ، المجهول القوى والممدود الرغبات . فنظّم طائفة من الرسل الى ممالك العالم القديم تحمل رسالة الدين والدولة جميعاً ، فقد اضحى

نبي فكرة وزعيم دولة .

وكانت الفكرة التي انبجست من ينبوع النبوة قد امتدت وهي تمتد ، فكان لا بد للدولة وقد تركّزت ان تتحرك لتمتد ايضاً . ودائماً تظل الفكرة في احساس التاريخ هزيلة ، اذا لم توافقها الدولة التي تجعلها خلاّقة ومغيّرة ، والفكرة لا تكون قابلة لتقوم على اساسها الدولة دائماً ، وانما هي فقط الفكرة التي اجتمعت [1] فيها كل قوى التاريخ وقابلياته الراكدة وانبعثت فيها على شكل من الحياة ، وبذلك تكون في اعتبار الزمن أنها منه ، ومصير الافكار الاخرى أنها تستحيل الى نَأَمات غامضة في أذن الدهر وسمع التاريخ .

ومن طبيعة الفكرة التي تجتمع فيها قوى تاريخية كبرى وتنجح في إقامة دولة جديدة وخلق تاريخ جديد ، أن تكون فيها عناصر الثورة كاملة ، الثورة التي هي ظاهرة من يقظة قوى التاريخ الراكدة .

ولأن تعاليم النبي من هذا النوع الذي اجتمعت فيه قوى التاريخ ، كانت لا تتصل بمجتمع إلا وتعمل فيه عملها فتُلهبُه

---

(١) ومعنى اجتماع قوى التاريخ الراكدة في الفكرة ان تشتمل الفكرة الجديدة على كل الضرورات الاصلاحية سواء في الاخلاق والحياة والاجتماع ومثاله : ان القوى التاريخية التي ظهرت في دولة فارس ثم تخلفت وكذلك في دولة الرومان ودول الارض اذ ذاك ، وجدت سبيل ظهورها وقابلية انبعاثها في الفكرة الجديدة التي دل عليها النبي محمد ، فانبعثت فيها كل قوى التاريخ التي كانت قد ركدت في الامم حينئذ ، وكذلك كل فكرة في كل دور لا تملك قوة الامتداد والحياة والسيطرة الا اذا كانت فيها قابلية لانبعاث القوى التاريخية فيها التي تخلفت في اوضاع الامم الاخرى .

وتحرق عليه زيوفه وتغيره تغييراً تاماً ، حتى كأن ما ليس منهـا ليس من الحياة . بذلك نجحت نبوة محمد ونجحت دولته ، وفيها القوى لتنجح كلما حُرّكت وانبعثت .

وكانت كتب النبي الى الملوك أول دعوة من نوعها في التاريخ ، دعوة دولية عامة للدخول في النظام الجديـد ، وجهت على شكل كتاب رسمي . كما كانت إعلاناً بولادة دولة الاسلام والعرب ، التي في ضمير الزمن عنها : أنها كلما ولدت يتغير وجه التاريخ .

في هذه الفترة كنت تحس في كل نحو من أنحاء المدينـة بحركة نشاط غريبة ، وتسمع همسات مستطيلة متصلة الهمهمات ، ولم يكن للناس حديث إلا حديث الكتب ، وماذا سيكون رجعهـا ورد الملوك عليها ؟ . وكان في الطريق الآخذ الى العوالي ، جماعة انتحت بنفسها ناحية ظليلة تكاثفتها أوراق الأغصان الوارفة .

فقال قائل : أما ترون أنها محاولة خطرة ، قد تؤلب علينـا جماعات الأمم وهي تحيط بجزيرتنا إحاطة السوار بالمعصم ، فان نفسي تَتناشُها المخاوف وتتقَسّمها شَعاعاً .

قال المقداد بن الاسود : لا ينتفخْ سَحْرك بالأوهـام ، ولا تُرَعْ ، وسِرّ عنك . إن لنا من قوانا الجميعة ما يجعلنا كتلة من الصلب من ورائها الايمان يشدنا ، ومن وراء الايمان ، اللهُ واهبُ القوى والقُدَر فلسنا نرهب عاتياً من البشر . وإن النفس الـتي رأت وجودها في الله ، تتطاول بها القوى ، وتتقاصر في مـدى اعتبارها أية قوى أخرى ، فتنقذف وهي قُلة راعـدة من مصدر القوة الكبرى . وحظ الانسان من الحياة كما هو في مرآة نفسه التي

هي ينبوع المطلق ، وليس كما هو في مرآة الوجود التي لا تعكس الا نسبية وظلالاً خادعة مختلطة . وإن الوجود كائن بسيط وهو لا يملك إلا حقائق بسيطة ، وأما حقائق الوجود العظمى فهي من هبات الانسان على الوجود . والانسان ليس كائناً منفصلاً من الوجود فقط ، بل هو أداة خلق وتكميل فيه..فالحياة وأشياؤها والوجود المعنوي وفكرته ، بدعة هذا الانسان العجيب الذي لولاه لظل الوجود بسيطاً ساذجاً خلواً من الاغراء .

والانسان الذي لا يفتأ يطلب كبرياء الوجود ويحس بنشوة وجوده في حدود هذه الكبرياء ، بل لا يحس بالوجود بعيداً عنها ليس كائناً طبيعياً ، وإلا فهو ككائن طبيعي شيء تافه مثل أي كائن آخر ينمو ويذوي بين فترات من الزمن .

والايمان بالله الذي دعا اليه الاسلام في حقيقته إيمان بالانسان وهدم للايمان بالوجود الصامت الذي هو وثنية تحول بين الانسان والايمان بنفسه ومعرفتها ، والى هذا يرمز قول النبي الأعظم « من عرف نفسه فقد عرف به » .

فالانسان كائن إلآهي اذا فهم نفسه ، وكلما رسب الى الطبيعة وآمن بقواها فقد رسب وتلاشى في غمار الوجود الصامت وعاد كحفنة هامدة من الرمال . والنبي بشّر بالانسان « ولقد كرمنا بني آدم » وحارب الوثنية لأنها كفر به وارتداد الى تأليه مظاهر الوجود الخادعة ، وجاء بتوحيد الآلهة لأنها كلما تعددت فقد تلاشى الانسان في ساحتها .

وما انكسف قمر الانسان في أمة وارتدت بعبادتها الى تقديس

الطبيعة دون الانسان ، إلا هوت مضمحلة وكان ذلك أول علائم احتضارها ، فان الانسان وحده هو الحقيقة الكبرى في الحيـــاة والوجود (فقد خلقه الله على صورته) .

والقوة ــ يا هذا ــ كيفية لا كمية ، وليست كما هي في مرآة الوجود بل كما هي في وجدان الانسان ، والظفر دائماً يكون بخيال القوة ومبالغاتهـــا في النفس « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ».(فوالله لو قذف بنا النبي الى برك الغماد والى كل مدائن كسرى وقيصر ما ونينا ولا نكلنا) ونحن أيضاً لا بـــد ظافرون .

قال سعد بن عبادة : عهدُنا بك انك بطل فها أنت حكيم أيضاً...

قال المقداد : ان البطولة معرفة الانسان نفسه ، فاذا برزت في العمل قيل عنها بطولة،واذا برزت في الفكر قيل عنها حكمة . فالبطولة حكمة صامتة ولن يكون المرء بطلاً إلا اذا سبق وعرف نفسه أي كان حكيما ، والنبي سبق وعرّفنا بانفسنا فلا جرم أن كان كل أتباع محمد أبطالا .

وبينا هم على تبسطهم في الحديث ، عرض راكب مُجِدّ يغذّ الخطى غـــذاً ، وحين حاذاهم قام اليه الجمع وحفوا به ملقين اليه رؤوسهم .

وقالوا بلهجة المنتظر : مـا وراءك ؟ وكان هو الرسول الذي بعثه النبي بالكتاب الى كسرى .

قال الراكب وقـــد ألوى رأسه حتى حاذى رؤوسهم : إن كسرى بلغت به حماقته أنه مزق كتاب رسول الله مستخفاً حانقاً ،

فما أتت عليه ليلته سالماً عدا عليه ابنه فقتله ، وقام مقامه وشمل الناس كافتهم نوع بل انواع من الذهول والدهشة والاضطراب ، وتركتهم وهم يموجون كالآذيّ العرم .. فتعلقوا بمساءلته من كل جانب ولكنه حث مطيته وانطلق يسير ، فانقلبوا الى بعضهم يتعجبون .

قال سعد بن عبادة : لقد صدق المقداد والله حين قال ، ان الايمان اذا خبا ، حل محله جهل الانسان قيمته .. والمثل العليا والمعنويات الخالدة وهي تنبع من معرفة الانسان بنفسه لا يعود لها وجود في جوه وفضائه ، فيسيطر عليه نوع حاد من التفاهة يقعد به عن المجد ونوع حاد آخر من الملال يهبط به الى الرغام . وفيما نقل الينا الرسول الآن من حال الفرس شاهد جد خطير . فهم أمة جهل الانسان فيها قيمته فلا بد أن تعود ولا قيمة لها ، رُوَيْدَ أن تشرق عليهم شمس إنسانيتنا الجديدة .

ولم يكن طويلاً حتى خفوا بعضهم في إثر بعض ووافوا المدينة ، وكان الناس يموجون موجاً ، فقد هبط ايضاً الرسول الى قيصر وهو ينقل مقدار احترام قيصر للكتاب ، وهبط سائر الرسل الآخرون ينقلون مثل ذلك . فبارکهم النبي ونادى المؤذن « حي على الصلاة حي على الفلاح » فاستوى النبي في مصلاّه وخف الناس ينتظمون صفوفاً .

قال قائل لآخر وقد توجه الناس يكبرون بالصلاة : اني ليستخفني شعور عنيف أنا معه جد مغتبط ، فقد طفرنا الى قمة التاريخ وغدونا أولي فكرة اسمى ما يكون الفكر ، وأولي مجتمع أسمى

ما يكون المجتمع . وإنه سيظل لنا تذكاران خالدان : يوم الهجرة وهو تذكار نجاح النبوة ، ويوم الرسل او السفراء وهو تذكار نجاح الدولة . « وجاء حسين يشتد بين الصفوف وقد سجد النبي يصلي فالتزم عنقه فقام وأخذه بيده فلم يزل يمسكه حتى ركع » ...

مضت سنة سبع وأهلت سنة ثمان ، وكان الحسين قد شارف الرابعة او عبرها ، حين اتجه النبي لدك آخر معقل من معاقل الاوهام (مكة) التي هوت بالانسان الى درك التاريخ ومـــلأت أجواءه بالاساطير ، حتى انقلب معها وهو أسطورة حية ، وانقلبت دنياه التي يعيشها وهي حياة في اسطورة .

هبطت جموع النبي مكة من كل صوب ودلفوا اليها من كل حدب ، وبرز النبي كالنسر الطائر وهو رمز فكرة وتفوّق ، وسار حتى دخل البيت ومن أية جهاته أوهام متجسدة « أصنام » عبدها الانسان ، فكان يشير اليها بيديه كلتيهما ويهتف بكلمة الله القارعة « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » . فهوت مكبّة وغاب رجع صداها في الغور السحيق ، وتمجّد الحق يوماً في دنيا الانسان ، وعرا الناس جلال الموقف ، وراحوا في يقظة استغراق كانت واعية ، وجرى على لسان فضالة الليثي :

لو ما رأيت محمداً وجنوده ... بالفتح يوم تُكَسَّرُ الأصنامُ

لرأيت نور الله اصبح بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وحشدت قريش اشاباتٍ أشـــابات ، وراح النبي يخطر بينهم ورؤوسهم قد ساوت الصدور .

فقال : ما تروني فاعلاً بكم ؟

قالوا : اخ كريم وابن اخ كريم !

فقال وقد جمع نبل الانسان من اطرافـــه : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ...

وردد الصدى في كل مكان «اذهبوا فأنتم الطلقاء» ، الذي كان إعلاناً للبشرية بان هذا يوم حريتها . فلم تكن حرب النبي عثواً واضطهاداً وقد وجد سبيله اليها ، وانما كانت خلاصاً وتحريراً لكي يتنفّس الانسان بملء رئتيه في العراء ...

وتردد في الدهر أن محمداً أطلق القفير ، وكسر قيوده ...

وراح الفراش يطن في الحقول تتحاضنه أيدي الزهرات .

قفل النبي راجعاً الى المدينة وقد ازدهت ببهجاتها ، واصبحت وفي كل بيت صدى فرحة انطلقت متماوجة وكبيرة ، وكان النبي يلبي دعواتهم ويشاركهم مراح الظفر وفخاره .

قال يعلي بن مرة : «خرج رسول الله الى طعام وانا معه ، فاذا حسين في السكة مع غلمان يلعب . فتقدم النبي امام القوم وبسط يديه ، فجعل الغلام يفر هاهنا وهاهنا ، وجعل رسول الله يضاحكه حتى اخذه ، فوضع احـــدى يديه تحت قفاه والاخرى تحت ذقنه وقبله وقال :

حسين مني وانا من حسين ، احب الله من احب حسيناً ، وحسين سبط من الاسباط» .

*

نحب البنوة لانها خلود للذات ...

وفي الحسين كان النبي يرى خلود ذاته ...

فلاجرم ان كان يغمره بهذا الحب لانه استمرار ذكرى النبوة ...

*

ضمه اليه ملياً بين الحب والمجد ...
وحنا طويلاً عليه بين القلب والفكر ...
فكان له من قلبه وفكره جميعاً ...
وظل أبداً رمز مجد شامخ ، وقبلة حب كتنفس ازهار السحر وعبق الخلد ! ...

*

الحب شعور الى شعور ، وخفقة قلب الى خفقة قلب ...
والشعور جوهرٌ فردٌ ليس ينقسم ...
فكان حسين منه وكان من حسين ! ...

*

اذهبوا فأنتم الطلقاء ! ...
خطاب لقريش مشيراً الى كل انسان في كل مكان ...
ليقف شاعراً بوجوده على حطام الاغلال ورُفات ارباب القيود ...
فهذا صوت من السماء يؤذن بالحرية وينادي بالخلاص ...

*

اذهبوا فأنتم الطلقاء! ...
كلمة صدرت من رسالة محمد وبيت محمد ...
فكانت إيذاناً بان موكب الحرية من هذا البيت يسير ، وفي الطليعة ابداً يكون ...
وطبيعة الطليق ،لا تجعله باعباء هذا الامر خليقاً ! ...

obeikandl.com

فأبناء الأسار ينطبعون على شهوة الأسر !..
فقد عششت القيود في روحيتهم وتولدت منها عقليتهم ! ...

*

ولكن حاول الطليق الانتهاز وكان ...
فعادت قيود السجن والسجان ...
فحمل حسين — وهو راموز بيت الحرية وحارسها — الشعلة المقدسة الى كل مكان ...
فقد سمع زمجرة تحرّق الأرّم من وراء القبور، فأعلن النكران ..
وهب تحت صوت الواجب يغالب البحران ... وهو وان لم يكبح جماح الطغيان ...
فقد ترك في جنبه ثورة البركان ...

دموع

كثيراً ما كان النبي يُرى في أخريات أيامه بين ذويه وابنائه يؤانسهم ويطمئن في نشوة خفية الى اشياء لهوهم البريء ومرحهم الحلو ، ويعاطيهم اسباب هذا اللهو وهذا المرح ويمد لهم فيها ، فقد حقق حلم المجد وادى غاية الرسالة القصوى ، فهو يشعر بالاطمئنان والرضى ويحس بتزاحم سرور عميق .

وكان يأنس كثيراً الى هذا الجو الذي تشيع فيه حركات الطفولة ناعمة ببراءتها هانئة بسذاجتها منتشية بطراوتها .. وهي رغم قسوتها احياناً تجد وقعها اللذيذ ، فان البراءة جمال على شتى صورها وألوانها .

والطفولة وحدها أثبت حقائق الحياة ، وما وراءها سخريات واشباه سخريات تبدو خشنة ، وكلما اوغلنا في مدى الحياة تزيد خشونة وتوعّراً . وحين تدركنا لذتها عرضاً فانما تكون في شكل من اشكال الرجعة الى الطفولة ، وفي إنضاء زيوف ثقيلة من أثواب التكلف المرهقة .. والتكلف رياء وانانية على كل وجوهه ، ولذلك انصرف جهد النبي الى ان يضع في كل الحياة براءة الطفولة .

ونحن لا نستطيع الرجعة الى الطفولة وبعثها من جديد على اية

صورها ، كما نعجز دائماً عن خلق جوها المترف فنطلبها في الطفل بتشوق ملحّ وفي نوع من الحنين الآسر ، ليغمرنا بروحيتها التي تظل فينا املاً منشوداً ورغبة حادة .

والنبي كان يجد طفولة حياته اللاذة في ابنائه كما كانت وعلى ما كانت ، فيأخذهم بصنوف المِلعاب في حنان وافتراز . وكثيراً ما كان يُرى الحسن والحسين يصطرعان وهو يحمسهما ، او يلعبان بالمداحي[1] وهو يعب الهناءة عباً ويتملأ منها ، ويتذوق « حلواء البنين » التي هي النشوة الكبرى في ظلال العمر . فان لذاذة الحياة تقوم في نشوتين : نشوة بالطفولة ، ونشوة بذكراها في الطفل ، وما بقي من فصول الحياة هجير كهجير الظهيرة ولذع كلذع اللهب وحرقة تنتهي بمرارتها .

والطفل طائر يرفّ بين أيدينا لنلحق به الى جو حقائقه واحلامنا ، وكأن الحياة تضع الحقيقة العارية السعيدة بكل فتونها بين يدي الطفل فيغرق في خُمارها زمناً ، ولكنها تنأى وهو في قمة شعوره باللذة المطلقة ، فيحبو وراءها في كَهَفات ثم يعدو في كَهَفات وهي تنأى وتنأى حتى تحور في كون من الضباب يحول الافق دونها ، وينقطع بالحي المسير فيستغرق حالماً هائما فقد سقط في السراب تطوف به وتتنازعه احلام الماء .

وإذ يصطرعان ، كان النبي يُهيج حركات طفولتهما المتشابكة

---

(١) المداحي احجار كانوا يحفرون حفيرة ويدحون فيها بتلك الاحجار فان وقع الحجر فيها فقد غلب (بفتح الغين) صاحبها وان لم يقع غلب (بضم الغين) والدحو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره .

التي هي رمز عبث في جد، وجد في عبث تنظمها براءة مارحة .

فيقول : « إيهاً حسن.

قالت فاطمة : أتستنهض الكبير على الصغير ؟!

قال : هذا جبريل يقول إيهاً حسين! ».

وجبريل رمز من المطلق واسم من المثال ، وفي لحظة استغراق واستعـــلاء طافت بنفس النبي صورة من التجريد برزت بجسمة ومكبرة، وهي تشاركه نشوته وبهجة ما يجد حيال مرح سبطيه. ولم يكن جبريل غريباً عن جوه فهو رمز رسالته ، ولم يكن حسين بعيداً عن قلبه فهو رمز حبـه . وفي هذا الاستنهاض التمثيلي رمزية تشير الى أن الحسين سيكون رائد الرسالة وعَلم الهدى ، ففي اعماق ضميره صوت من الغيب يتردد ابداً : إيهاً حسين ! ..

مع الاصيل كان في اقصى الصحراء راكب يسير بين الجـــد والهوينا آخذاً نحو المدينة ، وهو يبدو من بعيـــد كرة يدحرجها الافق على الرمال ، والصحراء هيـــكل ابدية مكشوفة تتمدد في النفس على رُحْبها فتتمدد بها النفس لامتناهية تطالع المجهول .

وكان الراكب ،أبا ذؤيب الشاعر الحزين الذي ضفّر الحزن على هامته اكليلاً تناثرت اوراقـــه وبقيت اشواكه القاسية تأبرُه في خطرات الذكرى،وخلجات الحنين، ورجفة الهوى وتأوّدات الطيف.

والصحراء ينبوع ذكريات سيما لنفس انسان محزون تكسرت اصداء الاسى في اذنيه ، فهو يحس بوقرها في الخلاء ضاجاً عنيفاً . والنفس البائسة يزداد فيها صدق الحس والحدس ، وتتأثر بالفواجع من بعيد وبرعشات الغيب والمجهول .

عرَته والمطيـــة تتهادى به هزة شجى ، وتأودّت في اعطاف الصحراء أمام ناظريه طيوف رامزة . « وكان قد بلغـــه ان النبي عليل ، وكان قد استشعر حزناً مذيباً ، وكان قد بات بأطول ليـلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها قبل ان ابتـدأ المسير . فهوّم مع السّحَر فسمع صوت الشاعر يهتف به في الاحلام :

خطبٌ أجـلّ أناخ بالاسلام بين النخيل ومعقد الآطام

قُبض النبي محمـد ، فعيوننا تذري الدموع عليه بالتّسجام

قال : فأصبحتُ من منامي فزعاً فنظرت فلم أر الاسعد الذابح فأوّلته ذبحاً يقع في العرب وعلمت ان النبي قد قُبض .

فحششت راحلتي وسرت . فلما اصبحت طلبت شيئاً أزجر به ، فعَرَض لي شَيْهَم قد قبض على صلّ فهي تلتوي عليه والشيهم يقضمها حتى اكلها ، فزجرت ذلك وقلت : شيهم ، شيء هَمّ . والتواء الصل : تلوّي الناس على القائم بعد رسول الله » .

فادركتني حَيرة مُتلظّية عرض لي فيها شبح إنسان مُجدّ نفِقت تحته راحلته من طول ما حمّلها وراح يحملها ، ولم يقعد به الانقطاع بل هب في غير توقف ، يخطو خطوات واسعات فقلت في نفسي : لامرٍ ما جدع قصير أنفه !!

« فمددت الخطى مداً عنيفاً حتى هبطت المدينـــة ، ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج اذا اهلوا بالاحرام ، وهم في ذهول مستطيل ووجوم .

فقلت : ما الخبر ؟

قالوا : قُبض النبي !

فجئت الى المسجد فوجدته خالياً، فأتيت بيت النبي فوجدت بابه مرتجاً ، وقيل هو مُسجّى وقد خلا به اهله . فقلت أين الناس ؟

قيل : في سقيفة بني ساعدة » .

وفيما أنا في بعض طرق المدينة أمشي مشية الحزين الحائر ، رأيت عارض الصحراء فتبيّنتُه ، فاذا هو معاذ بن جبل عرته سحابة حزن صامت مكظوم ، فتلقيته بين يدي وقلت : أأنت ؟!

فانفجر وانفجرت معه بدموع حِرار تزيد الجوى لوعة والاسى لذعاً ، وكان نشيجه مريراً كمن ثكل كل ذويه في ميتات متقطعة متلاحقة ، لا تفصل بينها إلا هنيهات وفينات . وكان الحزن يشتد به دراكاً حتى لم يعد يتماسك، فاخذته اليّ وهو نضْو يتشنّج ويشلو يتـــنزّى .

وبعد لأي افاق وكانت إفاقته جد مريرة ، فقد هب كالمرور يطلب شيئاً وانا وراءه ، حتى انتهى الى كل باب يقرعه ولا يلبث ان يرتدّ عنه . فقد كان يرغب ان يرى الناس ليخرج من وحدته الممضة القاتلة ، ولكنه لا يكاد يرى احداً حتى تزيد أزمة نفسه وتتجدد له ذكرى تبعث نفسه أشد التياعاً .

ولم يزل يدنو ويناى في رغبة ورهبة حتى قاده المطاف الى بيت عليّ ، وكأنه اراد ان يداوي الاسى بالاسى ويلاشي الالم بالالم . وأحس بالارتياح العميق حقيقة ، فان كل الالم يذوب في مضاعفات الالم ، ويتلبّس النفس شعور سلبي مبهم لا يتجاوب معه في النفس غلواء الالتياع وبرحاء الاحزان ، فان المشاعر على اختلافها نسبية ولا فواصل بين اطرافها ، فهي اذا بلغت غايتها هبوطاً او ارتفاعاً

تتحول او تهمد .

رغب كثيراً واطمئن ، الى ان يجابه الاسى في هيكله ، ليستغرق في لحظات المرارة المطلقة التي تتجرد في الاطلاق عن معناها ووقعها الاليم ، فقد غدت لا عضوية دون أعصاب تتقلّص أو تتمدد ، انها اصبحت خفقة روح في غير لون .

فمضى معاذ باحساس وجداني عفوي الى بيت علي ، ليواجه اشد انواع الاسى في شخص النسر الحزين وفراخه الحيارى ، فهو يشتهي ويفضل كثيراً حيرة الاسى اللاشاعرة والغفوة في الالم على ان يظل في يقظة الآلام .

وقف دون البيت طويلاً ثم قرع الباب ، وما اشدها وامرها مصادفة فقد « برزت اليه فاطمة » تجول في مآقيها عصارة حب خالد ، وتعلقت في اهدابها الواسعة دمعة كبيرة ، ليتها سقطت !...

وفي ناحية من البيت رأى الحسينَ ولبدَ النبي المحبب منكمشاً على نفسه ، يدير لحاظه فلا يرى الا دموعاً فغرق في الدموع . وكان بين حين وآخر يناجي نفسه ويطارحها في حديث خفيض مسموع .

أبتاه !.. أين هو ؟ لم اعد اراه ! اليس لي ان اراه بعد اليوم ؟ بالامس القريب كان يلاعبني كيف نأى ؟ لم يعد لي بعد الآن ، حنان ذلك القلب الكبير !!

فيزيد الفجيعة ويحرك النشيج ، ومعاذ حالم امام هذا المشهد مستغرق ، انه لم يعد يحس بشيء ، إنه غدا خلاء من كل شعور ...

*

مات محمد البشري ليخلد محمد النبي ...

فاستعبر الحسين لأولها بالعاطفة والحنين ...
وافتدى ثانيهما بالدم القاني الصبيب ...
حينما حاول مس جلال الخلود ، غواةٌ محمّقون ...

*

بعد اشهر معدودات رزيء امّه الزهراء وملاكه الآخر ...
الذي كان يشع عليه بالامل الهاني والسعادة الحالمة ...
فجمدت في عينه دموع وفي قلبه دموع ...
جعلته كل حياته ينظر الى الافق البعيد ...
يود لو يذوب في الشفق الملتمع من كوى الأبديات باغراء ...

*

مرارة قاتلة على قلب غض ، هبطت فجأة فانتقلت به من حال الى حال ...

واستوى دفعةً فنظر الى الحياة من فوق كوّة الرغبات فرأى حمأتها ...

فوجّه تياره الطهور فتمددت وانتفخت متجهمة تريد الصراع ...

فتقززها واستعلى فقد ترك فيها دفقات من الينبوع الاقدس وهو لا بد مطهرها .

ولم يزل يستعلي حتى لم يعد يُرى ، الا نجماً يتوارى في التحليق بأشعاعات واغتماضات ...

مع خليفة

●

في قمة المجد العربي حينما كانت الراية الاسلامية تُنسج وتنظم خيوطها من ممالك العالم القديم ، وتتهادى متطاولة في الفضاء ، كأنها توشح الآفاق وتُطلّ على عالم يمور بالخلود ، وتحتضن جداول الابديات بما فيها من فتون ، وقف عمر بن الخطاب يبارك هذا المجد ويقول كلمته بلسان التاريخ ، ويودّع عالماً يدفعه بمنكبيه ويستقبل عالماً بكلتا يديه .

عالم من طوبى محمد ، ولكنها طوبى متحيّزة تحيز الواقع ومتألقة تألق الشعاع ، وهي الى هذا ملء السمع والبصر ومَراد الأماني... عالم انطبع على آفاقه وجه محمد في هالة القرآن ، والقرآن هو اللوحة التي شاءت الحقيقة الخالدة ان تبرز فيها كاملة قد نضت عنها شتى الاثواب .

جلس على اريكة هذا العالم الجديد الذي هو من عمل نبي الخلود ، ولم تكن هذه الاريكة او العرش الا منبر المسجد ، الذي كان محمد يقف عليه ويهتف بلسان السماء يهدي التائهين ، والاثير من ورائه يردد النداء ابعد ما يتناهى ، فمحا كوناً واثبت كوناً وظل تمثال الحقيقة الباقية بين الكونين ، وصوتَ الله في وَعْي العالمين متجاوبا

بصدى الابد .

لم يكن في عالم محمد عرش لانه لم يكن فيه عبودية ، ولم يكن فيه « بلاط » لانه لم يكن فيه ارهاب واستصناع عظمات مزيفات ، وانما كان المنبر فيه هو العرش ، والمنبر رمز يشير الى الكوة التي شع منها الهدى وانبثق منها الضياء . وكان المسجد فيه هو البلاط ، والمسجد رمز يشير الى التلاشي في الروح والفنـــاء في الاشراق والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق .

وقف عمر يتكلم وكأنما زُوِيَ العالم اليه من اقطاره ، وتآزَحَ في حـــدود موضعه ، والناس كأن على رؤوسهم الطير يصغون ، والكون من ورائه يسمع ويخشع .. ومن أقصى المسجد جاء يخطر بين الصفوف الحسين وليد النبي ، حتى بلغ مرقاة المنبر فما تهيبها بل صعد رابط الجأش حتى انتهى الى حيث يجلس عمر فشاركه موضعه .

وكان منظراً بدا غريباً اعطى الناس لحظة انتباه شرعوا معها يتلمون رؤوسهم ويتهامسون ، فلحظات ذكرى انتقلت بهم من حال الى حال ومن زمن يعيشون فيه الى زمن يحنون اليه ، وقـد ظل شائعاً حياً في الخَطَرات الحلوة يوم كان الحسين يتخذ موضعه الى جنب جده العظيم في هذا الشكل وهذه الصورة .

ذكرى سعيدة جرّت وراءها نوعاً من اللاشعور ، وتمددت في تأمل طويل ، وكان استغراقاً كله السكينة والاطمئنان وإن بدا كالوجوم الراني .

شخص الناس الى الغلام ينتظرون ما سيجيء به ويصدر عنه ، وكان الغلام أكثر منهم استغراقاً وأكثر نفوذاً في الذكرى ،

فراح يُلَمّي ناظريه ويتهمها ممن استيقظت نفسه على أنه جده .

هو شديد الحنين وشديد الهوى ، الى أن يرى جده وقد فصل عنه زمن كان طويلاً في حس القلب، وكان خيالاً شديد الأسر له ، فلما لم يجد فيه جده وجم ملتاعاً ، فقد انهار ما اجتمع في خياله من لذاذاتٍ دفعةً ، كمن حيل بينه وبين ما يشتهي وهو في أدق فترة من لذة التذوق ، فرسب فيه خيال بهتت به لذة وطفا فيه خيال استوى معه ألم .

فقال له في شيء من التحدي الصارم : « انزل عن منبر أبي واذهب الى منبر ابيك » ... فاشتمله عمر وحنا عليه طويلاً ثم قال له في اشياء من ديمقراطية الحق والاعتراف الفكه الجميل :

« إنه لم يكن لأبي منبر » ... ومال عمر عليه ثانية فقال له في شيء من الترقّب والامتحان النفسي :« من علمك ؟ .»

فقال الحسين في اشياء من الذاتية المتفتحة :« والله ما علمني أحد »... وكأنما رد عليه : بانه شعور النفس بالنفس وتحسس الشخصية على محلها وموضعها .

وخفّ الناس يشد بعضهم الى بعض يقولون : إن الحسين يطل من نافذة مقلتيه البطل ...

وكان عمر قد أعجب به في غير حد ، وكان قد أخذ بشخصيته القوية في غير مقدار ، فرأى لزاماً عليه ان يبرزه في حياة الجد الحاكمة ، وان يأخذه باسباب التوجيه والاشراف على تصريف المقدرات العليا ، فقال له :

« بابي ! لو جعلت تغشانا » ... وانقضى وقت قبلما اجتمع

اليه ثانية، وتخللت أحداث ، فقد رفعت اليه شكوى من اطراف الشام على معاوية ، فاهتم لها عمر، وكان رجلاً صليباً ،فاستقدمه مع البريد مسرعاً وخلا به ، وكانت الطريق قد جمعت الحسين بعبد الله بن عمر فقصدا الى مقر الخليفة يزورانه ، فطلب ثانيهما الدخول فقيل له :

« انه خالٍ بمعاوية » .. فانقلب ابن عمر وانقلب الحسين معه ، وفصل زمن لم يكن بعيداً حين صادف عمرُ في بعض طرقات المدينة ،الحسينَ فقال له :

« لم أرك » .. فروى له كيف حيل بين عبدالله ابنه والدخول وكيف رجع معه، فتصوّر عمر بشكل الجد إشعاراً بالفرق الكبير وقال وصوت الحق يدوي في مقاله :

« أنت أحق من ابن عمر . إنما انبت ما ترى في رؤوسنا ،الله ثم أنتم » .. وصمتا يمشيان ، ووقف التاريخ من ورائهما يرددها كلمةً خالدة في سمع الدهر وأذن الأبد...

جهاد الشباب

●

حين كان الفتح الاسلامي يضع إحدى قائمتيه في أقصى الشرق، والاخرى عند باب الغرب – يقرع عليه هجوعه وينفض عن جفني الغرب الباقيات من رقدة الأيام ، والهباءة التي استحالت الى ظلام كثيف حالك حول مقلتيه وبين يدي حياته ، كأنما لم تنعشه بعدُ أولُ إشراقة من ضحوة الشمس – ذهب حسين شرقاً وذهب غرباً كأنه يضع بكلتا يديه حجر الأساس في قاعدتي قوس النصر مباركاً .

كان حسين يناهز الثانية والعشرين من سنيه ، حينما ذهب جندياً يلوح بشعلة البعث والاصلاح في الحملة الى الغرب .

وكان جواً حماسياً ذلك الجو الذي صبغ المدينة ، فقد تحولت من بلد ناء مجهول تحيط به وتغمره الصحراء من كل جانب ، والصحراء محيط زاخر تقوم فيه الرمال مقام الماء ، الى عاصمة مركزية تتولد فيها الحرارة وتوزعها ، الى قلب عالميّ تخفق فيه الحياة وينبض بالخلجات الى كل مكان .

في هذا الجو الحماسي كان التسابق على الجهاد قد اتخذ شكل مباراة بين الشباب والكهول ، ومن دون الشباب ومن فوق

الكهول .

هي أمة جديدة بعثتها روح جـــديدة ، فانطلقت وفي عروقها عصارات من حيَوات فائضة تجريبـــا في جسم العـــالم الممدّد المحتضر وتصل عروقه بعروقها ، فتمشي طائفة عليه دائرة فيه ، مشيَ الروح التي تمسه بتيارها .

كان السائر في طرق المدينة ومنعطفاتها لا يسمع الأصداء قوية مزهوة ، هي بقايا هتافات تثير الاعصاب . وكان الغلمة يتقاذفون بالازهـــار ، والعلية يتحايَون بالعَبار [1] والمسرّة [2] . فقد تركوا لاعصابهم المائجة بصنوف الفخار والمجد ، سبيل هواها ومجـــالات التعبير عن ازدهائها . فقد وردت الانباء بالانتصار المؤزّر في «برقة» وانكفاء البربر هناك .

وكنت لا تجد كيفما سرت وأنى ذهبت إلا جموعـــاً تموج في جموع من ظاهر المدينة الى داخلها ، وعلى فجأة أخذ بصرهم فارساً يطوي الهضاب وهو يمر بينها مراً سريعاً ، فشملتهم هدأة غطت على الضجيج وضمتهم لحظـة انتباه وسكون القتهم في صموت متسائل ناطق . وما حل بينهم حتى التفوا عليه وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وأخذوه بسيل من الأسئلة من كل جانب . فاستوى على الركاب منتصباً وخاطبهم بصوته الجهوري الحاد النبرات والمشتعل المقاطع والكلمات :

---

(١) الأزهار والريحان تجعل باقات ويحيا بهـــا ، قال عبيد بن الأبرص « سجدنا له ورفعنا العبارا »

(٢) المسرة اطراف الرياحين يحيا بها ويقال سره أي حياه بالمسرة .

ايها الانصار ! ايها الابطال ! اليوم يومكم . فقد دقت ساعة الكفاح . افسحوا لي الطريق الى المسجد الى مقر الخليفة واتبعوني !

فتدافع الناس عن طريقه صاخبين هاتفين : اليوم يومنا . الى مقر الخليفة ... وقف الرجل على مقربة من الخليفة ووجّه مقاله تارة للجموع وتارة اليه :

« ان جرجير المملك مابين طرابلس الى طنجة اشّب الجموع وحشد الجند من اطراف مملكته ، للاحداق والايقاع بجيش العرب وهو يتربص بنا الدوائر ، وبات الخطب على قاب قوسين أو ادنى . وان عقبة بن نافع قائدنا المظفر قد بات في ضائقة من الامر ، ولكنه مستبسل اشد استبسال «يكافح كفاح المستميت في الدفاع والهجوم ومداورة الخصوم ، وهذا يوم له ما بعده .

فالى الجهاد ايها المؤمنون ! الى القيام بالتزامات العقد بينكم وبين الله على تجديد العالم واخذه بالمبادىء الانسانية الفضلى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . ان اخوانكم من قبل روّوا الرمال الرابية الى افريقية بدمائهم الصبيبة وهم اسخياء ، وبنوا من جماجمهم معاقل الصحراء . وها هي دماؤهم اليوم تناديكم وتستصرخكم بصوتها الرجاف الرّعود من وراء الرجم وتستندبكم الى التضحية .

فالى الكفاح ! الى النصر !

وما هو حتى اختلط صوته باصوات الجموع وذاب في دويها

العميق : بل الى الشهادة ! الى الموت !.. وبقيت الاصداء يرددها الفضاء ويطوّف بها الاثير في كبرياء وخيلاء .

وتدفق الناس على التطوع ، وكان في «مقدمتهم الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعلمية لا تحصى» وخفوا راحلين :

أجمعوا امرهم بليل فلما اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل خلال ذاك رغاء

ولم يكن طويلاً حتى هبطوا مصاف القتال ، فاخذوا مواضعهم ودارت رحى الحرب أمداً ليس بالقصير ضاق الخناق فيه على البربر ، فانكفأوا متمزقين يتيهون بين الحزون والسهول ، وبين الاودية والهضاب ...

وبعد بضع سنين « انتظم الحسين في الجيش الذاهب شرقاً الى طبرستان »باذلا نفسه مضحياً حوباءه بسبيل كلمة الله التي عاش لها وقضى كريماً تحت ظلالها الدامية وبنودها الحمراء .

كانت الانباء عن تضحية الشباب واستبسالهم ، ترد الى المدينة طافحة اعجاباً وبشراً . وكانت حديث اليوم بين الناس في النوادي والمنازل وفي منعطفات الطرق ، حيث يحلو الوقوف عند الاصيل لفئة تجد في هذا النوع من اللهو تسلية رائعة ، وتحس بظمأ الى الصخب يمده الفضول أحياناً فتملأ جو نفسها المقفر بهذا اللون من الانغماس في الضجيج .

وفي طرف من اطراف المدينة انفرد جمع بينهم البراء بن عازب ، يتجاذبون اطراف الحديث عن ابطال الجهاد الشباب . فقال : ان الشباب معناه تفتّح براعم الصبا عن حياة الجد والواجب

وعن مسؤوليات الحياة ، وفئة الشباب هم اشعة حاضرنا في وقدة تألقها ، فاذا بدت كسيفة كليلة فقد خسرنا الحاضر والمستقبل جميعاً وكانوا اعلاناً عن اننا غير جديرين بالحياة .

فان الحياة قوى سائبة كمثل الرقارق على وجه الرمال ، ولكنها تتجمع في فترة الشباب بمثل خزان الماء ، فتتكسر عند حناياه القوى وتتولد فيها التيارات فتتدفق جياشة هادرة .

فالشباب مجموعة من تيارات قوى الحياة ، فاذا كان الخزان مليئاً بالثقوب والشقوق ، انسابت المياه في كل وجه وتبعثرت قواها وغاضت بين الوهاد والحزون مُترسّبة في مستنقعات آجنة . وحين لا يكون للشباب حصانات ومناعات يمدها شعور بالحقوق والواجبات وحس مرهف بالتبعات ، فقد عاد شباباً رخواً وافضل منه شيخوخة فانية .

وشبابنا الذين ابتعثتهم المباديء ابتعاثاً لا محيد عن ان تنطلق بهم تيارات القوى ، انطلاقاً ينتهي بالسيل الاسلامي المطهر الجارف الى غايته ، فيغمر حتى الربى لينكشف عن حياة جديدة ودنيا جديدة .

ونحن ـ الذين قمنا بواجبنا مع صاحب الرسالة وكان أدنى مابذلناه انفسنا ، وما بقاؤنا في عين اليوم الا ذكرى جهاد وتمثال كفاح ـ لا يسعنا الا ان نبارك شبابهم الغض وجهادهم المظفر . واذا كان لشيء ان يأخذ بانتباهنا طويلاً فانما هو ذلك الاقبال على التضحية بسبيل المباديء للمباديء دون ما انانية رعناء وزنانية [1] حقود ، فقد ذابت

(١) الزنانية ترادف الانانية تماماً عند العرب القدامى ، والزناني الاناني كذلك .

عظامية « ارستقراطية » من كان منهم عظياً ما في بوتقة الايمان . والرسالة الناجحة هي التي تستطيع أن تكفل تحويل العظامية من قاعدة الدماء والثراء ، الى قاعدة المباديء والتضحيات .

فهذا الحسين سبط النبي له من عظامية الدم ما ليس لاحد اليوم او قبل اليوم ، ومع ذلك فهو يمضي تحت راية الواجب كأي جندي تحدوه مثل غايته . ولا أراه الا معتقداً بان القديم ، انما يجد روحه في الجديد ليغدو كائناً حياً رائعاً ، والا فالقديم وحده ان كان يعبر عن شيء ، فانما يعبر عن مومياء مجد فقط تظل رمزاً من رموز التاريخ ... فاطرق الجمع وشملهم صمت واع ثم خفوا الى رواحلهم وهم يرددون قوله :

«والا فالقديم وحده ان كان يعبر عن شيء فانما يعبر عن مومياء مجد فقط ... »

في الثورة

●

من المدينة الى كل مكان كمصر والعراق واليمن والشام ، خيم جومكفهرّ ينذر بشيء . وكانت الوانه مختلطة مختلفة الا انها بدأت تستحيل خيطاً بعد خيط وتتكشّف عن لون احمر قان، كأنه لون الدم الحانق او لون الشفق الذي اطبق به ليل بهيم .

وكان الهمس في اي مكان يطول ولا يقصر ، ويتناوح في زفرات تبعث أسى ولكنه من نوع الاسى الغاضب الذي يزداد اشتعالاً بالذكرى والترداد . فقد استفاق الناس على وضع غير محبب بل كريه بغيض ، استفاقوا على مجتمع بدأ يتعقد وتطفو على سطحه طبقات تجر ورائها نضالا هادراً وتناحراً رهيباً ، بعد ان كانوا شعباً يقوم على قاعدة المساواة فهو مجتمع منسجم .

كثرة مُعدِمة وهي معتدّة بذاتها شاعرة بشخصيتها فخورة بما ابدت من قوة وقدمت من تضحيات، وقلة زاد بها الثراء زيادة جعلها تحرز كل قوى النشاط وتدخر كافة مقومات الحياة . ولم يكن وسطاً درج على السِخْرِيّة والعمل في الارض فيظل النضال فيه خفياً وبطيئاً في اعطاء نتائجه ، بل كان وسطا فروسياً . والفروسية اعتدادية وشعور بوجود الذات ، وزادتها الفتوح احساساً بقيمتها . فكان

ان تفاعلت تفاعلاً تنافريا مع الوضع الجديد ، وكان ان انقدحت وقذفت بالشرر الى مكان قصي .

والشعور بالذات قاعدة الامة الناهضة ، فهي لا تقبل سيادة ولا تتولد فيها الاسياد من اي نوع كان ، وتظل ابداً تواقة الى الاصلاح آخذة باسبابه متقلبة في مدى اطواره .

ركدت الفتوح فنضبت اهم موارد الدولة ، وكان العمل السياسي قد اتجه فيما سبق هذه الحقبة ، الى جعل العرب مادة حرب فقط فلم ينالوا نصيباً في الارض . ولكن الجندي لن يبقى جنديا ابداً خصوصاً والدولة العربية قد اخذت الامم بحرب اصلاحية عالمية ، فكانت حاجتها الى الجنود كبيرة غير مقتصدة فشملت العرب عامة ، وسرعان ما وفق العرب الى غايتهم ، وسرعان ما أدوا رسالتهم ، فركدت حرارة الفتح الى درجة الهمود ، وعجزت الدولة بعد ذلك عن كفايتهم . فاذا هم طبقة فقيرة غاية في الفقر والخصاصة والعدم ، واذا بجانبهم طبقة اخرى ثرية غاية في الثراء ، وهي لم تجهد اي جهد ولم تبل اي بلاء وانما امتصت وتملأت .

كبر على هؤلاء ان يستسيغوا وضعية نابية بغيضة على هذا الشكل ، لاسيما والاسلام في تشريعه جعل للمحارب نصيباً في المغانم كافة ، وبذلك مكنه من ان يتحول رجلا مدنياً دون ان يكون كلاً على الدولة والخزينة العامة . ولم يقرر الاسلام الجندية كنظام دائم لانه لا يرمي الى ان يجعل من حكومته دولة حرب ، بل سن الجندية عند الضرورة من المدنيين انفسهم ، وبهذا ضمن شيئين خطيرين :

(١) جعل مسؤولية الدفاع عامة لكي يشعر بها الشعب شعوراً

شاملا بدون تفاوت .

(٢) الحد من طغيان الجنـد وروحيتهم حتى لا يدفعوا الدولة كل حين الى مضايق حروب جديدة ، فالاسلام وضع في نظامه ما يحول بين الدولة المشتقة من طبيعته ، وبين حرب الاطماع .

وكانت الهوة تتسع بين الطبقـات اتساعاً عظيما وعلى شكل مخيف ، كما اخـذ الوضع يتطور من سيء الى أسوأ حتى استفحل شره ، وبات ينذر بخطب خطير وانكفاء انقلابي كبير الاثر . وزاد في يقظة الخطب تناحر الاحزاب الكثيرة (١) ، فهنـاك احزاب رئيسية اهمها :

حزب الامويين : واكبر رجاله المنتسبين اليه ابو سفيان وابنه معاوية ومروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة .

والحزب الشعوبي : واكبر رجاله ابو لؤلؤة وجفينـة النجراني وكعب الاحبار ، وهذا الحزب كان صنيعة للحزب الاموي ومنفذاً لاغراضه الدموية ومآربه الارهابية .

وحزب المحافظين : واكبر رجاله علي بن ابي طالب وابو ايوب الانصاري وعبد الله بن عباس وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود .

وحزب الشعب : واكبر رجاله ابو ذر الغفاري وعبد الله بن سبأ ومحمد بن ابي بكر والاشتر النخعي وعبد الله بن حذيفة ، وكان هذا الحزب يستنيم الى سياسة حزب المحافظين وطابعه انه ثوري عنيف .

وحزب اهل المدينة : واكبر رجاله سعد بن عبادة وابنه قيس .

---

(١) راجع تفصيل الكلام عليه في الجزء الثاني من سيرة الحسين السبط فصل الحزبية الذي هو أول بحث من نوعه في تاريخ الخلفاء الراشدين ص ١٥٧

والحباب بن المنذر وعبد الرحمن بن حسان ، وكان أهم أهداف هذا الحزب مناهضة الحزب الاموي وتحطيم محاولاته .

والى جانب هذه الاحزاب كانت تقوم احزاب اخرى ثانوية اهمها :

حزب طلحة والزبير : واكبر المنتسبين اليه عائشة .

وحزب ابناء عمر بن الخطاب : واكبر المنتسبين اليه ابو موسى الاشعري .

والحزب الاموي المنشق : وكبير اقطابه عمرو بن العاص .

وما أن استحوذ الحزب الأموي على شؤون السلطة العليا في عهد عثمان ، حتى الفت بعض هذه الأحزاب جبهة معارضة قوية . فقد شاء البيت الأموي أن يجعل من نفسه طبقة حاكمة ، وشاء الى ذلك أن يجعل من قريش طبقة عظامية « ارستقراطية » . وهؤلاء الأمويون لم يكتفوا بان يفرضوا أنفسهم ووجودهم الخالي من الحياة والجهد ، بل تجاوزوا هذا الى تعبئة المجتمع في طبقات لها امتيازاتها وقيمها التي تهبها حقوقاً دون ما واجبات ، وبسببها تفتات لنفسها من الاعتبارات الاجتماعية ما يخولها انتهاب كل غنم ، يغرم بسبيل حيازته سواد الجمهور .

وكلما وجدت لجماعة ما حقوق دون واجبات فقد وجد لديها شر أنواع التطفل الاجتماعي ، وحينما تنتقل هذه الاعتبارات الى القانون ينتقض الانسجام والتوازن الاجتماعيان ، وينساق المجتمع كرهاً في مآزق التناحر الذي يبدأ من أجل الذاتية وينتهي من أجل الحياة ، وهنا يأخذ شكله الدامي ومظهره الكالح الرهيب ، والى هذا يشير قول النبي (إنما أهلك من قبلكم أنه اذا أثم فيهم

الشريف تركوه ، واذا أثم فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) . فاذا بابي سفيان يقول عندما ولي الخلافة عثمانُ « يا بني أمية تداولوها بينكم تداول الكرة، فوالذي يحلف به ابو سفيان ما زلت انتظرها لكم ولتصيرن الى ابنائكم وراثة » ، واذا بسعيد بن العاص يجعل سواد العراق بستاناً لقريش، واذا بالثروات الفاحشة تصير وتجتمع في ايدي الأمويين وأنصارهم ، واذا بمروان يستبد بالمُقَدّرات العليا على هواه ، واذا باكثر الأقاليم تذهب إقطاعات بين فلان وفلان ، واذا بالقانون يعبث به فلا يطبق أحياناً وكثيراً ، بل ذهبوا به مع الهوى الى حد اشعر الناس بأنهم لم يعودوا سواء في نظرية الحق ونظرية الجزاء .. فسبق الى الأذهان أن هناك فوضى دون ما شك ، وأن هناك فساداً في أداة الحكم سَبّب هذه الفوضى دون ما ريب ، والفساد يبيح الثورة فتدافعت الجموع في تياراتها .

كان الرائد الطوّاف بين مصر والحجاز والعراق ، والذي يجوب متردداً بين هذه الأقاليم يلمس ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملؤه حنقاً وثورة . كان يرى بؤساً في غير حد وشقاء مخيفاً وفقراً مُتغَوِّلاً ، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس تتوزع هنا وهناك ، لتجتمع وتأتلف خصوصاً في بيئات الذين كانوا الى زمن قريب رمز الفخار العربي والاسلامي ، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان .

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة ، ولكنها تتحرق أيضاً وهي ترى مقدار ما تبذخ به أقلية فرضت نفسها واستحوذت على الثروة دون أي جهد وسابقة كفاح . فيعلى

ابن أمية يملك ما قيمته مائة الف دينار عدا عقاراته الكثيرة ، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة الف دينار ، وزيد ابن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس الخ ... وايضاً رأوا أن هذا البذخ المترف جر وراءه انواعاً من المجاوزات في السلوك ، الذي سن نهجه النبي وعهدهم به لم يكن بعيداً . كما كوّنت هذه الغضارة واللدانة في بيئات الأقلية المذكورة ، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوعها في المجتمع فقابلها بكثير من الاستنكار . ولكن لم تعدم مع ذلك جماعة من الأنصار ، فتولدت في الوسط دعوة الى هذا الجديد المائع المثير ، ودعاة الى التجديد الرخو .

بيد ان الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها ، وانتشرت مؤمنة بافكاره وصلاحيته كطب للبشرية اللاهثة المحتضرة ، فهم جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم . فلا بدع أن استنكرت الكثرة خطة هذا الجديد ولا بدع ان تحدوا انصاره واتهموهم بالمروق ، ولا بدع ان دخلوا معهم في صراع ، بدأ خفياً ثم امتد حمياً .

وصادف في هذه الفترة اللاهبة ، تطواف رجل نعرف ان اسمه عبدالله بن سبأ ، وكان على ما يظهر ان صح انه وجد صاحب نفس حساسة شاعرة وصاحب فكرة منظمة إصلاحية ، من ورائهما روح حرة ثائرة .. فاتصل بكل وسط إسلامي إذ ذاك واستلهم الحياة العامة ، التي انعكست بصورها والوانها في نفسه فاستعر ضميره واتقدت جوانحه فلم يكن بد من ان يلتهب ، ولم يكن مناص من ان يهتف

بالاصلاح وضرورة تغيير الوضع البائس اليائس ، وكان عنيفاً في طبيعته وزادته الحالة العامة عنفاً ، فقد تفاعلت الصفة الحيوية الشائعة في المجتمع بطبيعته تفاعلاً جعله يثور ، وجعله يبشر بمبادىء الاصلاح الثورية . ولم يكن المجتمع حينذاك في حاجة الى اكثر من التنادي به واستصراخه ، فقد كان بحالة من التوتر والتفاعل الى درجة القدح بالأوار .

وهو الى هذا قد اجتمع باقطاب الحركة الثورية في مصر والشام والعراق وتأثر بهم ، ولا سيما ابو ذر الغفاري الذي ركز [1] افكار

---

(١) يظن البسطاء من المؤرخين تبعاً لتقديرات استشراقية مرسلة إرسالا أن عبدالله بن سبأ تلك الشخصية التي هي شبه تاريخية أي خرافية من شدة غموضها الى حد يبيح لنا انكارها مرة ، أنه فتن مجتمعاً باسره وهذا منقوض على ضوء البسيكولوجية الاجتماعية ، وفتن ابا ذر الذي ساير النشوء الديني الجديد في كل أطواره . ويتبين لنا درجة ما فيها من سخف حينما نعرف أنهم بشخصية شبه تاريخية يريدون تغيير مجرى حادثة تاريخية هامة ، ولا شك أنها طريقة ميتافيزيقية يراد بها تعليل المعلوم بالمجهول ، وما يدرينا فلعل عبدالله ابن سبأ عنتر اجتماعي مثل عنتر الفروسي ؟ وانا اذا كنت أستطيع أن أقر بهذا الشيء المدعو عبدالله بن سبأ فانما استطيع الأقرار به على أنه تلميذ المدرسة الغفارية ويؤكد هذا أنه من أنصار علي بن أبي طالب في الجانب السياسي والديني من أفكاره ومعروف أن أبا ذر من أنصار علي ، فلو فرضنا أنه جاء بافكار مزدكية فلماذا لم يختر إلا مناصرة علي وكان اروج لدعوته لو ناصر ذكرى ابي بكر وعمر . والسبب في نظرنا الذي أدى الى نشوء مدرسة ابي ذر ودعوته إنما هو ذلك التورط والتهالك على مسلك الثراء المتطرف الذي أخذت باسبابه الاقلية الاموية وأعوانها وبروزها ذلك البروز الارستقراطي واستعبادها الاقطاعي ، فكان في ذلك ما أغرى ابا ذر على فهم الشريعة ذلك الفهم . راجع ج ٢ من سيرة الحسين السبط ص ١١٩ الى ١٢٢ .

عبدالله بن سبأ ، وهذا وجد فيه ينبوعاً دينياً ومعيناً خصباً يمكنه ان يستمد من اخباره عن النبي ما يجعله سنداً لافكاره ، فان ابا ذر كان يحدث من قبل ورود ابن سبأ الى الشام باحاديثه المسندة الى النبي ، وكلها تحمل عناصر الافكار التي انطلق ابن سبأ يروج لها . والذي لدينا من وثائق التاريخ يشهد بان اعلان ابي ذر عن هذه الافكار وقع قبل اول التقاءة بينهما ، كما يشهد ايضاً بأن تكوّن شخصية ابن سبأ كان بعد اول لقاء . فالتاريخ وكتب الحديث تعرف جيداً ان أبا ذر كان يحدث في الشام بمثل هذه القصة التي هي من وقائعه عَهْدَ النبي .

قال : (سابَبْت رجلًا — وهو بلال — فعيرته بأمه وكانت رقيقة .

فقال لي النبي : يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟! انك امرؤ فيك جاهلية . اخوانكم خوَلكم جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم) .

يروي أبو ذر مثل هذه الواقعة في حق الموالي الارقاء بالقانون قَصْد محاربة الوضع ، الذي شاءت به الاقلية جعل سواد المجتمع أرقاء اجتماعيين .

فالذي لا ريب فيه إذن أن ابن سبأ كان يحمل افكاراً استلهمها من حالة المجتمع القائمة ، ولكنه سقط عند أبي ذر على ما يركزها ويوضحها ، ويعطيها العنصر الديني المفقود لديه من قبل وكان سبب تخوفه من نشر افكاره الحرة وبالاحرى افكار الشريعة على طريقة

ابي ذر ، فمضى يبشر في طول البلاد وعرضها بما انه الدين ايضاً .

ورأينا كم كانت اقاليم المجتمع الاسلامي الكبيرة متوترة مستوفزة ورأينا الى اي حدّ قد أحسّ الشعب بان الاقلية الحاكمة تحيك حوله مؤامرة واسعة النطاق تبالغ حتى تتصل بحياته ، فانكفأ كل الشعب في الاقاليم يتآمر بها وينسج من حولها شباكه ، ولقد باتت الحالة العامة تجيء في كلمتين : حكومة تتآمر بالشعب وشعب يتآمر بالحكومة ، ولكن للشعب الكلمة الاخيرة والعليا دائماً .

وعبدالله بن سبأ أبان مر واين انطلق يصادف جموعاً تعتلج على جموع ، وكتل المؤامرة تنتشر في كل مكان وتتوزع لتحتشد . ولقد أحسن التعبير عن اماني الجماعات وتصوير احلامهم وامالهم ، فافتتنوا به وافتتن بهم ، ولم يكن يربط بين هذه الجموع الا رابطة الشعور بضرورة الاصلاح السريع . فقد بلغ من شدة الفساد أن كان اكثر الناس تحمساً للثورة هم اهل المدينة ، والمعروف عن هؤلاء انهم يشتملون على اكبر عدد من ارباب الحل والعقد وهم مرجع السلطة العليا . ومن شأن هؤلاء انهم يحاولون شتى المحاولات للترقيع والتوجيه ، فكان شعورهم بضرورة الثورة معناه ان الخرق قد اتسع على الراقع ، وان حالة الفوضى لا ينجع معها إلا القمع العنيف فتخلوا عن طريق الجمهور ، او قل كانوا في الطليعة .

ولكن مع ذلك فقد ظل حزب علي او حزب المحافظين يبذل جهوداً جبارة بسبيل تقريب وجهة النظر بين كتلة الشعب وكتلة الحكومة ، ويحول جهد المستطاع بين الجمهور وبين مآربه الدامية . وكثيراً ما جعل من نفسه ضمانة لهيئة الحكم . والشيء الجدير

بالتسجيل ونصاعة الذكر ، ان هـــذا الحزب بقي موالياً بعطف صادق على الحكومة الى الساعة الاخيرة التي لم يعد ممكناً فيهـــا ضبط أعصاب الجمهور الثائرة ، فطغى على الحواجز وبدأ التهديم .

ومن الانصاف والخير أن نذكر أن الجمهور مع ذلك لم يكن أرعن في ثورته ، فقد اتصل باولياء الامور والسلطة وطالب بواسطة ممثليه مراراً وتكراراً ، ولكن مطاليبه في كل مرة كانت تبـــوء بالفشل وكان فشلاً ذريعاً متواصلاً ومن النوع المثير ، فلا بدع ان هب الشعب هبته الغضبى وتركزت الثورة الانتقاميـــة في رأسه تركز الفكرة الثابتة لا يحول عنها في كثير او قليل .

هبطت وفود الامصار المدينة مرة واخرى الى مرات كثيرة ، وكانت في كل مناسبة تحمل طائفة من امانيها وهي ملأى بالرجاء تود لو صدقت أحلام آمالها ، وكانت ترجع في كل مرة بوعود معسولة ولكن لا تلبث ان تستحيل الى صدى يأس فيه غرور السراب .

ساءها في كل تجربة وكل محاولة اخفاق المنقلب ، فاغيظت كذي النفس الجريحة على من لا يفتأ ينكأ جراحـه ويجري دماءه ، ولم يسعها كظم عواطفها الملتهبة فهـــدرت صاخبة محتجـة تريد وضع حد لآلامها وبأسائها المستعرة ، فكانت تصطدم تكراراً ومراراً بما يوقظ فيها شعور الخيبة المنتقم . لذلك لم تكن الجماعات تُرى في أيّ مكان إلا ملتئمة على بعضها تتهامس في امر خطير .

وفي هذه الفترة المتلهبة كان يطوّف كما قلنا في اقطار المجتمع الاسلامي عبدالله بن سبأ ، فما حل بقعة إلا وسمع فيها تجاوب نأمة واحـــدة مستنكرة ، فاشتمل على حفيظة متحرقـة تتأكل في حناياه غيظاً

وتحرق الارّم . وما هو إلا أن هبط الشام فاتصلت أسبـــابه باسباب أبي ذر ، فقد سمعه ينتقد ولا يبالي على أي وجه فُسر عليه انتقاده ، ويتحدى المجتمع [1] والدولة وكل أسرة الحكم تحـــدياً جارحاً بمنطق الدستور الاسلامي العام الذي هو القرآن والسنة ومناهج السلوك التقليدية ، ويأخـــذ على الانطلاقيين المتجاوزين مذاهب سلوكهم .

رأى ولمس مقدار تهاوي الناس في الترف بالعـدوى وتهافتهم على الرفاه من اي طريق ، وتستتبع خطـــة هذا السلوك إباحية ولامبالاة ، فجعل من نفسه واتباعه حاجزاً يقاوم التيار . فوقف في كل مكان يبشر بمبادئه وبعبارة أصح يقرع سمع الناس بما قـــد عهد عليه النبي وبما قد سمعه منه ووعاه بين يديه ، ولكن بعضاً من الناس كانوا قد استناموا الى هذا الجديد وتذوقوه ولذتهم اشياؤه ، فأبوا عليه وأبى عليهم فانطلق لا يبالي غضباً ولا رضى .

وكان ابوذر يرى ان فكرة الحياة الانسانية هي الفضيلة والانسان هو الفاضل فقط . اذن فعلى الناس أن يجلوا أشياء الفضيلة بينهم ، وأن يوفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سننها وأساليبها . واما أولئك الذين يجمعون أكبر جهدهم وهمهم على التزيد من مخـارف الحياة الناعمة واسباب العيش الرفيه ، فانهم لا يفضلون في اعتباره عن سائمات وجدت سبيل حظوظها . والانسان عنده اذا جمع همه

---

(١) تفصيل رأينا في مدرسة ابي ذر وتفصيل آرائه في الحياة وغايتها وفي المجتمع ونظامه وفي الحرية الادبية وعلاقة الحي بالله تجده في كتابنا « مدرسة ابي ذر والثورة الكبرى في الاسلام » .

هذا الجمع فانه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحيل بما فيه من الفكر ، واما الانسانية فانها عنصر غريب عنه . ولكي يكون إنساناً ويظل كذلك لا بد له من حياة أخرى مادتها الفضيلة ، والفضيلة في نظره هي التجرد والعمل .

هو يريدنا ان نعمل ونكافح ما استطعنا الى ذلك ، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننغمس في مدى الفتوة ، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات ، واستعلاء بما فينا من روح لاتفتأ تنشد السمو .

وليس أضر على الكائن الانساني من أن يسير بالحياة فقط ، إذ بهذا يشبه سير الرحى تتحرك وهي قابعة بمحلها . وفرق ما بين الانسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة والاول يسير بالحياة ويستعلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها . وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة ، والفضيلة التي هي التجرد ضرورية للانسانية ، فلكي نكون احياء إنسانيين يجب ان نعمل ويجب ان نتجرد ، واما اذا عملنا فقط فقد نحرنا عنصر الانسانية فينا وأسفلنا ، كما تتعقد الحياة حين نضعها في معترك أطماعنا وشباك شهواتنا . فكان يوصي ويلح أن نعمل وأن نتجرد أي نعمل ولا ندخر ، فحض بأقسى أسلوب وأعنفه على عدم الكنز ولوّح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم

تكنزون) .

وهو يرى أيضاً أن الدولة كالفرد سواء بسواء ، فاذا كنزت ولم تتجرد انحطت وتولدت لديها الاطماع ، فتحدى الدولة كما تحدى الافراد وحارب الكنز الاجتماعي كما حارب الكنز الفردي . وشنها شعواء على دنيا القصور وحياة الترف ، فقد نظر اليها نظره الى مأتم للمثالية العليا والأحلام السامية ، فموكب الانسانية لا بد أن يتوقف ويتوحّل ، وينقلب موكب رُجُم اذا شئنا الولوج به في دنيا الشهوات .

ومن ناحية أخرى أحس بآلام البؤس في الناس ، وأحس بان الدولة تتوسل بالتسميات القانونية الى انتهاب المسميات الحقوقية من أربابها والاستحواذ على الثروة الاجتماعية وتبديدها دون مستحقيها ، فقدر واستنتج أن الحكومة المنتخبة هي ذات الحق الاول في التصرف بالاموال الشائعة . إذن فتسميتها مال الخزينة بمال الله التي يراد منها الشيوع ، وسيلة للتلاعب والاستحواذ ، فحمل حملة نكراء على هذه التسمية المغلوطة ونادى بأنها مال المسلمين ، هذه التسمية التي تؤدي في تسلسلها المنطقي الحقوقي الى منع حرية التصرف ، والى وجوب توزيعها عليهم وتعلق حقوقهم بها .

وبلغ من شدة وطأة هذه الدعوة أن جعل الأنانيون الطامعون يفرون من طريقه كلما رأوه ، وزاد في تأثير دعوته وانتشارها أنه كان يشفع أقواله هذه باحاديث مأثورة سمعها من النبي . فوجد عبدالله بن سبأ في هذه الافكار التي يسمعها من أبي ذر ما هو العلاج الناجع لروح المجتمع البائسة ووجد فيها أيضاً محض أفكاره ،

وفوق ذلك وجد فيها ما تتوق اليه رغبة المطالبين بالاصلاح الحائرين، فانطلق على سنة أبي ذر يبشر ولا يحفل .

توقف في الكوفة وهو يذرع الأقطار ، فرأى فيها حركة أقوى من سائر الحركات الأخرى في المـــدن والعواصم ، فانخرط فيها ونظمها ، وهناك وضعت (عريضة الحق) او « مطالب الاصلاح » فلم تقابل من الهيئة الحـاكمة بالحسنى بل بالاعراض ، فتألبوا وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً ، وما ان بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا الى معاوية (بالقبض عليهم) في حمص ، وبعد لأي أفرج عنهم فعادوا الى المطالبة مرة أخرى ، بيـد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها ومهما احتبكت ألوانها الكالحة . وكانت عريضة الحق تشتمل على :

ا ـ ابعاد البطانة المشرفة عـــلى تسيير الأمور حالياً ولا سيما مروان بن الحكم .

ب ـ الرجوع الى سياسة الاموال التي درج عليهـا النبي دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال .

ج - ضرب اليد على طماعية قريش .

د ـ الحد من صلاحية الولاة والامراء فيقيد تصرفهم بالخراج والاموال العامة .

هـ ـ الحيلولة دون الأمراء واستذلال الأهلين .

وفدت الوفود تحت ستار الحج وهي تخفي أغراضها الداميـــة الثورية ، وشاع الهمس في المدينة وانطلقت عبارات الانتقاد تؤجج كالنار في الهشيم ، وقد اتصلت بعلي أخبـارهم فتخوف مغبة الأمر

وبادر الى الاجتماع بعثمان فقال له :

«الناس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه .

انك لتعلم ما نعلم ، مـــا سبقناك الى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكه ، ومـا خصصنا بأمر دونك . وقـــد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ونلت صهره ، وما ابن قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب باولى بشيء من الخير منك..

ثم يقول :

فالله الله في نفسك. فانك والله ما تُبَصَّر من عمى ، وتعلّم من جهل ، وان الطريق لواضح بيّن.. فاذا اعتذر عثمان اليه بانه يقتفي أثر عمر أجابه علي :

سأخبرك ان عمر بن الخطاب كان كل من ولي فانمـــا يطأ على صماخه ، ان بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ بـه اقصى الغاية . وانت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك .. فاذا ذكر له عثمان ان معاوية كان ممن ولاه عمر مدة خلافتـــه كلها وانه يقتدي كذلك بعمر في توليته ، أبان له علي الفرق بين العملين فقال :

أنشدك الله ! هل تعـــلم ان معاوية كان اخوف من عمر ، من «يرفأ[1]» غلام عمر ؟.. قال : نعم . قال علي : ان معاوية يقتطع الامور دونك وانت تعلمها ، فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية » .

---

(١) يرفأ اسم غلام عمر وكان اذا رآه يرعـــد منه رعباً فضرب المثل به في الرعب .

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي ، ويضرب له المثل بشدته عليه فيقول :

« هكذا يستقبلك وانت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته ، فما ظنك بما غاب عنك منه ؟. » وكذلك يقول سعيد بن العاص وسائر بطانته (حتى اجمع ألا يقوم دونه) . وعلي حيال تردد عثمان لم يسعه إلا أن يقول :

(ما يريد عثمان ان ينصحه أحد ، اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا وقد تسبب بطائفة من الارض ، يأكل خراجها ويستذل اهلها) .

وكان عمرو بن العاص في هذه الاثناء يحرض الناس على عثمان ويجبه سياسته علانية ويتجسس عليه ويفضح الاحاديث التي تجري داخل داره ، ولا يلقى احداً إلا أدخل في روعه كراهيته ويستغل المناسبات والظروف حتى قال يصف نفسه :

« أنا ابو عبد الله اذا حككت قرحة نكأتها ، إن كنت لألقى الراعي فاحرضه على عثمان » .. وهذا عثمان يستشيره في جماعة من صحبه فيقول له عمرو :

« أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون ، فاعتزم أن تعتدل ، فان أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزماً وامض فيه قدماً » .. ويقابله حينما خطب عثمان على ملأ من الصاخبين المتمردين بقوله :

« يا امير المؤمنين : إنك قد ركبت نهابير وركبناها معك ، فتب نتب » .. وهذه عائشة تجترىء وهو يخطب فتقول وقد

نشرت قميص النبي :

« هذا قميص النبي لم يبل ، وقد أبليت سنته » .. وهذان طلحة والزبير يعينان الثائرين بالمال .

والجموع المتألبة الوافدة من كل مكان ، حيال ما ترى وحيال ما تحس به من آلام في قرارتها ، تفتحت ثائرتها ومضت في اندفاعها متنمرة غاضبة . فبذل علي كل جهد لتخفيف ثائرتهم وتبريد غلوائهم ، وحمل عثمان على إعطائهم مهلة ثلاثة ايام . فلما انتهت اجتمعوا على بابه (مثل الجبال) على حد تعبير المؤرخين ، قال عثمان لمروان « أخرج وكلمهم فاني استحي ان أكلمهم » فخرج مروان الى الباب (والناس يركب بعضهم بعضاً) فقال :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنما جئتم لنهب ؟. شاهت الوجوه ، كل انسان آخذ باذن صاحبه ؟. جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ . أخرجوا عنا . اما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا الى منازلكم والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا) »

كانت هذه الخطبة المملوءة حمقاً ورعونة ، شرارة شديدة الاثر في إذكاء الثورة وتقريب خطواتها . ومروان لم يفلح فيها باثارة الناس فقط ، بل أفلح ايضاً باثارة علي نفسه الذي ضمن للجمهور تسوية الامور على ما يرغب ، وقد أسقط في يده حقاً وما وسعه تحت عاصفة نفسه وعاصفة الجمهور الماثج الا أن يقول مقالته المشهورة :

« ما رضيت من مروان ولا رضي منك ، إلا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به . والله

ما مروان بذي رأي في دينـــه ولا في نفسه . وايم الله اني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك ، وما انا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، آذهبت شرفك وغلبت على أمرك » .

ودخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفرافصة فقالت :

« أتكلم او أسكت » .. فقال : تكلمي . فقالت :

« قد سمعت قول علي لك وانه ليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء » .. قال : فما أصنع ؟.. قالت :

« تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك من قبلك ، فانك متى أطعت مروان قتلك . ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة ، وانما تركك الناس لمكان مروان منك ، فأرسل الى علي فاستصلحه فان له منك قرابة وهو لا يعصى » .. فأرسل عثمان الى عـلي فأبى أن يأتيه وقال : « قد أعلمته انني لست بعائد » ..

كبر على علي مثل ذلك المنطق الذي فاجأ به الجموع ، مروان بلسان الخليفة ، وهو يعلم انه لم يكن بينهم في هذه المرحلة العصيبة وبين التلظي والتهام الوضع القائم ، الا كلمة رعنـاء كالتي فاه بها مروان . على انها هدمت قيمة وساطته وألقت في روع الناس ارتياباً حقيقياً حاداً في جدوى مداخلته ، لهذا — وهو في مقياس كل عصر مبرر — تنحى واعتزل واعتصم في حدود هذا التنحي والاعتزال . ولكن علياً مع كل ما هو عاتب وواجد ، لم يزل يقدر ويذهب في مدى تقديره بعيداً فينتهي الى الكارثة ويتراءى له شبحها ، فيرهب هولها ويخشى وقوعهـا . إذن يجب أن لا يظل بعيداً وإن توارى من الميدان إزاء موقف بطانة عثمان من الجمهور هذا الموقف النابي

المثير ، فبادر الى تقديم ولديه – لاعتباراتهما التقديرية – ومواليه ، كي ينهنهوا عوادي الأحداث وطائشات الخطوب . وحين بلغه (أن الناس حصروا داره ومنعوه الماء بعث اليه بثلاث قرب ، وقال للحسن والحسين : إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على بابه ولا تدعا أحداً يصل اليه بمكروه ، وكان أن خضّب الحسن بالدماء وشج قنبر مولاه) .

وبات علي مطمئناً فقد رتب الأمور جيداً ، وهو واثق من أن مجرى الحادث سيسير على هذا الشكل : يضطر عثمان تحت ضغط الجمهور الى إجابة مطالب الاصلاح وتنحية بطانته ولا سيما مروان ، ولوجود ابنيه ومواليه اطمأن من عدم دنو الخطب منه . فان وجودهم يعبر عن معارضة عملية أكيدة من جانبه ، فلا يتصل به مكروه دام يضع حداً لحياته ، وإنما كل ما في الأمر أنه سيضع حداً لأساليب الحكم الاستبدادية ومهازله العابثة . وما كان يدري أن المغرضين ذوي المآرب كانوا قد اندسوا في الجمهور ، الذي غدا جد حساس وجد متأثر ، فتدفق السيل جارفاً و(جرى الوادي فطمّ على القَرِيّ) .

هذا ما عرف التاريخ عن علي وبنيه إزاء المصرع ، بينما عرف من ناحية ثانية أن عثمان وهو محاصر كتب الى معاوية وهو بالشام : (إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول) فاذا بمعاوية حينما جاءه كتابه (يتربص به فقد كره – على حد دعواه – مخالفة أصحاب الرسول وقد علم اجتماعهم على ذلك) .

ومن تهكمات القدر أن يحرض عمرو بن العاص على قتل عثمان، وتجبهه عائشة علانية ، ويتخلى معاوية عن نجدته ، ويعين عليه طلحة والزبير كلاهما . ثم ينفر هؤلاء أنفسهم هنا وهناك ، يطالبون بدمه علي بن ابي طالب الذي أخلص له النصيحة وحذره من هذا المصير ، وكان مجنّه دون رواكض الخطوب .

*

بين حق وباطل ومُستصرخ وناكل ، تراقص المحيط مضطرباً متزنّحاً كبحر استقبل بين حناياه العاصفة ...

فماد بها ومادتْ به زمناً ، وانطلق يقذف بالزبد يعبر عن أنه حانق ، ويرمي بالموج متطاولاً كأنه يتهدد ...

فقد عبثت العاصفة بابدية السكون الجاثمة عليه ، وهدوء اللانهاية ، الغامضة الحائمة فيه...

*

شعر البحر [1] بان الصخور [2] الشامخة في أرجائه ليست من طبيعته ...

فاستدار عليها يزمجر ثائراً هادراً ، فقد أيقن أنها مكمن العاصفة فهو ينوء باقتلاعها ...

وحين طاولته طما عليها وتجاهل وجودها ...

---

(١) كناية عن الشعب الذي هو في الواقع بحر حيوي يفيض بالقوى، وتاريخه سيل من الهدوء والعواصف والتيارات والتناحرات بين أحيائه .

(٢) كناية عن الارستقراطية وما حل محلها في المجتمع الحديث، وفي الواقع ن لهذه الارستقراطية طبيعة الصخر من كبرياء قاسية وحس بليد .

وهو وإن لم يقتلعها ، فقد ردها الى حيث لا يكون لها حساب في كبرياء الوجود ...

*

إن كبرياء الواحد تجاهل لوجود الآخرين ...

ولكن وجودهم في حس الواقـــع ، أكبر من وجوده في حس الخيال ...

فان وجوده قبضة من الظلام ، ووجودهم قبضة من الشعاع ...

وما تقابلا إلا ذاب الأول في الثاني دون ما أثر يقفو ...

*

إن الكبرياء صفة ذاتية للكثرة ، وهي تشير الى العدد ...

واذا نجح الفرد في ابتلاع الكل أحياناً ، فانه متعرض لخطر التّمَزّع دائماً .

فالكل قنبلة قد تبرر حيناً ، ولكنّ فيها إمكانية التفجر أبداً ..

*

في طبيعة البحر رشاقة الحركة ، وفي طبيعة الصخر سكون بليد وأيضاً قاس متجَهّم ....

وبينهما وقف إنسان [1] فيه وعيُ السكون وقصدُ الحركة ، يصل أسباب أحدهما باسباب الآخر ...

وكانت كبرياء الصخر عمياء فلم تقنع بغير وجودها ، فانطلقت أعاصير البحر تزأر في مثل الفحيح .

ووقف هـــذا الانسان عند الشاطيء ينظر متفَجّعاً ، فاذا

(١) كناية عن كل مصلح إنساني يعمل في وعي المباديء كعلي .

الوجود المخدوع – الذي اضحى غوراً – ترقص فوقه موجة مارحة ...
في نغمة تخبر : أنه كان هنا شيء فيما زعموا ...

*

مضى ذلك الانسان وقد أبصر وسمع ، مطرقاً مردداً : بهذا نطق الحق في صدى الموج ...

وروى هذا الانسان لولده [1] أمثولة البحر ، فلبث متأملاً يعبر عن أنه وَعي ...

ولم يكن طويلاً ، حتى كان بنفسه رجفة رعشات وخلجات ، ورجعة أصداء الموج ...

وشرع الناس يروون بعد ذلك ، أمثولة ابن الانسان ...

---

(١) كناية عن أسمى أبناء الوعي الجديد كالحسين .

obeikandl.com

في الزوبعـــة

●

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الاشلاء بالدماء، انكشف الفصل الاخير من فصول الثورة التي كانت تمثل على ارض المدينـــة وفي بطحائها الفسيحة المدى البعيدة الآفاق . والتي كانت تتجـــاوب باصدائها الهادرة هنا وهناك ، قريبة بعيدة . فتتفاعل مع الاحيـاء تفاعلاً ملوّن الرعشات ، فمن بيضاء ناصعـــة كالزبد ، ومن سوداء فاحمة كالقار ، ومن حمراء قانية كالغنم ، واعصاب الجماعات تتمدّد وتتقلص وتعلو وتهبط ، فجذلان هناك وغضبان هنا ، وبين هـذا وذاك تنبعث نأمات محترقة أو زفرات مختنقة أو بقايا هتافـــات مغتبط طروب .

وهم وإن لم يجمعهم الاسى ، فقد تنفس سائرهم الصعداء . ولكن لم تلبث ان دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة ، فقـــد افتُلِتَ قيادها وهبت طائشة على قطبها ، شاردة في لولبها .

كان الجمهور قد التهب بروحية الدماء وشرّتها فغدا دمويـــاً شرساً ، يصر على اسنانه في شكل كريه كأنه يتأكّلها او كأنما يتأكل الاشباح والطيوف التي استوت في مكان الحس من نقمته ، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن يبحث في مكامن الفضاء عمن

أثار عليه حفيظته ، والحفائظ قاسية نهمة اذا انطلقت في مدى الشعور المتضرّي . واعصاب الحي حينما تضرّى وتهيجها النقمة المحترقة لا تذهب في انتقامها الى الايقاع الساحق بمن اسعرها فقط، بل تروح ماضية وراء ذلك بعيداً . فهي لم ترو حرقة الظمأ الفائر ، فتطلب سحق أخيلتها وتصارع الخيال البغيض الذي تمدد عليها في ثورة الدماء . ومثل هذا الجمهور لا يرعى للموت قداسة وحرمة ، وكذلك كان فقد حال بين جسد الخليفة المفؤود وبين الدفن ، إنه حانق لا يطيق أن يرى شيئاً يجدد له الذكرى أشد هولاً .

انطلق الناس في مذهب أعصابهم المتأزمة المتعقدة دون هوادة أو لين ، يدكون معالم الماضي القريب كيف حلا لهم ويصخبون كيفما شاءت أهواؤهم. وفي هذا التجمهر الكبير قام الاشتر منتصباً فوق الجموع ملوحاً بسيفه ، هادراً بمنطقه الناري المتقد ، الذي كان يخرج ممتداً كألسنة اللهب قائلا :

ألا سحقاً لبطانة الخليفة الاشرار ؛

وويل للظالمين من أتون الشعب الفوّار ؛

فيد الله من وراء الغيب تعتصر المستبدين الفجّار ؛

ولا بدّ للظلم من أن يلتهمه في ضمير الكون أفعوان جبار ؛

ورحم الله الخليفة الرفيق الذي انقلب لينه معهم الى انقياد وصغار ؛

وحيا الله غضبة الاحرار ؛

وكبرياء بطشة الشعب اذا ثار ؛

التي انتصفت للمظلومين الأبرار ؛
فهؤلاء الى الجنة وأولئك اعداء الشعب الى النار ؛
وحذار أن تتركوا للعادين فرصة الفرار والنفار ؛
فهلموا كالسيل اندفاعاً الى بطل الأحداث الكبار ؛
فقد أعطيت القوس باريها وتم الانتصاف والانتصار ؛
واطمأن مشردو الطغيان في القفار ،
وانتحر العدوان وانصاره أي انتحار ؛
واعتلى الحق على الباطل وذابت حلكة الليل في رائعة النهار .

فانطلق الناس يموج بعضهم في بعض ، وتدافعوا في كل طريق كالقُلَل الساقطة المتدحرجة الى دار علي ينادون به خليفة وزعيماً .

كان في مسجد المدينة جماعة يتجاذبون أطراف الحديث ، في شيء من التنافر في الرأي والنظر الى الحدث الدامي الذي تم على أيدي الثائرين .

قال حسان بن ثابت : لقد عدا الثائرون أقدارهم وايم الله ، واستطالوا على مقام الخلافة ، ولم يرعوا حصانة العهدة التي تمت بالانتخاب ولكن :

من سره الموت صِرفاً لا مزاج له
فليأت مأسدة في دار عفانا
لتسمعن وشيكاً في ديارهم الله أكبر يا ثارات عثمانا

قال المغيرة بن شعبة : ماذا تقول ؟! عدوا اقدارهم فقط ! بل هم أئمة سفاكون . ونحن لم يفتنا من إثمهم ، بل نصيب كبير مما اقترفوا .

كانت جناية ما أهولها ! . إني لأنظر الى إيدينا نحن ، نعم ، نحن ، فلا أراها إلا ملطخة بالدم الزكي البريء . لقـــد شاركنا هؤلاء المجرمين الى حد كبير ، بل كنا أكثر من ذلـــك ، كنا مطايا الجريمـــة .

لعلكم لا تدرون أن في الحادث يداً مجهولة حاكت هـــذه المؤامرة الطاغية من أطرافها وأحكمت أسبابها ، نعم استطيع أن أتهم وأعلن بملء فمي :أن وراء الأكمة ما وراءها.. وابتسم ابتسامة صفراء كالفحيح في شفاه ملتوية مقلوبة صحبهـا تكسر في الجفون كأنه يشير .. ولكنها أكمة شفافة ترى من خلالها الأشباح .

تنمّر جهجاه الغفاري ورد عليه : بل باء أصحابك بشر أعمالهم ، وإن من بقي منهم لينتظره يوم اكـثر سوءاً . ولو كانت الأمور اليّ لمـا ترددت في أن أبطش بك أول ما أبطش ، فأنت هو رأس الأفعى ، وبنفسي أن اروي بك أعصابي الظامئة .

فيك وفي أصحابك قال عمر بن الخطاب : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، ألم يقلها لعمرو بن العاص وابنه يوم ساما المصري البريء واضطهداه استعـلاء في الأرض وعتواً . قال هذا فيكم ولم تتربعوا على دست الحـكم ولمـــا تصر مقاليد الامور وأسباب السلطان الى أيديكم ، فكيف وقد تسوّدتم ؟ . أردتموها فرعونية وربوبية ، وركبتم الناس بالبغي مطايا شهوات .. وثارت به حفيظته فانقلبت سحنته وتجهم على شكل منكر ، وبدرت منه حركة تنذر بشر ، لولا ان خف عمار بن ياسر فحال دونه وتناول الحديث :

ه كما تقول — يا مغيرة — إن وراء الأكمة ما وراءها، ولكن كم يُسقط في يدك اذا لم يكن وراء الأكمة إلا بطانة الخليفة الراحل نفسها ، ثم لم تنكشف عن احدسواهم. فأنا أرى كما ترى وأقدر مثلما تقدر ، بيد أني كلما حدقت بين الخلال وأطلت التحديق وأنعمت النظر ، فلست ارى وراء الأكمة إلا من ذكرت لك ثم لا ارى إلا إياك وأصحابك .

نعم في مصرع الخليفة الفظيع مؤامرة أنتم نظمتموها بأنفسكم ، وقد يقع غريباً عليك أن يتآمر المرء بنفسه ، وقد تسخر في سرك من قولي ، ولكن المتهور الطائش طالما نال نفسه بحسامه . كذلك الصائد الذي حمل فيخاخه وانطلق يريد الظباء ، فقال لنفسه لو حملتها مفتوحة مهيأة لكنت أسرع الى نيل الغاية وأرجى في الفائدة ، ففعل وسار .. ولم يمض بعيداً حتى أطبق به فخ مع حركات المسير ، فسقط يفحص في الأرض وقد قنص نفسه في شهوة الظباء .

إنك أدرى من غيرك بما كان من سياسة بطانة الخليفة القائمة على العسف ، حتى لكأنها تمشي على الجماجم وتنعم على اشلاء الاحياء. لقد ضنوا عليهم حتى بما يسد رمقهم ويبل حلوقهم ، وبخلوا عليهم بأقل من القليل وساموهم إذلالاً وأوردوهم مورد التهلكة .

قنعت تلك البطانة بسكنى القصور المبثوثة بالرياش ، وأصموا آذانهم عن الأنين الصارخ المنبعث من كل مكان ، وأوهموا الخليفة الرقيق الحاسة بأن الشعب في أسعد ما يكون حياة ، وضربوا بينه وبين الناس بأسوار وحجب ومنعوه عن الشعب ومنعوا الشعب عنه ، وسموا رأيه في الناصحين المخلصين وجعلوا من أنفسهم أوصياء على

الخليفة الذي شاؤوا الحجر عليه . وغفلوا عن أن القصور التي اعتصموا بها قامت على اجساد حية تتحسس بالآلام ، وكان في انتفاضة من انتفاضاتها ما أحال دنيا تلك القصور اطلالاً وخرائب.

إن هؤلاء الثائرين لم تحدُهم فكرة الجريمة ولا شهوتها ، وانما حداهم تنفس الحرية المضغوطة بين ضلوعهم . كما راموا باخلاص إنقاذ الخليفة من بطانته ، ورفع وصايتها القسرية عنه . وان كان خليقاً بهذه الوصاية حقاً ، وبمثل هؤلاء الاوصياء فما هو والخلافة إذن ؟

ولكن طاش بالثائرين السهم فاصاب من لم يكن هدفاً . بيد انه يعزي ان البطانة اصيبت في مقتلها بمصابه ، فمصابه وان يكن خطأ في حساب الشعور ، فان سقوط تيك البطانة كلُ العدل في حساب الفكر ، والجمهور الشاعر لا يحدد التبعة بمنطق القانون بل بمنطق الألم ، فليس بدعاً اذا تجاوز واستفحل . ولو تناولنا الموقف حتى بمنطق القانون فان دعوى التغرير به لا تنقذه من الجزاء ، ولقد ألف الشعب محكمته فله الكلمة الاولى والاخيرة ، ولقد قالها بكل وضوح .

واذا كان حقاً ما تقول من ان الثائرين عصبة مجرمة ، فان تيك البطانة أهول جريمة حين دخلوا بها الى كل بيت . ولست بهذا اريد «تبرير» المصاب ، ولكنني أقصد الى هدم فكرة الجريمة عليك التي تعلنها ولعلك تعي .

فقال جهجاه الغفاري : تقول لعله يعي ؟ أأنت غريب عن شباكه واحابيله . انه يريد بقصد تسميم رأي الناس وبلبلتهم ، ولا

يلبث هو ومن فاتنا من بطانة الخليفة، حتى يلوحوا بين الناس بالعثمانية ويجعلوا من عثمان موضوعاً ثأرياً قصد القـــاء الشعب في الفوضى وانكفائه كتلاً على نفسه ، وما اسرع تردد الجموع فهي لا تحاكم ولكنها تشعر بمبالغات .

فهذا — وأشار الى المغيرة — يعتمد على روحية الجمهور ، قصد المحاربة بالعنصر النفسي القلق لايجاد حالة فوضى شامـلة ، وهو لا يأبه بسبيل ما يريد ان تندك معـــالم مجتمعنا العظيم . لنفرض ان عثمان صُرع بقصد ان يصرع فقد صرع عمر من قبله ، وما تهمنـــا فروق الملابسات التي تجد قيمتها في الاعتبار الفردي دون الاعتبار الاجتماعي ، فهما كحادثين سواء بسواء . فلماذا يحرص بالاتهـــام ويستثير بالتفجع والتوجع ، إن لم يكن يقصد شراً ؟

قال عمـــار بن ياسر : نعم اجدى علينا وأولى بنا ان نعتبر بالحادث ولو لم يخل من خطأ ، فنداوي الوضع ونجتهد جيداً بحسن التأتي ، كي نحول بين الشعب بمنع الاسباب وبين العودة الى ارتكاب خطأ جديد من شاكلته . فقـــد مات الميت وبقي الحي مضطرباً فلنعرف كيف ندخل الاطمئنان الى نفسه ، وبذلك نكون قـد اصلحنا الخطأ وربحنا المصيبة . وأما ترويع الجمهـور بتهمة الاجرام والدم ، فانه تكبير لدائرة الخطـأ وتوسيع لحواشي الدماء ، وما أرى هذا إلا دعوة جاهلية تقوم على الانتقام في غرضها القريب ، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد ... وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى الى هـذه النقطة فقد مضى يردد قول الشاعر :

قومي هموا قتلوا أميم أخي فاذا رميت يصيبني سهمي

أصبح علي الخليفة واجتمعت في يديه مقاليد الامور ، فثاب الى المجتمع هدؤه مشفوعاً بالامل وارتقاب فجر جديد.

وبدأ علي أول ما بدأ باعطاء الحق الى الشعب ، فقد وجد ان مشاكلهم المعلقة اضحت مزمنة لم يُبتّ فيها بشيء ، فعطف على آلام هذا الجمهور وواساه بنفسه وقلبه ما وجد الى ذلك سبيلاً .

وذهب مع تقديره بان المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير مكتوب ، يظل عرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها ان تضيره ، اذا لم يقصد اولاً وقبل كل شيء الى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم الى الكفاءة ، الاخلاصَ والضمير . بل من رأي علي ان الاصلاح حتى في المجتمعات التي يستوي النظام فيها على برامج مكتوبة ، لا يتم على وجه مضمون الا بالشخصية المنتقاة . ولمس الى ذلك ان اكبر عناصر الشكوى وأهم اجزائها هو الجزء الخاص بالامراء والولاة ، فبادر قدماً الى تغيير التعيينات .

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الامصار الكبرى ، فلما أظهرا على ان التعيينات الجديدة لم يصبهما منها نصيب ، امتعضا نوع امتعاض ولمسا في الظرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً ما يمكنهما من القيام بحملة ضغط على الخليفة الجديد ، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب باقامة الحد الشرعي على الذين باشروا الاغتيالات بالنفس .

وعلي لم يؤخرهما من حيث انهما ليسا بالجديرين فهما من ذوي السابقة ومن اقدر العناصر ، بل لان الظرف لم يزل يعج بالحزبية

ولم يزل متشبعاً بروحها . فاذا بعث بهما الى الاقاليم التي تناصرهما كالكوفة بالنظر الى الزبير والبصرة بالنظر الى طلحة ، فقد سهل لهما حرية التصرف والانفراد بالرأي لمكان الثقة الحزبية . وحرية التصرف هي التي بات يشكو الناس منها كما كان الحال بمعاوية في الشام على عهد عثمان ، على أن الامير يصبح بهذه الحزبية المناصرة قليل الاهتمام بأوامر السلطة العليا ، بما تتخذ به الأقاليم في كل مكان شكل اقطاعيات لا تتصل بالمرجع الأعلى الايجابي المسؤول إلا اتصالاً اسمياً .. واذا تأزّمت العلاقة بين الرئاسة العليا والامير ، استطاع الانفراد باقليمه وقطع العلاقة التي لم تكن تعبر عن اتصال إيجابي . وهذا خطر يهدد الدولة وداء وبيل في جسم الحكم ، خصوصاً اذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتفاق المصالح الموجبة ، فانه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي . كما تظل هذه الصلة الاسمية للاقليم الاقطاعي ينبوع ضرر للرئيس الاعلى ، وذلك حين لا يخفل الأمير بالأوامر التي تصدر له ولا يرهب مرجعه فيعبث كيف شاء ، ويكون المسؤول عن تصرفه هو الرئيس الاعلى في نظر الشعب فيُتّهم بالتواطؤ معه او بالتغافل عنه ، رغم أنه في الواقع لا يستطيع أن يحيك معه حيكا ، مثلما كان الحال في زمن عثمان فقد أصبح اتصال الاقاليم بمركز الخلافة اسمياً ، والامير الاقطاعي يتصرف كيف حلا له لا ينتظر امراً ولا يخضع لأمر . وإنما يستخدم ذلك الطابع « الاكليشه » (هذا أمر الخليفة) ستاراً فقط كما كان يفعل معاوية في الشام ، فاتّهم الخليفة واستُحمِق ونشبت الفوضى .

وإذا بعث بهما عليٌ الى الاقاليم الاخرى وليس لهما فيها أنصار وأشياع بل على العكس أعداء حزبيون ، فقد أعاد الوضع الى القلق ودفع الجمهور الى التمرد بالشكوى المصطنعة . فعمد إلى مداواة الحالة العامة وخنق الحزبية وعنعناتها وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً .. فبين يديه مجتمع مريض وهو يتطلب شخصيات جديدة لم تنخرط في الحقل العام والحياة السياسية الصاخبة المتناحرة ، حتى إذا تمّ له ما يريد عاد ففكر فيهما وفي سواهما . ولكنهما فسرا إغفالهما بالعداء ، فانصرفا الى ايجاد الوسائل القمينة بالضغط فوجهها وجههما شطر مكة . وبينا هما في بعض الطريق لقيا عائشة وهي قافلة من مكة ، فرويا لها ما كان من أمر الثائرين وعثمان ، وما كان من أمرهم وعلي ، وكاشفاها بما عزما عليه . وصادف هذا رغبة خفية في ضميرها وهوى كامناً ، كما استطاع الزبير بما له من دالة عليها وهو زوج أختها أسماء ، ووالد من استخلصته لنفسها من أبنائه ، حتى اختارت لكنيتها اسمه وذلك هو عبدالله ابنه . فحملاها على الرجوع وسهلا لها الخوض في معمعة سياسية طاحنة ، اتصلت حتى انقلبت دموية حادة .

ولما هبطوا مكة وجدوا فيها فلول الامويين ، ففكروا جميعاً باستغلال الموقف وترتيبه على هذا الشكل :

يعصي بالشام معاوية وهم يعصون بالعراق حتى إذا استقام لهم الامر واستقروا ، حاصروا الحجاز وانتزعوا مقدرات السلطة العليا وأرغموا الخليفة على التسليم بمطالبهم .

اتصل بعلي كل ما دار بخلدهم وما عزموا عليه ، واتصل به فوق

ذلك أن الخطب سيعدو دائرته الضيقة ، لنزول عائشة إلى الميدان بما تبعثه من خامدات النفوس وفي المحيط العربي خصوصاً . أليست إمرأة وإمرأة لها قيمتها ومنزلتها الروحية الفريدة ؟ فهي زوج النبي وابنة الخليفة الاول ومرجع علمي فقهي. ومن ناحية ثانية أليس الموضوع نفسه حساساً مثيراً ؟ أليس كل الثائرين الذين تم الحادث على أيديهم في صفوف علي ؟ أليست نفسية الجموع شديدة الحساسية بفظاعة الدم المطلول وضعيفة المحاكمة والموازنة ؟ أليس الظرف متبلبلاً يميد بالفوضى ؟ إذن ففي الامر عقدة خطيرة ولا بد أن يستغلها هؤلاء الواجدون .

فكر وقدر وقلب وجوه الرأي حتى انتهى إلى أن الحالة الناشبة البادية ، ستستحيل الى فوضى فظيعة قد تندك معها معالم المجتمع الاسلامي ، وانتهى أيضاً إلى أن صفة التبلبل وهي تساعد على الدس والانتهاز لا يحسمها إلا عمل سريع عنيف . وفكر كثيراً قبل أن ابتدأ بطلحة والزبير ومن ورائها عائشة ، فقد لمس خطر هؤلاء الذين يملكون من أسباب السيطرة والتأثير الروحي قدراً كبيراً وقد أوضح هذا علي بن أبي طالب نفسه فقال :

(بليت بأنض الناس ، وأنطق الناس ، وأطوع الناس في الناس . يريد بأنض الناس يعلى بن امية وكان اكثر الناس مالا وناضاً ، وأنطق الناس طلحة بن عبيد الله ، وأطوع الناس في الناس عائشة) .

ومن ناحية ثانية فقد استجلى طبيعة البصرة على ضوء الروحية التي كانت بارزة في العراق إذ ذاك ، فوضع يده على مكان التفكك

والتفسخ وعدم الانسجام والتماسك ، بينما الشام كانت على العكس متماسكة بوحدة الدم والتغريب . إذن فالبصرة أقل عناء وأكثر خطراً وابعد نفوذاً بما يملك اللاجئون اليها من صدى بعيد ، عميق التجاوب في النفسية العربية العامة . فكان لزاماً أن ينبعث فورَه اليهم ويتخذ البصرة هدف ضربته الاولى الخاطفة الساحقة ، فيرهب بها المتمردين في كل مكان ومجال .

وأقام خطته على حرب السرعة ليكون نجاحها مضموناً ، فيعيد الثقة المفقودة ، بعد الثورة ، الى الهيئة الحاكمة الجديدة ويضبط العاصفة . كما استعان بالنقد والدعاية كأداة حربية فظيعة الفتك ، وأدرك ضرورة هذا العنصر في الحرب ، فدفع أم سلمة زوج النبي وهي من اعوانه الى انتقاد عائشة على شكل حاد ، فيما أقدمت عليه من مغامرة فكتبت اليها ، ومن جهة ثانية أذيع الكتاب وهو :

(من أم سلمة زوج النبي ، الى عائشة أم المؤمنين . فاني أحمد الله اليك الذي لا إله إلا هو .

أما بعد : فقد هتكت سُدةً بين رسول الله وأمته . جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها ، وسَكَر خفارتك فلا تبتذليها ، فالله من وراء هذه الامة ... لو علم رسول الله ان النساء يحتملن الجهاد عهد اليك ، أما علمت انه قد نهاك عن الفراطة في الدين . فان عمود الدين لا يثبت بالنساء ان مال ، ولا يُرأب بهن ان انصدع . جهاد النساء غض الاطراف وضم الذيول ، وقصر الموادة . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ، ناصّة قَعوداً من منهل الى منهل . وغداً تردين على رسول الله ، واقسم لو قيل لي

يا أم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن القى رسول الله هاتكة حجابا ضربه عليّ .. فاجعليه سترك ،وقاعة البيت حصنك ، فانك أنصح ما تكونين لهذه الامة ما قعدت عن نصرتهم . ولو اني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله لنهشت نهش الرقشاء المطرقة . والسلام .)

وكان لهذه الدعاية الحربية أثرها الكبير ، فأم سلمة أم المؤمنين أيضاً وهي تشجب على عائشة حركتها وتنتقدها انتقاداً لاذعاً . وقد تركت أثرها المرغوب به والمتوخى نيله وكان أبرز ما تركت أثران بارزان :

(١) إعطاء صورة نابية عن محاولة النساء مثل هذه المحاولة ، فقد رووا (أن ابن ابي عتيق – وعائشة عمته – لقيها في بعض مآتي الطرق راكبة على بغلة ، فقال :

الى أين يا أماه ؟.

قالت : اصلح بين حيين من أحياء المسلمين تقاتلا .

قال : عزمت عليك إلا رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نعود الى يوم البغلة) .

(٢) شجع الزعماء والأمراء على ان ينكروا عليها ، فقد كتب اليها زيد بن صوحان رداً على كتابها اليه :

(سلام عليك اما بعد : فانك أمرت بأمر وأمرنا بغيره ، أمرت ان تقري في بيتك وأمرنا ان نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة .. فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به والسلام) .. ومضى الخطباء يحصون عليها تبلبلها وتناقضها ، فبعد ان كانت تشير

بعلي في زمن عثمان وكذلك طلحة والزبير ينصحان بان يكون علي الخليفة، اذا بهم يخرجون جميعاً لحربه ومقارعته في احرج الساعات العصيبة، وبذلك يسهلون سبيل العمل للانتهازيين النفعيين.

فحرب الدعاية التي اصطنعها علي وقذف بها خصومه، اثرت اثرها الكبير وفككت الوحدة في المعسكر الآخر. (فاعتزل بالجلحاء - من البصرة على فرسخين - الأحنف بن قيس، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بني تميم).

وعلى هذا الوضع فاجأهم علي بجنده (وفيه ثمانمائة من الانصار واربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان، وكانت راية علي مع ابنه محمد ابن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمدابن ابي بكر وعلى المقدمة عبد الله بن عباس. وزحف علي نحو الجمل بنفسه في كتيبته الخضراء من المهاجرين والانصار وحوله بنوه حسن وحسين ومحمد، ودفع الراية الى محمد وقال: اقدم بها حتى تركزها في عين الجمل.

يابني تزول الجبال ولا تزل، عضّ على ناجذك، أعِر الله جمجمتك، تِدْ في الارض قدمك، ارمِ ببصرك اقصى القوم وغض بصرك. واعلم ان النصر من عند الله). فتقدم محمد فرشقته السهام فقال لأصحابه: رويداً حتى تنفد سهامهم.. فأنفذ علي يستحثه، فلما ابطأ عليه جاء بنفسه. وقال له: اقدم لا أم لك. ثم ادركته رقة عليه، فتناول الراية منه بيده اليسرى وذو الفقار مشهور في يمنى يديه، ونادى بعقر الجمل فوقعت الهزيمة).

كانت معركة الجمل بدون ريب او كادت تكون، هي المعركة

الفاصلة، وان تنقلب من حيث القيمة ثانوية وان تعتبر حركة فرعية لتطهير بعض عناصر الشغب الباقية، خصوصاً والمقاومة الكفاحية آخذة بهذا الشكل من السرعة والدعاية الموفقـــة التي اشعرت الناس كافة بالاشمئزاز من شغب المشاغبين. بيد ان الحـال تبدلت وجعلت لصفين الصفة الحاسمة الرئيسية لاعتبارات :

(١) استحالة فكرة العقيدة وروحيتها الاخلاقية عند علي الى فكرة ثابتة، والفكرة من الثوابت تصرف كل قوى المرء الروحية والمعنوية اليها، وتقف جهوده العملية في سبيلها ومدى غايتها فقـد تركزت تركز الاعصاب، فصاحبهـا لا يفكر ولا يرى ولا يحس اولا يجب ان يفكر وان يرى وأن يحس إلا في مواقع ميولهـا، كما لا يدبر ويقدر الا على ضوئها. لذلك لم تكن سياسة علي مشتقة من صميم الحياة كما هي بمساوئها، بل من روح الحياة كما ينبغي أن تكون بفضائلها. فهذا الرجل الذي عرفناه دموياً في قضية الانتصار للعقيدة، نراه شديد الكراهية لسياسة الدماء وأساليبها في قضية قمع حركات المتمردين، فهو يفرق جيداً بين الكفر والعصيان. ولكن وسطه لم يكن يفهم هذا الفرق فهماً حسناً او لا يفرق بينهما ابداً، فقد رأينا عثمان الخليفة يسمي تمرد أهل المدينة كفراً في كتابه الى معاوية، ونرى عماراً ومحمد بن ابي بكر ومن ورائهما سائر النـاس ينظرون الى خصومهم نظرة المارقـين من الدين، وبالتالي يجب ان يطبقوا عليهم أحكام الكفار وقانون الارتداد.

كان الجمهور متشبعاً بهذه الفكرة وما يترتب عليها ويلابسها، فاذا بعلي المتشرع العبقري والمسلم الواعي لحقيقة الاسلام يحمل على

اساس هـــذه الفكرة لئلا يتورط الناس في استباحة مقتضياتها القانونية ، التي تخولها حالة الحرب في الاسرة والمال والملك والقيمة الشخصية ، التي يتبع فقدها الاسر والاسترقاق . وبين للناس بمنطقه العميق أن هناك صفة ثالثة هي الفسق وهو لا يبعد بالمرء ابداً عن دائرة الايمان ، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط .

وانظر كيف يستأتي الى إقنـــاعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا « أحل لنا دماءهم وحرم علينا أموالهم » فقال علي :

« هي السنة في اهل القبلة » .

قالوا : ما ندري ما هذا ؟ !

قال : فهذه عائشة رأس القوم أتستاهمون عليها !.

قالوا : سبحان الله !. امّنا .

قال : فهي حرام !.

قالوا : نعم .

قال : فانه يحرم من أبنائها ما حرم منها » .. فنادى في الناس : لا يسلبنّ قتيل ولا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا يحل متاع . ولكن الجمهرة الكبرى ساذجـــة بسيطة في فكرة التدين ، فوقع عليهم هذا النداء وقع اليأس في محل الامل ، وجعلهم يلغطون كثيراً ويتأففون كثيراً وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعصيان ، وفيما هو الفرق بينهما وبين الايمان .

فاما أولئك البداة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلا عـــلى شكل سطحي ، استعصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقـة بينهما فمضوا على أنه لا فرق ، واقتنعوا بما انتهوا اليه . واشتملوا على نوع

من التسخط الخفي كان غير مشعور به إلا قليـــلًا ، لأنهم بمقتضى نظريتهم حال الخليفة بينهم وبـــين حقهم في الغنم ومنعهم إياه . ومن هؤلاء كانت نواة الخوارج ، وقد صاغوا فكرتهم هذه فيما بعد بان مرتكب الكبيرة كافر .

وأولئك الذين صحبوا النبي طويلا وعرفوا كثيراً من منطق الدين ، اشتملوا على اطمئنان كبير حينما أوضح لهم عليّ الفرق كما لو لمسوه . وكان بين هؤلاء من فهم الفرق بين الكفر والفسق على نوع مبالغة وتكبير ، فقال بالمنزلة [1] بين المنزلتين . وكانت كل هذه الاستنتاجات المختلفة حول الموضوع الذي أثارته مشكلة الغنائم بعد يوم الجمل ، أفكاراً غير واضحة كثيراً واتخذت سبيل وضوحها فيما بعـــد ، وقامت على أساسها الفرق الاسلامية الـــتي عرفت باسمائها أخيراً .

(٢) نظريته في خصومه أنهم مسلمون فلا يجوز أخذهم في غير حدود الاسلام وقانونه ، وهو يستفتى بهم « أمشركون هم ؟

قال : من الشرك فروا .. قيل : فمنافقون هم ؟ .

قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا . قيل : فما هم ؟

قال : إخواننا بغوا علينا ... وكان لا يفتأ يقول : لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا فسقوا وظلموا ». إذن فلا بد أن

---

(١) أخطأ كل مؤرخي الفرق حين توهموا ان فكرة الاعتزال في المنزلة بين المنزلتين لم تعرف إلا في حلقة الحسن البصري على لسان واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد ، وإنما انشأها بعد معركة الجمل خيال مشكلة الغنائم وتوضيح علي الفرق بين الكفر والعصيان .

يفاوضهم ، ولا بـــد من أن يقيم الحجة عليهم ، ولا بد من أن يلاينهم ماوسعه ذلك ووجد فيهم أملاً ، دون لجوء الى العنف الذي لا يستحله إلا بعد أن يُعنتوه .

فنراه يفاوض معاوية ويرسل اليه الرسول بعـــد الرسول والكتاب تلو الكتاب ، حتى استعمل معـــه أسلوباً يقرب من الرجاء . فاذا به يذكره بموقف أبيه منه ، واذا به يتهمه بالعقوق في رفق .قال في بعض كتبه اليه :

« وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله ، فقال ابسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر . فأبوك كان أعلم بحقي منك ، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك وإلا فتتعَيّن الله عليك » .

ولكن معاوية كان قد ساوره الطمع ولعبت أحلامه الكبرى أمام ناظريه ، وقد فهم مثالية عليّ وتقواه فعمد لاستغلالها . فاذا به يصانعه ويظهر له خيوطاً واضحة من الأمل بعد أن يضع عقـدة يتعايى بها ، فيعذره عليّ ويمضي في مفاوضته . ومعاوية لم يكن يريد من ذلك إلا اكتساب الوقت لتهيىء نفسه وبعث روح الملـل في جيش عليّ ، فهو يتمنى طول الوقت وطول الصراع مع ظهوره بمظهر المستسلم اذا انحلت العقد او اقنعه بحلها ، وبهذا المظهر يضمن أن لا يأخذه علي بحرب خاطفة جبارة بل يرفق به ، فتتحول المعركة الجدية الى حرب إنهاك وإزعاج ، وهي لامحالة ستشيع صفة التململ واليأس في جيش علي .إضف الى هذا أن هذا الجيش منذ حين قد خرج

من معركة كبرى ومن قبل كان منهوكاً بالفتوح في كل مكان ، ولا يلبث أن يدور هذا التململ دورته ويعمل عمله ، ولا بد أن يترك صدوعاً واختلافاً في الرأي ، فينقسم الجيش شيعاً ويفلت من يد عليّ الزمام .

أما يراه يجيبه حينما طلب تأجيل الحرب شهراً ، أليس يسمح لجيش الشام حين استولى جيشه على الشريعة ،بالسقيا « حتى ازدحم عليها السقاة من العسكرين وما يؤذي إنسان إنساناً »[1] فطال أمد المعركة مائة وعشرين يوماً ، وهذا وقت طويل في عمر حرب من هذا النوع ، وسمح طول الوقت للافكار التي نبتت في رؤوس الجموع أن تنمو وتستفحل وتشكل نظرية لها أسرها وتأثيرها في قرارتهم ، وكان هذا النماء مشفوعاً بعاصفة من الملل واليأس .

ولم يكن شيء من هذا خافياً على عليّ ، بل كان ينظر ويبتسم فهو يريد أن يحل المشكلة القائمة ولكن على طريقته المثالية وبمنطق القانون الذي يقدسه . وعلي وإن لمس أن الظرف يتأزم عليه والوقت يتعقد والفرصة تكاد تفلت منه الى خصمه ، فانه يريد أن يحارب حرب الحق وينتصر للعدالة بالعدل وإلا فهو في نظره يخدع ضميره ويخدع الناس ، اذا سمح لنفسه بانتهاك قداسة الحق بسبيل تأييد قضايا الحق .

---

(١) روى التاريخ أن جيش الشام سبق الى الشريعة فطلب علي السماح لجيشه فأبى معاوية عليه ، فلما غلبه عليها وطلبوا اليه ذلك سمح لهم . فبرهن بهذا علي على أنه يحارب للحق وليس يحارب للغلبة وشهوة السلطان ،وأعطى مثلاً فذاً في كل التاريخ اذا اضطر انسان الى الحرب ، كيف يجب أن يكون إنساناً شريفاً قبل أي اعتبار .

على انه كان راضياً فلم يبتئس لأنه واثق من أن النهاية الظافرة في متناول يده يضمها اليه ساعة يريد ، وكذلك كان حين يئس منهم وضربهم الضربة القاصمة التي ألجأتهم الى حيلة رفع المصاحف المعتادة كثيراً فقد رفعت غير مرة يوم الجمل ، فهي إذن لا تملك تأثير المفاجأة بل معتادة باردة الأثر ضعيفة المفعول لولا ما كان قد استحوذ على الجموع من استفحال الافكار الخطرة التي سبق وأشرنا اليها ، فتصدعت وحدة الصفوف بهذا السبب .

لقد عادت الزوبعة الى الهبوب مرة أخرى أشد عنفاً ، فتمزق شراع السفينة وميّلتها الامواج المتعاظمة المتكسرة على جوانبها في جبروت . وعليّ في هذه الغمرة الطائشة كان ينشط الى كشف المهزلة وسحق طواغيتها ، ولكن بجيش مريض فتعايى عليه وتركه حيث يشاء في الميدان .. لم يجد بداً من مسايرة الجمهور الكبير ، ولم يجد بداً من الخوض في تيار المهزلة التي استولت بروحها على الجمهور الى النهاية . فليس من سبيل لمداواة الروحية العامة على ضوء النفسية الاجتماعية ، إلا الأخذ بالناس حتى نهاية الطريق في مدى ما استحوذ عليهم فان الأمراض الاجتماعية من نوع الهيستيريا الحادة يداوى معها الوهم بالوهم ، وعلى ذلك نزل عند رأيهم ليهيء الظرف المناسب من جديد .

إذن فعلي لم يشأ قصداً أن يستغل سرعته وهي تقتضي البطش استغلالاً دموياً ، وكان هو الواجب إذ ذاك من وجهة نظر عسكرية . نحن نعرف علياً بطل الحرب ، فلماذا انصرف هذا الانصراف واختار البطء في الايقاع بالخصم بعد تلك السرعة الموفقة في الانتقال

والأعداد ؟. لأن علياً لم يكن يطلب السلطان من اجل السلطان ، بل من أجل إحقاق الحق وإحلال المثل الاعلى الاجتماعي في دنيا الناس ، وإلا فالسلطان في كبرياء نفسه وفي كبرياء معنويته « لا يساوي عَفْطة عنز » كما كان يقول.

هو يريد السلطان من أجل الحق ، فاذا انتهك الحق من اجل السلطان فقد خنق ضميره واعتصر بيديه قلبه في قسوة ووحشية .

فماذا يريد من كفاحه إذن ؟ إنه يريد تطبيق قضايا العدل حتى في الساعة التي يجوز فيها الجور ، إنه يريد الحق حتى في ساعة جيشان الباطل وطغيان المنكر . ولكن هم قلة الذين تساموا الى فهمه ، وهيهات لحياة الأطماع المحدوّة بالشرايين والاعصاب ، ان تنبض بمثل خلجات قلبه وتحس بحسه وتندى بمثل شعوره . كان أكبر من محيطه ولا بدع ، وأسمى من مجتمعه ولا ريب ، فهو ربيب محمد المتبلور من سناء الوحي وضياء النبوة ، وهو أكبر اللالىء التي انكشفت عنها دنيا القرآن . فهل يعبث بوجوده وضميره في ملهى يديه طائعاً مختاراً ، ومن اجل ما لا يراه شيئاً ؟!

إنه لم يكن يؤمن بما يقال « اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » ، فهذه خطة صغار وخيانة وجبن وخور ، بل كان يؤمن بغاية أسمى ويبشر بمبدأ :

اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فحاول أن تجعلها كذلك . فاذا لم تنجح أيضاً فلا تخن ضميرك ، وعش وحدك مثالاً للحياة الفاضلة . ولا تألُ جهداً ، كي يبقى للحق في تاريخ الباطل مثلايضربه ..

إن الذين ينتهكون كل قداسة بسبيل الفوز ساقطون في ميزان

الاخلاق وقسطاس الروح، وعليّ ليس من طينتهم ، بل ذلك الأسلوب في حس علي أبرز أسلوب من أساليب الخيانة وأنكرها . والغلبة تكون مقياس النجاح في حس الجامدين جمود المادة والطبيعة الصماء ، بينما مقياس نجاحك في حس الشاعرين بمقدار ما تكون أبيض ناصعاً في ضوء المصباح وسني الفجر .

والوجود نوعان : وجود بالحياة ، ووجود في أبدية المبادىء والثاني منهما اكبر الوجودين ، فان عمر أولهما في حدود اللحم والدم وعمر ثانيهما في حدود الخلود ، وأين مداه ؟ ...

واذا بقي ذو الوجود الأول فانما يبقى في ذكرى التاريخ شُوهة مومياء ، بينما يظل ذو الوجود الثاني في ذكرى الابد مشكاة حياة تفيض بالنور .

ولم يشأ علي وقد أخذ بمقود السفينة ان يتركها هائمة ، ويترك للخاطفين (القرصان) انتهابها . فعالجها بمقدار ومقدار كبير ، والعواصف تتناوح من حولها وبين يديها ، وعلي كالربان الماهر يرخي الشراع أحياناً ، فيمضي في مدى ميل الجمهور ويرضي بالتحكيم ، ويشد الشراع أحياناً فيضرب ضربته بالنهروان .

وخروج الخوارج إنما تم باستفحال فكرة أن لا فرق بين الكفر والعصيان ، فان قضية الايمان والكفر في تفكيرهم كقضية الحق والباطل ، وليس يمكن أن يكون بينهما واسطة يلتقيان فيها . إذن فالتحكيم خطأ والخطأ معصية والمعصية كفر ، فانتهوا في سلسلة النتائج الى ضرورة الايمان من جديد . وهذه الفكرة في جوهرها لا تزيد عن عقدة مسرحية ، إلا أنها مع ضعف المحاكمة العقلية

والنقد الفكري تبدو عقدة عسيرة الحل . فلدى البداة تسليم عفوي بكل خاطرة وإن تكن سخيفة ، وفي نفسيتهم قابلية للاستحجار والتصلب على شكل عفوي أيضاً ، بحيث تستحيل إماعته إلا بتحطيم الرؤوس التي تحمله ، وكذلك حدث .

ولقد تملأ الحسين بعظات موقف أبيه في كل مراحله ، وحللها في نفسه ، وأحلها من قلبه محـــلاً ثابتاً . وخاض مع والده العظيم الصراع على شتى ألوانه وكان له أثر أي أثر ، ولم يقف عند الشاطيء مترقباً بل عائماً خائضاً تقوم به لجة وتقعد به اخرى ، وتدفعـــه موجة لتستقبله الموجة الثانية ، والتقى[1] سيفه بسيف أخيه محمد فشكلا قوساً قاعدتها المبادىء التي من أجلها خاض أبوهما الكبير ، الكفاح دون هدنة أو هوادة .

وبقي في سمع التاريخ وبصره ماثلاً حياً :

أن علياً بطل الحق في السلم وفي الحرب ، وهو الانسان الذي استحال الى طاقة في وجود الحق وكيانه ...

*

شاء الله ان لا يحقـق مغزى امثولة علي ، إلا ابنه الحسين ابنه الحبيب ...

فردد على شكل آخر : اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فحاول ان تجعلها كذلك ...

---

(١) اشارة الى ما ذكر المؤرخون من ان احمر بني أمية بصر بعـلي فاراد قتله فخرج اليه كيسان مولى علي فاختلفا ضربتين سقط بينهما كيسان فجذب علي احمر بني أمية وضرب به الارض فكسر منكبـــه وعضديه وشد عليه ابنا علي حسين ومحمد فضرباه باسيافهما فقتلاه .

فاذا لم تنجح ايضاً ،فلا تخن ضميرك وعش وحدك مثالاً للحياة الفاضلة ...

ولا تأل جهـــداً ، كي يبقى للحق في تاريخ الباطل مثلاً يضربه ...

*

على أنه أضاف اليها امثولته الاخرى ...

اذا لم تكن الحياة كما تريد ، فليكن الموت كما تريد ...

وإلا فهيهات ان تشعر بحلاوة المثالية في الايمان ، وتكون من الأحرار ...

*

بقي طابعُ الانسان الكامل «عليٍّ» ، الذي لا يحركه الحقـد ولا تميل به النزعات والنزوات ...

طابعاً لابنائه فقد قيل لابنه محمد : دساً وتوليداً للموجدة ...

لمَ يدفع بك أبوك في الحرب ولا يدفع بالحسن والحسين ...

فقال بوحي القلب المثالي : هما عيناه وأنا يمناه وهو يدفع عن عينيه بيمينه ...

هذا طابع علي في الاخوة والاخاء ، فأي دنيا بل اي خـــلد سعيد ، لو تسنى للحياة ان تبرز بطوابعه الاخرى ...

التيـــاع

في دارة قريبة من الكوفة انعقد أول مؤتمر سياسي إرهـابي ، وانفض عن مؤامرة دموية واسعة النطاق تولى أمرها ثلاثـــة نفر فدائيون كلهم خارجي . فقد كان لمعركة النهروان التي انكشفت عن مأساة مريرة ، وقع حاد في نفوس كافة الخوارج ، فنشطوا تحت إلحاح سورة الانتقام يجتمعون هنا وهناك ويوالون الاجتماع في كل مكان . فما من بيت الا ودخلته طائفة من الأرزاء وانطلقت العيون كأفواه القُرَب تتحدر عن مثل خيوط القطرات ، المرفضة ارفضاض عقد نظيم ، وبالاحرى المتحدرة مؤتلفة ائتلاف عقد شتيت .

وكان عبد الرحمن بن ملجم من أبناء الهوى والشباب فهو عاشق مدنف الفؤاد متيم الصبوة ، لقي قَطام ابنـــة الشِجْنة من تَيْم الرّباب في أصيل ليلة من ليلات الصحراء ، التي يختلط فيها سكون الجمال وجمال السكون ، برجفات القوافل ، وهي تهَوِّم راجعة او منطلقة ، كأنها سارحة في طَفَل الابد أو سانحة مع رَأد الامل الخـابي .

وقطام هذه فتاة افتنّت بها طبيعة الجمال أي افتنان ومشت في تقاطيعها روائع الحسن وآيات الفن ، فبرزت كالزهرة أول مـــا

تتشقق عنها الاكمام ،أو كالفتنة الحية المائجة التي أضافت اليها الصحراء انبهامها فجاءت بساطةً في تركيب ، ووضوحاً في غموض .. تخطر كيفما اتفق لها ، فتثير في مدى خطاها تهاويل السحر وعبقاً من عبق الهوى المسفوح وضجة الجوى الشرّود .

والجمال في الغواني وفي كل شيء أرادته الطبيعة لتعبر عن تذوّقها الفني ، وعن أن غاية التفاعل الكوني ينتهي بالكون إلى الفن ويجتمع عليه ، وان بقاء الوجود قائم على الارادة الفنية فقط.

فالطبيعة الصامتة تحاول محاولاتها تحت الارادة الفنية لتنتهي الى الفن الصامت الذي هو روح الطبيعة الجَمود ، وتبتدىء الحياة أو الطبيعة الحية من الفن الصامت لتنتهي كذلك الى الفن الحي الذي هو روح الحياة أيضاً ، وتبتدىء الطبيعة الانسانية من الفن الحي لتنتهي في غايتها الى الفن الواعي الذي هو المثل العليا .

والى هذا الفن الواعي تنتمي فكرة الروح والخلد ، حتى الله في الاديان فكرة الفن المطلق ، والوجود إنما يتحرك بارادة الفن ليسمو تحت هذه الرغبة الجاذبة بالشوق . وإلى هذا يشير قول النبي « خلق الله آدم على صورته » ، من حيث ان في الانسان أكبر قسط من جمال فن الوعي أو فن القصد ، إذ فيه تحولت حركة الطبيعة الفنية من حركة لا قاصدة ، إلى قصد في الحركة... هذا حديث فاه به ابن أبي عتيق في أمسية من أماسي الطائف عند مغنى نضير ، جمعه وعمر ابن أبي ربيعة والثريا وزمرة كبيرة ممن يطلبون الحياة اللاهية الحالمة كان بينهم ابن ملجم .

فقال عمر يحاوره : لكأني بك – يا ابن أبي عتيق – وأنت

حُشْية فتون ودنيا غرام ، ولم أخطئك الصفة حينما قلت :

أهجرتها ؟! وأنت زيّنتها لي أنت مثل الشيطان للانسان

وقهقه مشيراً إلى الثريا .

قال ابن أبي عتيق: لا تثريب عليك ، «فالله جميل يحب الجمال» . ونحن بإرادة الفن يستخفّنا سحره فنتواقع على الرمال منتشين بموجة الزبد ، ولعل ثُرياك أكبر موجات الزبد الحائم في شاطىء الفن المسحور.

قالت الثريا : فاذن أنا في خيالك — يا ابن أبي عتيق — بعضٌ من غاية الكون في تفاعله الابدي، لانني بعض من فتنة الفن فيه.. وراحت ترمق ابن أبي ربيعة ...

قال عمر : ماذا تقولين ؟! لأنت والله كل فتنة الفن إن كان هذا يفي بموقعك على قلبي ، ولأنت كل غـــاية الكون إن كانت للكون غاية ... فراحت تضحك في خفر وكانت ضحكة تعبر عن نشوتها «فالغواني يغرهن الثناء» ؛ ولم تلبث هنيهة حتى قالت :

«لو أنا ناديتك واعمراه فماذا تقول ؟... وكأنها استخفّته فهب يفعل كالمُثَوِّب . أقول . أقول : لبيكاه . لبيكاه . لبيكاه » ومد صوته ...

لاول لقاءة بين عبدالرحمن وقطام ، مرت في مخيلته قصة أمسية الطائف وشعر بحلاوة الحُلم ، لو كان له من قطـام ما كان لعمر من الثريا .

وكان أن رأت قطامِ منه ما رأى منها، وأحست بمثل ما اجتمع في أحاسيسه من أحلام ، فقد تواصل بينهما هوى ومشى بين فؤاديهما

غرام ،ولفهما وجد واستدار على قلبيهما جوى وهيام . كان في نقطة الدائرة قلبها ، وفي إطار الدائرة قلبـــه يدور ولا يدري من اين ابتدأ او الى اين ينتهي ، ودائماً يكون قلب المرأة من الثوابت فهي غنية بالاغراء وقلما تكون غنيـــة بالحس ، وهي قلما تتحرك بالحب ولكنها دائماً تتحرك بالكراهية والبغض .

كان بينهما لقاء إثر لقاء وكم تمنيا لو أفنيا العمر في لقاءةٍ سكرى تضل عن صحوها، أو تدفع بهما في لا نهاية الفناء قبل فنائها .

عند مهوى أحد الكثبان الذي حفـــظ لهما اول انتشاءة من غرامهما وآخر انتشاءة ، كانا يحلمان وما أصحيا الا على صوت النّعي بان وقعة النهروان ذهبت بكل الشيوخ وأكثر الفتيان ، وان تيار الارزاء جرى على كل بيت وغمر أعلى العرصات حـــتى أدنى الاودية . فتمايلت مع النعي مرتعـدة كما تمايلت قصبـــات الغور في حروف الاودية والمنعرجات ، وانهمرت عيناها بالدموع المتناثرة تناثر البَرَد، وثارت ثائرة ابن ملجم على لحن دموعها القانية ..وتحت عوامل الثأر الفائر وسورة الانتقام العاصف ، آلى أليّته الرهيبـة لينتقمن لها وله وليشفين نفسها ونفسه وليقرّن عينها وعينه !

وطبيعة الجبروت في الرجل تأبى ان تظهر ببالغاتها الا في فضاء نظر المرأة ، كما تأبى طبيعة الاغراء في المرأة ان تظهر ببالغاتها الا في فضاء نظر الرجل، كأنهما بعد تناحر طويل اصطلحا على ان تستنيم المرأة الى جبروته فهي تطالبه به في الخطوب ،وعلى ان يستنيم الرجل الى إغرائها ، فهو يطالبها به في النشوات وهينمات الاحلام ودغدغات السكون ، الذي يتمدد في فضاء النفس باسترخاء .

في دارة لا تبعد كثيراً عن الكوفة ، تسارع اليها مفجوعون ومفجوعات ولبثوا يرعدون ويبرقون تحت إيحاء المأساة الحمراء ، التي كانت تتصل باعصابهم فتحركها متصلبة متعقدة تشتهي لو تمددت خانقة ساحقة ...

قام الحرّ بت بن راشد الناجي يخطبهم :

لقد كبر علينا والله مصرع إخواننا الابرار . وما بقاؤنا بعدهم ؟ اتنتظرون ان يتخطّفكم جيش علي زمرة بعد زمرة وطائفة بعد طائفة ؟ إنه لا ينتظركم منه الا الموت ، الموت الذليل الوضيع ! الموت الغائل الزؤام ! ألا فانفروا وموتوا في عقر الحراب ولا تموتن في عفر الديار !

فهب القَطَرِيّ بن الفجاءة ينشدهم :

اقول لها وقد طارت شعاعاً من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم على الاجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيُطوى عن أخي الخَنَع اليراع
سبيل الموت غاية كل حيّ فداعيه لاهل الارض داعي
ومن لا يُعْتَبط يسأمْ ويهرمْ وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير في حياة اذا ما عدّ من سقط المتاع .

ووقف حروة بن نوفل الاشجعي فقال :

ألا فاسمعوا : إنّ علياً أراد ان يتخذ من وقعة النهروان أمثولة رهيبة ، يلوّح بها في وجه خصمه فيفلّ غَرْبه ويدخل الروع الى قلبه ويخذل عليه اعصابه ، فبطش بنا تلك البطشة الساحقة .

ان علياً في احوج ما يكون — وقد تهيأ لحرب خصمه — الى مثل جبار مرعد يعيد به الى الاذهان مثل رهبة معركة الجمل ، ويدخل في رُوع خصومه مثل اثارها فيمتلئون ذعراً وخوفاً ، كما اراد ايضاً ان يعيد الثقة الى نفوس جيشه فقد عراها وهن وخور وان يعيد الثقة بالجيش وهو يقبل على مغامرة كبرى فاصلة .

وعلي لم يضربنا ضربته تلك في النهروان إلا بعد ان بذل اقصى الجهد للعودة اليه او الفيئة الى مشاركته في نزال خصمه ، ولقد ارخى لنا من عنانه حتى اخذنا سهل بن حنيف وانتم تعرفون سابقته ولا تجهلون مكانه ، فوجد اذ ذاك السبيل لتجربته وهو وايم الله قد أعذر .

ولست اقول هذا تثبيطاً عنه ، بل احتياطاً لدمائنا وعلي « لم يزل عندنا في الشبهة والشك » .. وها اني معتزل .

فوثب الخريت يخفق برأسه ويبرق بعينيه ويرعد بصوته ويلوح بكلتا يديه : أدعوة الى النفاق والكفر ؟! انتفخ سحرك وجبنت وهدرت دماء الاطهار . ألا فميتة السوء لكم ان كنتم لا تنفرون ! وها اني نافر ثائر !

فاشتعلت حماسة الشباب خصوصاً ، واندفعوا في تيار اصواتهم كالجنون يرددون : الا فميتة السوء لنا ان كنا لا ننفر وننتقم ! .. وانكشف الجمع عن اعتزال فروة الاشجعي بشهرزور ، ونفار الخريت الناجي بالاهواز ثم بالاسياف .

ولكن الشباب تنادوا الى بعضهم ووالوا الاجتماع وترتيب الخطط وبرامج السير بالمؤامرة الانتقامية ، فهم لا يستطيعون

العمل جهراً فليعملوا سراً وليعمدوا الى الغيلة .

وكان اكثر هؤلاء الشبان تحمساً ، عبدالرحمن بن ملجم الذي اندفع بحفيظة الحب وعمل كي يرضي قلباً بات معموداً . . . انه سيجازف كيفما شاءت المجازفة ، وكيفما كانت خطورتها .

أليس فيها ما يرضي محبوبته المفجوعة بأبيها وأخيها ؟ أليست ستشيّعه برعشات قلبها وخفوقه ؟

أما ستحتفظ له بذكرى نابضة تشبع بين اهتزازاتها ابتسامة حب باكية ومنى هوى كسيف ؟

في إحساس ابن ملجم ان هذا كاف ٍ بل كثير ، لا سيما وقد جعلت قتل عليّ مهر قلبها وحبها وجسدها ، إذن فليعترضه كل خطر ، ولتقم في طريقه أية العقبات فهو لا بد مقتحمها . إنه لم يعد يفكر ولا يرى سوى عروس احلامه تباركه وتنظر اليه بتشجيع وتخوّف .

أليست الآن تودعه وهي بين عاطفتين متصارعتين تهتز تحت عنيف صراعهما ، هاهي تتركه ينطلق ، مسرورةً تحت فورة الثأر والموجدة ، ثم لا يكاد يخطو ، حتى يطغى حبه في حنايا روحها فتنبعث ولهى وراءه ، تشده اليها وتعتنقه اعتناقاً عنيفاً .

إنها بين عاطفتين قاسيتين بوقعهما على قلبها ، فهي تخاف عليه ان يفعل وتخاف منه ان لا يفعل . إنها في حيرة يَقظى ليس تغفى ، ونفسها سكرى تعربد . ظلت حيناً بين سخاء به فتشرق على وجهها ابتسامة راعدة ، وبين بخل به فتتولّه وتذوب ابتسامتها في موجة من الاسى الساهم . بيد أنها لم تطق فأعيَتْ بين عواطفها المتناوحة ،

فاستندت اليه وجفونها غافية تحت أطباق من الدموع ، غير انها رمقته أخيراً وقالت له في كثير من الخفوت :

« التمس غِرّته . فان أصبت شفيت نفسك ونفسي وهنأك العيش معي ، وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها » .. لقد صح عزمها في النهاية على الانتقام .

وانطلق ابن ملجم الى حيث كان جماعته ينتظرون عند الحطيم في مكة ، وكان لا يسمع كيفما سار إلا اصواتاً رهيبة النأمات ، فيتلفت يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ولكنه يقف كالمذعور يشده اليه اليه موضعه آناً ، وينطلق آنا كالهائم المسرور تتقاذفه طريقه مثل كرة ، لقد غدا تحت ما تجيش به نفسه ويعتلج بين حنـــاياه منها كالمرور ، لم يكن من شيء بين يديه ولا من خلفـــه وإنما كانت تنعكس أصداء نفسه في أذنيه ، ويسمع ضجتهـــا في الخلاء حزينة او مغتبطة .

انتهى الى اصحابه وأترابه « فتذاكروا أمر الناس ، وعابوا على ولاتهم وذكروا أهل النهر فترحموا عليهم ، وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم . إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبـادة ربهم والذين كانوا لايخافون في الله لومة لائم ، فلوشرينا أنفسنا فأتينا الرؤوس فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا .

قال ابن ملجم — وتعرض له طيف قطام يبتسم له ويباركه — أنا أكفيكم علي بن ابي طالب .

وقال البُرَك بن عبد الله : انا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان .

وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص .. فتعاهدوا

وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه حتى يقتله او يموت دونه » .

بعد ماغاب ابن ملجم عن عيني قطام، شعرت بغبطة لم تلبث ان مازجتها حسرة كانت تنساب الى قلبها على شكل موجات متدفقة ، ولم تلبث ان فارت واصطخبت . فخفت الى الطريق الذي سلك تود لو أدركته ، ولكنها توقفت ولم تسقط له على اثر ولو في القتام . فظلت ترنو جاحظة وشفتها بين اسنانها ، وظلت تمسك وجيب قلبها بيد وتكفكف من غرب دمعها بيد ، وطال بها المقام ولفها الليل كأنه يجلببها بثوب الحداد .

سمعت بعد حين، ان عبد الرحمن هبط الكوفة فهالها ما سوف يقدم عليه ، فضمت اليه من قومها رجلاً اسمه وردان ، تمنت في أقصى عواطفها لو أنه سقط طعم الفريسة ونجا صيادها الحبيب المفدى .

ما لبث ابن ملجم ان لقي أصحابه في الكوفة وكاتمهم أمره ، ثم سار الى «شبيب بن بجرة فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟

قال : وما ذاك ؟.

قال : قتل علي بن ابي طالب .

قال : ثكلتك أمك . لقد جئت شيئاً إداً ، كيف تقدر عليه ؟

قال : أكمن له في المسجد فاذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه ، فان نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا ، وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها .

قال : ويحك ! لو كان غير علي لكان اهون عليّ ، قد عرفت بلاءه في الاسلام وسابقته مع النبي (ص) وما أجدني أنشرح لقتله .

قال : أما تعلم انه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟

قال : بلى .. فأجابه ، وأتى الثلاثة الى قطام وهي معتكفة في المسجد الاعظم ، فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي .. قال محمد بن الحنفية : إني لأصلي تلك الليلة في المسجد الاعظم في رجال كثير من أهل المصر ، ما هم إلا قيام وركوع وسجود ما يسأمون من اول الليل الى آخره ، إذ خرج علي لصلاة الغداة فجعل ينادي : أيها الناس ، الصلاةَ ، الصلاة. فنظرت الى بريق وسمعت :الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك ! فرأيت سيفاً ثم رأيت ثانياً ثم سمعت علياً يقول : لا يفوتنكم الرجل! وشد الناس عليه من كل جانب ، فأخذ وأدخل على عليّ فقال :

النفس بالنفس إن أنا متّ ، وإن بقيت رأيت فيه رأيي ..ثم التفت الى ذويه فقال : يا بني عبد المطلب . لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون: قتل أمير المؤمنين. قتل أمير المؤمنين. ألا لايقتلن إلا قاتلي ،انظروا حسن ،ان انا متّ من ضربته فاضربه ضربة بضربة ولاتمثل بالرجل، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور .. ولما أحس دنوه جمع اليه الحسن والحسين فقال : اوصيكما بتقوى الله والا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولاتبكيا على شيء ذوي عنكما، وقولا الحق وارحما اليتيم وأغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصماً وللمظلوم ناصراً ، واعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم .. ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما أوصيت بـــه أخويك ؟ قال : نعم . قال : فاني

أوصيك بتوقير أخويك ، العظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما . ثم قال : أوصيكما به فانه شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه .. ثم لم ينطق إلا بقول : لا اله إلا الله . حتى قبض » ...

فليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر !

*

خاض علي الكفاح الاسلامي ولم يدرك مَدْرَك الرجال ، وقضى في ساحة هذا الكفاح وهو أسمى الرجال ..

و كأنه بكفاحه أتمّ على الاسلام كفاحه ، فالنبي كافح الشرك وعليّ كافح النفاق...

والنبي ظفر بالمعركة الحاسمة ، وعلي ظفر بمعركة التطهير الحاسمة أيضاً ...

في كل عينٍ أنت قرتها في كل جيلٍ أنت عَلياه !

*

شاء الحق أن يقدم في دنيا الناس نموذجَه فكان علياً ...

وشاءت الانسانية العليا ، أن تعترض متألقة في أفق الأحياء فكانت علياً ...

وشاءت السماء أن لا تسلمه الى أطباق الثرى المظلم ، فاختارته ملءَ عين الحق شهيداً ! ..

*

استعبر الحسن وتولّه الحسين ملتاعاً فقد دقت ساعة مات فيها البطل ...

وأعوزه الدمع ولكن عليّاً لا يشيع بالدموع ...

فان تكريم البطل لا يكون إلا بتضحية في بطولة وبطولة في التضحية ...

فبكاه ولكن لم يبكه بالدموع بل بالدماء الخالدات ! ...

*

تنظّم على رأس الحسين اكليل أسى، ولكنه إكليلُ غار يعبر عن خالد المجد ... فقد ضم جده وأمه وأباه في احتباك وضيء ..

وكان شعاره أنّى سار وكيف سعى ...

وظل الاكليل كأن فيه محلاً لزهرة حمراء أيضاً ...

فلم يلبث أن كان بنفسه تلك الزهرة الحمراء ...

وظل إكليل الغار العظيم ذكرى رائعة في ضمير الوجود!...

*

استغرق الحسين في أسى مذيب وجرى على لسانه من مرثية أبي الأسود الدؤلي :

اذا استقبلتَ وجه أبي حسين ... رأيتَ البدر راعَ الناظرينا

لقد علمت قريش حيث كانت ... بانك خيرها حسباً ودينا ...

ثم تمتم : لماذا ؟ لماذا يقول « أبي حسين » ؟ ...

لا شك أن أبا الأسود يناديني ، يناديني أنا ...

وخليق بي أن أجيب النداء !...

في الهيكل

●

هجر الناسَ الى المسجد، وسئم الحياة الصاخبة وقد امتدت اليه بأرزائها ،واتصلت الى قرارة حوبائه بأسباب بأسائها ، فما بشّت في وجهه إلا قليلاً ، على ان ذلك القليل لم يكن إلا كالفترة بين تجهّمين .

بله فكرته عن الحياة وكانت لا تزيد في اعتباره عن مسرحية مرسلة إرسالاً لا تتقيد بوحدة زمان ومكان ،تسُر في بعض منها وتشقي في بعض ، وتضحك وتبكي وتلذ وتؤلم . وهي مع ذلك لا لا تؤلم حقيقة كما لا تلذ حقيقة ، ولكنها تغري بالألم واللذة اذا استجاب الى أشيائها الشعور، فتلون بها وتعلق في الفكر رغبةُ تصديقها ، وإلا فهي في حقيقتها ضحكة نحن نفتعلها ونحن نعود فنصدقها ونؤكدها .

أما أنها واقع فأبعد ما تكون عن ذلك ، وإلا فلماذا تكون مصائب قوم عند قوم فوائد ؟.. ولماذا لا تمتلكنا مشاعر واحدة حيال الحادث الواحد ؟

أليس هو حادثاً واحداً لا يملك هذا التباين ، فمن أين جاء إذن ؟ إن كان الحادث علة والمشاعر المتباينة تنشأ عنه بالعلاقة السببية

فكيف اختلفت ؟

ولماذا أقتنع أنا بأسلوب ومنطق لا يقتنع بهما الآخر في زمان ومكان ليس مختلفين ؟ ويحس كل منا بان الواقع هو مـــا انطوى عليه وشعر به شعوراً فكرياً او معنوياً .. أمـا يحس كل منا اذا اقتنع بأمر او برأي ، أنه انتقل من واقع لم يعد له هـذا الاسم الى واقع ليس سواه خليقاً باطـلاق الاسم ؟ ألسنا لا نبتئس ونحن نعبث جذلين باشلاء الاعداء ودمائهم ؟

إذن فالطبيعة الحية تهدم العلاقة السببية في نفسها ثم لا تخضع لناموسها ، والعلاقة السببية هي ظاهرة الواقع فلا بدع بعد هـذا أن كانت الحياة ليست واقعـــاً او لا تعبر عن واقع في كثير او قليل .

ان الحياة إنما تجد واقعها في انفعالنا الضميري [1] او الوجداني ، فكل ما لا يجد طريق انتهـائه الى مركز الانفعال الضميري ليس بحياة . إذن فلكي يكون للعلاقة السببية عمـــل في الطبيعة الحية فتنتج وحدة أثر ، لا بد من وحدة زمان ووحدة مكان ووحـــدة حادث ووحدة ضمير ، وهذه الأخيرة أهم الوحدات من حيث تجد الحياةُ الانسانية في بيدائها واقعَها. فأشياء الحياة لا تجـــد حياتها وبعبارة أخرى لا تجد حقيقتها إلا اذا استجاب اليها الشعور ، وإلا فاين الألم واللذة ؟ وأيان تقـوم المغريات والفتون ؟ فلنجرب إذن جيداً أن لا نصحب ألوانَ الحياة التي تمر بنا باستجابة الشعور ،

(١) نعني بالضمير هنا المضمر اي المعنى اللغوي دون المعنى الاخلاقي وكذلك الوجدان .

فتنقلب مسرحية تافهة القيمة .. ونحن من هـــذه المسرحية نفسها — وهي افتعالنـا — نسر ونأسى اذا استجبنا اليها بشعورنا ، فسر ما ينتابنا من شقاء الحيـاة او سعادتها قائم في الاستجابة الشعورية فقط ، فالحياة ليست تملك سوى اسمـاء نحن نفرغ فيها مسمياتها . فاذا حلنا بين الشعور والاستجابة ، أدركنا سر الحياة وحقيقتها ، واستشعرنا بهيمات الخلد ، وانثنينا نتقلب في حياة ذابت عليها كبرياء أبدية السماء وكبرياء معانيها وأحلامها .. رن في أذن الحسين وهو في مذهب تفكيره هذا او تأمله ... فلنتجرد ! هلم الى الهيكل ! الى محراب المعبد ، محراب الروح والجمال والحب والخير !

ظل في حياة تموج بالنشوة وسكرة الحُلُم وحنين الروح ورفة الطهر وخفقـــة الحب ، وظـــل الناس خـــارج الهيكل يتقلبون في حياة تموج بالفتون والشهوات ورشحات الاعصاب من لذة وألم ، ولكنها دنيا من السراب .

كان كأنه في محرابه بيت القصيد في أنشودة الحيـــاة ، او أنشودة الطهر في شعر الوجود ...

ظل في محراب الروح رانياً شاخصاً زمناً طويلاً ، في حساب من دون حدود الهيكل ، وإن كان في حسابه لم يفن اللحظـة الأولى بعدُ ، وهل في لحظة الاشراق وجود للزمن ؟ ! إن لحظة الاشراق لحظـةُ أبد ، وأول اعتبار في الأبد إلغاء فكرة الزمان منه .

وفي لحظة الاشراق سر الحياة ، ولمكان هذا السر فينا لا نفتأ ننشد النشوة في الحب وفي الفن . ولأن في لحظة الاشراق لحظـة أبدية ، لا يشعر المحبون بدنيا الحياة وما اجتمع فيها ثم لا يشعرون

بغير دنياهم ، لقد انتشوا فهم يحلمون ...

في كل أشياء الوجود لفتات إشراق ، وهي تتنادى بالحي الى التأمل لينجو من عباب السراب ، قبلما يُعتَصر في الالتماع الساخر.

إن لحظة الاشراق في الفن تنتهي بلحظة الاشراق في الحب ، ولحظةَ الاشراق في الفن تنتهي بلحظة الاشراق في الهيكل أي التأمل ، وهنا ترتفع سدود الشعور في القلب فتتدفق لجج الاشراق وفي عبابها بات الحسين يطفو حالماً يسمو به المد . انه نشوان . أليست حشاشته تُندّيها خمرة الله ، ترابٌ بفمي : إنها تَندَى بوحيق الأزل .

بدأ الحسين لا يرى شيئاً الا رأى الله وراءه ، وانتهى وهو لا يرى شيئاً الا رأى الله امامه ، ومعناه انه لا يرى شيئاً فقد فنيت كل الظلال في الاشراق .

فلا بدع أن استوى قلبه على قاعدته كما استوى فكره عن نفس القاعدة ، وتملأ ضميره بالمثالية وشاع في وجدانه الحق بقضاياه العليا . فهو خصب الروح اكثر ما تكون خصوبة ، ومن فؤاده يتدفق نير صالح لخير الانسانية والانسان ، وتتفجر من أعماق نفسه ينابيع الفضائل . فظل مصدر نموذجات تشير الى المكارم التي قيل عنها : إنها احلام الشاعر وأغنية العندليب ، ألا لقد كانت هذه الأحلام العليا تشير الى الحسين وتقول : إني هنا !

كان قد استُطير قلبه بالحقيقة الالهية فهو لا يفتأ ينشدها ويستغرق متأملا في بيداء جمالها ، فكأنه وهو في المحراب قد أبرز المحراب فيه معناه . فلم يعد يد خيال الانسان بل غدا يد واقع

الانسان ، حين اضحى معنى المحراب إنساناً يعيش في الناس ، فكان مثال الخير كل الخير ومثال الطهر كل الطهر ، فلم يكن يُرَى الا مصلياً حتى كأن حياته جاءت على مقـــدار الصلاة ، والا سخياً جواداً حتى كأن غاية الحياة في غاية الجود ، والا ممتطياً صهوات خيوله الى مكة كأنه يشعر في الحج بانه - مثلما نعبّر اليوم - تسجيل للاسم في سجـل التشريفات وليس اشهى الى قلبـــه من معاودة ذلك ؟

لذا كان الحسين بجاذبية الروح مهوى القلوب وندى الأفئـدة تحوّم من حوله كأنها تروي غلتها ، فقد سقط العطاش منه بعـــد التيه على رقارق الينبوع فما كنت ترى الناس « الا عُكّفاً حوله » منتشين ، ينعمون بين يديه بالحنين الى المجهول « كأن عـــلى رؤوسهم الطير » .

فكان محله من الناس محل جده النبي ، تجد فيه الارواح الشاردة الحائرة ما تشتهي من طمأنينة وما تشاء من سكينة . فاذا بعبدالله ابن عباس على مكانته يأخذ بركابه في شعور ودون شعور ، واذا قيل له في ذلك « قال ان هذا ابن رسول الله أفليس من سعادتي ان آخذ بركابه ؟ » .. واذا بأبي هريرة يسير والحسينَ في جنـــازة فأعيا الحسين وقعد ، « فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميـه بطرف ثوبه فقال وانت يا ابا هريرة تفعل هذا ؟

فقال له : دعني فوالله لو يعلم الناس منك ما اعلم لحملوك عـــلى رقابهم ! »... واذا بعبدالله بن عمر « يرى الحسين مقبلاً وهو جالس في ظل الكعبة في جماعة فيقول : هذا احب اهل الارض الى اهل

الارض والى اهل السماء اليوم » .

وكان على هذه المكانة لا تزدهيه كبرياء المتخايل فان الكبرياء شعور بنقص الذات وجبر لهذا النقص بالتظاهر ، وما حاجة العظيم الى الاثواب ، والعظمة ذاتيـــة تكون اكثر أسراً كلما كانت اكثر عرياً .

فالكبرياء مرض بين ان يكون في الذات او ان يكون في الادراك ، وفي كلتا حالتيها تعـــبر عن انها كشجرة الاوراق في الخريف او كزَغَب النعام في الاعصار .

زعموا ان تفاحة نبتت في اصل شجرة بلوط فأطلت عليها من عليائها الشامخ بخيلاء وازدهاء ، وقالت : انت حقيرة حقيرٌ جناكِ الذي تحملين ، حتى صوتك حقير في نجوى النسيم ساعة ينطلق في السحر ، يغازل غانيات الاشجار ويسامرها .. وانتفضت تصفق ، فقد مر الريح يهدهدها وذهبت تضحك متمايلة في سخرية وكبرياء . وهبت في إثر الريح اعاصير تزأر فطالت ضحكتها واستحالت قهقهة لم تزل تمتد ، ولكنها انقلبت فجأة الى مثل حشرجة رهيبة انكفأت معها ترتطم بالارض عند قدم التفاحة ، فمالت هذه عليهـــا راثية تقول :

لعلك الآن – ايتها الاخت – اصدق رمزاً في الكبرياء ..

ومر سائر طريق جدّ به المسير فوقف عـــندهما تعباً ضاوياً وأهوت يده تطعم من ثمر البلوطة ، فخبطته مرارة حـــادة فتقزّز مستنفراً كالذي مسته أفعى وتزايد به الظمأ ، وتلبّث في حـــيرة طويلاً قبل ان اخـذ من ثمر الاخرى ، فأحلولى وشاع الرِيّ في

جوانحه فقال :

مباركة انتِ !فانك تحملين عصارة الذات في شكل خـــدود الحسان ، وأما انت الاخرى فبعـــداً لك ! انك تحملين عصارة الكبرياء في شكل ثِغْرِ الجمال..! فسمعت كلتاهما حـــكم الحقيقة عليهما ، فما تاهت احداهما وهي كبيرة الذات كبيرة الوجـــود ، ولقد تضاءلت الاخرى وهي عديمة الذات كبيرة في العدم ، وراحت وقد احتضرت عليها الكبرياء كأنها تنظر الى أشلائهـا ممزقة .. وقيل بعد حين ان المواقد انتهبتها ، وحالت في الرماد والدخـــان تقول ايضاً : انني لم ازل كبرياء تعلو ..!

« مرّ الحسين بمساكين يأكلون في الصفّة فقالوا : الغـداء . فنزل وقال : ان الله لا يحب المتكبرين . فتغدى ثم قال : قـــد اجبتكم فاجيبوني ، قالوا : نعم .. فمضى بهم الى منزله وقال لخادمه : اخرجي ما كنت تدخرين » .

والحسين كان وهو في الهيكل لا يفتأ يمعن النظر في حياة الناس وان لم يكن يغشاها ، يُصلح فيها ويُصلح لها حتى آذنه الهيكل بالخروج ، كما خرج جده من غار حراء قبلُ ، ليأخـذ الحياة طبق قاعدة الاصلاح ، فتحدته اوثان الاحياء فحاربهم منتشرين ومجتمعين . فالنبي الجد من قبل ، حارب الوثنية في الفكر ودحضها . والحسين السبط حارب الوثنية في المجتمع ، وهو وان لم يدحضها ، فقد رسم الطريق لحربها ، واباح ثورة التحرر على أية صورها واشكالها .

*

ذابت حقيقة الحياة في القشور ...

وراح الاحياء يتعلقون منها بالغُثاء والظلال ...
في نشوة كنشوة الخمر تعبر عن انها باطلة ، تمد بالعربدة دون ما أحلام !...

*

وقليلٌ هم الذين نفذوا من القشور الى اللباب ...
فطعموا الحياة التي هي هبة الابدية ...
فاستعلوا ووقفوا على هام القشور ينظرون الى العلاء ...
وتحدث هؤلاء، انهم رأوا عند افق الابدية انساناً يعمن في السماء..
عرفوا في طلعته انسان الهيكل الذي اغراهم باللحاق!...

في وجه الظلم

في جوف الليل العميق عمق الأبدية والمجهول حين كان الظلام ينتشر على شكل أردية فاحمة ، تلفع وجه الكون وتلقيه في سكون حائر وسبات واجم مخيف ، انطلقت أنةٌ تتبعها أخرى وأخرى في تلاحُق بدأ بطيئاً ثم كر سريعاً ، وكانت أناتٍ تُسمع جريحة ويخيل أنها ترى دامية كليمة ، تجتمع فتشكل صرخة باغتة او بغتة صارخة ، وتتوزع متقطعة متناوحة فتؤلف لحناً فانياً ، كأنه لحن التلاشي المحتضر او نغمة الفناء الذائب في افواه القبور .

أصغى الحسين الى ما يتناهى في سمعه ومال بأذنه كأنه يسأل : ماذا ؟! وقـــد خف قلبه اليها يسابق السمع ، ولكن النأمات اختلطت فأدار اذنيه كلتيهما الى كل الجهات ، وهفـا قلبه يتوثب يميناً وشمالا ، بيد أنها ظلت تقول في منطق الصدى : أواه ! وظل كأنه يقول : مـاذا ؟ واختلطت الآهات وانبهمت .. فهب يشتد خارج الهيكل مستطلعاً وهو يردد :

الليلُ ليلٌ ، وهو ويلٌ ويلُ وسال بالقوم الطغاة السيلُ ..

ويل للظلم والظالمين ، « الظلم ظلمات يوم القيامة » .

اطل من الهيكل وأطلع رأسه والناس متجمهرون على بعضهم

كالغمام المرفّ بقولون : أفي كل يوم ضحية جديدة ودم يُطلّ ؟ أفي كل يوم تمزق أكباد وتنثر أشلاء ؟

لقد جاء النعيّ بأن حجر بن عدي طُل دمه منذ ليال في نفر من صحبه ، وهؤلاء وجوه اهل الكوفة يستصرخون وينتصفون .

قال الحسين : رباه ما أسمع . أحجر يقتل ولا نصنع شيئاً ؟ فياحياة أشيحي واغربي ، ويا دنيا الآثمين ذوبي واضمحلي !

وكان قد آذنهم الفجر بالصلاة فعاجوا الى المسجد والتأموا صفوفاً ، وما انصرفوا حتى تحلقوا على شكل دوائر في بعضها ... فقام رجل من أهل الكوفة فقال :

ايها الناس : أنتم هنا في المدينة بقية اصحاب النبي ، واليكم تتجه الانظار من كل مكان والى ظلالكم يفيئون قصدَ تطهير المجتمع من الأدران .

انتم هم الانصار . وبينكم ترعرعت النبوة واشتدت قوادمها وربت خوافيها . فاستوى النسر وحلق صعداً في كل مجال ، وارتعدت فرائص البغاث وأهوى الخفاش الى الحفائر يستخفي . ولقد عاد النسر الان الى وكره وأخذه رقاد عميق فاستنسر البغاث وعدت الهوام في كل مكان . إن المدينة هي نسر النبوة فأهيبوا بالنسر الى التحليق لترتعد الهوام من جديد، وتنسحق في الرغام ابداً .

ألا فأنتم حفظة الوحي ، وحامو ذمار الرسالة دون العابثين . ألا لقد ارتد المجتمع الى جاهليته الرعناء ولكن بأثواب أخرى تتماوج من خلالها ، وليت هذا فقط ، إنه ضم الى جاهليته قبل الرسالة

جاهلية كل أمة وكل قبيل .

انظروا ! انظروا ! لقد بعث محمد عدواً للملكيات فبتنا نتقلب في أرداً أشكالها ، وعلّم محمد بضرورة الحد من طغيان رجال المال فصارت كل القوى في ايديهم ، وأطلق محمـــد حرية الفرد وأعطاه الحق بالحياة كيف شاء في حدود الصالح الاجتماعي العام وفي حدود الاخلاق المسلكية والضمير الانساني الشامل ، فاذا بنا نحيا في استعباد اجتماعي منكر ، حتى لقد تناهوا فانتزعوا حق الحياة من ايدينا ، وباتوا ينعمون علينا اذا شاءت شهواتهم بقدر حقير بليد ، من الحياة البائسة الشقية ، وأفضل منها الموت خطة والله .

وضج الكِنديون من أطراف الجموع وبينها : يالثارات حجر ! وانطلق المتكلم الكوفي يصل ما انقطع ملتاعاً مهتاجاً : لقـــد أذكرتني ثاراتهم مصرع حجر بن عدي الكندي ومن يجهله ؟ لقـد كان من اكبر أعلام الرجال ونقطة الفضل منهم ، فقد صحب النبي وأظهر أروع انواع البطولات في فتح الشام مع أبي عبيدة . وكان من خبره ، أن معاوية لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة سنة إحدى وأربعين ، دعاه وأوصاه بشتم عليّ وذمـــه والعيب على أصحابه والاقصاء لهم ، وباطراء شيعة عثمان والادناء لهم والاستماع منهم . فأقام المغيرة عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً ، لا يدع ذم عـــلي والوقوع فيه والدعاء لعثمان بالرحمـة والتزكية لاصحابه والطالبين بدمه .

فكان حجر اذا سمع ذلك قال : بل اياكم فذمّم الله ولعن ... ثم قام فقال : كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، وأنا أشهد أن من

تذمون وتعيرون لأحق بالفضل » .. ألا لقد كان ذلك من معاوية سياسة تدل على عدم فهم جيد لنفسية الجماهير وعـــدم تغلغل بين حناياها وفي خلالها، فقد كان في هذا التنقص ما يكفي لبعث الدفائن وإذكاء نار الحفائظ إذكاء جهنمياً ساجراً ، قد يأتي عـلى أركان الدولة ويطوح بها شر طِياح ، كما يجعل كل نفس تنطوي على أحقاد طامسة تروح وتغدو في ائتمارات تروّي بها سخائمها . نعم هي حماقة وإن كان يرمي بها إلى جملة غايات :

(أ) التشفي وتوكيد ما سبق ونشره من دعايات ضد عـليّ في الشام وسائر مناطق نفوذه .

(ب) بث عقيدة سيئة تنمو مع الايام لدى الناس في البطـــل الاسلامي الخالد علي وفي بنيه، وبذلك يأخـــذ الطريق دونهم إذا راموا محاولة من نوع المحاولات الكبرى فقـــد سمم الجو عليهم ، وغير خفي ان الآراء والمعتقدات إنمـــا تنشأ بالتلقين والتكرار والمعاودة .

(ج) تحريك أنصار علي للتمرد واستثارتهم للشغب على رجال الدولة والدولة ، وبذلك يجد السبب لادانتهم وأخذهم واحداً بعد واحد، وهذا ما وقع لحجر بن عدي وجماعة كبرى هنا وهناك .

ولكن رغم أنها تقصد إلى كل هذا ، فقد كانت سياسة هوجاء أعشى فيها عنصر الانتقام على قصد السلم الضروري إذ ذاك ، لايجاد حالة تواصل صحيح مخلص بين الدولة وبين الشعب .

والمغيرة كان إلى ذلك حَسَن التأتي فهو يفعل ما يأمر به مرجعه ، ويترك للناس حريتهم في التعليق كيف شاؤوا . « ولما هلك سنة

احدى وخمسين ، جمعت الكوفة والبصرة لزياد بن سمية . فصعد المنبر وذكر عثمان واصحابه فقرظهم وذكر قتلته ولعنهم ، فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة . ورجع زياد الى البصرة وولى الكوفة عمرو بن الحريث ، فبلّغه أن حجراً يجتمع اليه شيعة عليّ ويظهرون ألمهم والبراءة من معاوية وعمله. فشخص الى الكوفة وخطب الجمعة وأطال الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال حجر : الصلاة ! فمضى في خطبته . ثم قال : الصلاة ! فمضى في خطبتـه ، فلما خشي فوت الصلاة ثار اليها وثار الناس معه . ولم يسع زياداً الا النزول والصلاة بالناس ، وكتب الى معاوية في أمره فكتب اليه معاوية : أنْ شُدّه في الحديد ثم احمله إليّ ... فاخذ زياد حجراً وحبسه ثم حمله الى معاوية فلما دخل عليه سلم فقـال له : والله لا اقيلك ولا استقيلك أخرجوه فاضربوا عنقه ... فقال حجر للذين يلون امره :

— دعوني حتى أصلي ركعتين !

قالوا : صله ... فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال :

لولا ان تظنوا بي غير الذي انا عليه لأحببت ان تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير.. ثم قال لمن حضره من أهله :

لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً ، فاني ألاقي بهـا معاوية غداً على الجادة » ... ثم تتبع اصحابه واحداً بعد آخر فقتل عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد الى كثير كثير لا يحصون .

ألا يا سبط محمد ! إن مبادي، محمد تناديك ، وقرآن محمد يهيب بك ، الى العمل ، الى العمل السريع ، فلم يعد في القوس منزع ،

ولا في الصبر معتصم . فقد تشقق الحزام على الطبيين ، أو تمرّ في مثل نسيل الزغب :

وهبّت تُعوِل اخت حجر بن عدي بقولها :

ترفّع أيها القمر المنيرُ لعلك ان ترى حجراً يسيرُ
يسير الى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الخبير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
واصبحت البلاد به محولاً كأن لم يأتها يوم مطير
الا يا حجر حجر بني عدي تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك .. ما اردى عدياً وشيخاً في دمشق له زئير
الا ياليت حجراً مات موتاً ولم يُنحر كما نحر البعير
فان يهلك فكل زعيم قوم الى هُلْك من الدنيا يصير

وعلى إثر ذلك قام قيس بن فهدان يقول وهو مفعم الحزن كالذي فقد كل ذويه او كل بنيه :

يا حجر يا ذا الخير والأجر يا ذا الفضائل نابهَ الذكرِ
كنت المدافع عن ظلامتنا عند الظّلوم ومانعَ الثغر
كانت حياتك إذ حييت لنا عزاً ، وموتك قاصم الظهر
يا طول مكتأبي لقتلهم حجراً ، وطول حزازة الصدر
قد كدت أصعق جازعاً أسفاً وأموت من جزع على حجر .

فدمعت مقلتا الحسين وقال بصوت بينه وبين نفسه : لولا بيعة سبقت لسرت بالناس ، وثرت بالظالمين حتى يحكم الله بيني وبينهم والله خير الحاكمين .

وبينما هم جلوس لم يتفرقوا بعد ، جاء البريد بكتب الى الحسين

وعبد الله بن عباس فكان هـذا أسرعهما الى فض الكتاب . فاذا بزياد « يعتذر في شأن حجر وأصحابه ، فألقى الكتاب راجفاً مرتعداً وهو يقول كذَب ! كذب ! ثم أنشأ يحدث: إني حينما كنت في البصرة كبر الناس بي تكبيرة ثم كبروا الثانيـة والثالثة . فدخل عليّ زياد فقال :

هل انت مطيعي يستقيم لك الناس .. فقلت : ماذا ؟

فقال : أرسل الى فـلان وفلان ناس من الاشراف ، فاضرب رقابهم فانه يستقيم لك الأمر .. فعلمت أنه صنع بحجر وأصحـــابه مثل ما أشار به عليّ » .

وكان على المدينة يومئذ مروان بن الحكم فترقى الخبر اليه ، فكتب الى معاوية « يعلمه ان رجالاً من أهل العراق قـدموا على الحسين وهم مقيمون عنده يختلفون اليه .. فكتب معاوية الى الحسين:

أما بعد : فقد انتهت اليّ امور عنك لست بها حرياً ، إن كانت حقاً فقد أظنك تركتها رغبة فدعها ، ولعمر الله إن من أعطى الله عهده وميثاقه لجدير بالوفاء ، وان أحق الناس بالوفاء لِمَنْ أعطى بيعته ، من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بهـا . وإن كان الذي بلغني باطلاً ، فانك انت اعدل الناس لذلك . فعظ نفسك ، وبعهـــد الله أوفِ ، فانك متى تنكرني انكرك ، ومتى تكدني اكدك . فاتق شق عصا هـــذه الامة ، وأن يردهم الله على يديك في فتنة . فقد عرفتَ الناس وبلوتهم ، فانظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، ولا يستخفنّك السفهاء والذين لا يعلمون » .

وكان وقع كتاب معاوية عنـد الحسين وهو يرى من مهازل

الحكم ومآسيه وقع النار في الهشيم، فما تلبّث حتى كتب الى معاوية كتابه الخالد الذي كان كوثيقة اتهاميـــة خطيرة للسلطات العليا وقائمة إحصاء بالاعمال الاغتيالية التي ارتكبتها ، وكان الى هـــذا كاستجواب وإنذار شعبي قال :

« اما بعد : فقد بلغني كتابك تذكر فيـه ، انه انتهت اليك عني امور انت لي عنها راغب وانا بغيرها عندك جدير، وان الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد اليها الاّ الله تعالى .

وأما ما ذكرت انه رقى اليك عني، فانه إنما رقاه اليك الملاقون المشاؤون بالنميمـة المفرقون بين الجمع ، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن الاعذار فيه اليك والى أوليـائك القاسطين .. الست القاتل حجر بن عدي اخا كندة واصحابه المصلين العابدين ، الذين كانوا ينكرون الظلم ويستفظعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولا يخافون في الله لومة لائم؟ ثم قتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم الايمان المغلظـــة والمواثيق المؤكدة ، جراءة على الله واستخفافاً بعهده ؟ اولست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله العبد الصالح الذي ابلته العبادة، فنحل جسمه واصفر لونه، فقتلته بعد ما أمّنته واعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من رؤوس الجبال ؟ اولست قد سلطت زياداً على الناس يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم ويصلبهم على جذوع النخل ، كأنك لست من هذه الامة وليسوا منك ؟ اولست قاتل الحضرمي الذي كتب اليك فيه زياد أنه على دين علي ، ودين علي هو دين ابن عمـــه الذي اجلسك

مجلسك الذي انت فيه ، ولولا ذلك لكان شرفك وشرف آبائك تجشّم الرحلتين رحلة الشتاء والصيف ؟

وقلت فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، واتق شق عصا هذه الأمة وأن تردهم الى فتنة . وإني لا أعلم فتنة أعظم على هذه الأمة من ولايتك عليها ، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني ولأمة محمد أفضل من أن أجاهدك ، فان فعلت فانه قربة الى الله وإن تركته فاني أستغفر الله لديني وأسأله توفيقه لأرشاد أمري .

وقلت فيما قلت : إني إن أنكرتك تنكرني وإن أكدك تكدني ، فكدني ما بدا لك فاني لأرجو أن لا يضرني كيدك ، وأن لا يكون على أحد أضر منه على نفسك . لانك قد ركبت جهلك وتحرّصْتَ على نقض عهدك ، ولعمري ما وفيت بشرط ولقد نقضت عهدك بقتل هؤلاء النفر الذين قتلتهم بعد الصلح والأيمان والعهود والموائيق ، فقتلتهم من غير أن يكونوا قاتلوا وقتلوا . ولم تفعل ذلك بهم إلا لذكرهم فضلنا وتعظيمهم حقنا ، فقتلتهم مخافة أمر ، لعلك لو لم تقتلهم مت قبل ان يفعلوا أو ماتوا قبل أن يدركوا .

فابشر يا معاوية بالقصاص واستيقن الحساب ، وأعلم أن لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وليس الله بناس لاخذك بالظنة ، وقتلك أولياءه على التهم . ونفيك أولياءه من دورهم الى دار الغربة . ما أراك إلا قد خسرت نفسك وتَبّرْت دينك ، وغششت رعيتك ، واخربت أمانتك ، وسمعت مقالة السفيه الجاهل ، وأخَفْتَ الورع التقي والسلام . »

كان جديراً بهذا الكتاب ان يحرك في هيئة الحكم ضمائرهم ويردهم من غواياتهم ، ويضع حدّاً لسياسة الدماء أو على الاقل يخفف من اساليب البطش والاعتساف . فان صلة الراعي بالرعية صلة العاطفة المخلصة ، وكلما كانت صلةَ المنفعة الخالصة فهناك يوجد افظع شكل من اشكال اللصوصية والاغتصاب .

نعرف ان احصاء الاخطاء على المخطيء يدفعه نفسياً الى تصحيح الخطأ إلا اذا بنيت النفس على الشذوذ ، كمن يتعطش الى الدماء بما فيه من وحشية كامنة ، فهذا يحس بلذة في نَهْر الدماء واهراقها وتأخذه نشوة خفية بترادها وتعدادها . الا اذا استحال إحب الذات الى فكرة ثابتة ، فيستحيل الخطأ الى صفة نفسية ثابتة ايضاً هي قصدا لخطأ ، فلا يزال صاحبها يقصد الاخطاء ويفعل الاجرام بمحض الرغبة في توفير شهوات الذات وتنمية كبريائها .

وهذا ما قد حدث بالفعل في حاشية معاوية ، فلم يكن للكتاب من أثر سوى ما عبرت عنه رواية التاريخ أبلغ تعبير : « لما قرأ معاوية الكتاب قال :

لقد كان في نفسه ضب ما أشعر به .

فقال يزيد : يا امير المؤمنين . اجبه جواباً يصغّر اليه نفسه تذكر فيه اباه بشر فعله ... ودخل محمد بن عمرو بن العاص فقال معاوية :

اما رأيت ما كتب الحسين ؟

قال : وما هو ؟.. فأقرأه الكتاب . فقال : وما يمنعك ان تجيبه بما يصغر اليه نفسه . قال يزيد :

أرأيت – يا امير المؤمنين – رأيي ؟ ! فضحك معاوية وقال :
امّا يزيد فقد اشار عليّ بمثل رايك .
قال محمد : قد اصاب يزيد .
قال معاوية : اخطأتما . أرأيتما لو اني ذهبت لعيب عليّ فماعسيت ان اقول فيه ومتى ما عبت رجلاً بما لا يعرفه الناس لم يحفل به ولا يراه الناس شيئاً وكذبوه ، وما عسيت أن أعيب حسيناً والله ما أرى للعيب فيه موضعاً .قد رأيت ان أكتب اليه اتوعده واتهدده ، ثم رأيت ألا افعل »

بعد هذا لم يسع الحسين إلا ان يشرف كثيراً من دنيا الهيكل التي يتحنّثها ويعيشها ، الى دنيا الناس التي تعج بمجموعة الاحياء وتختلط وتمور بالبغي ، يصلح منها ما وسعه إصلاحه ويجد ما استطاع من طغيان السلطات على الجماعات والافراد .

ويظهر ان السلطة في كل مكان كانت قد اتخذت لنفسها منهاج عمل شاذ ، فهي تسعى للحيازة ما وسعها دون التقيد بقانون او نظام ، فشاعت حقوق الضعفاء ضياعاً تاماً واضطر الافراد الى استعمال وسائل قوتهم للاحتفاظ بحقوقهم او دفع عادية الضيم عنهم ، حتى اضطروا اخيراً الى إحياء واعتماد الوسائل الشائعة قبل نشوء الحكومة النظامية من مثل ما يسمونه « حِلْف الفُضُول » ، وهو يعبر عن تكتل افراد او جماعات على وجهة نظر تتعلق بالخير وحماية الضعيف . وتكون مثل هذه الوسائل ضرورية في غير وسط الحكومة النظامية بالطبع ،ولكن الحاجة اليها

في وسطها معناه ان الحكومة نفسها باتت خطراً على الأمن والحقوق .

« كان بين الحسين وبين الوليد بن عتبة ، وهذا يومئذ امير على المدينة ، منازعة في مال كان بينهما ، فتحامل على الحسين في حقه لسلطانه . فقال الحسين :

احلف بالله لتنصفنني من حقي او لآخذن سيفي ، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ثم لأدعون بحلف الفضول !

فقال عبدالله بن الزبير وهو عند الوليد : وانا احلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه او نموت جميعاً .. وبلغت المِسْوَر بن مخرمة الزهري فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان التيمي فقاله » .. ويظهر ان الخلاف رفع الى معاوية واستصرخه الوليد على الحسين ، فكان من معاوية تدخل وكان منه ميل بالضرورة الى جانب الوليد .

« فقال الحسين لمعاوية : اختر مني ثلاث خصال ، إما أن تشتري مني حقي ، وإما أن ترده عليّ ، او تجعل بيني وبينك ابن عمر او ابن الزبير ، وإلا فالرابعة وهي الصَّيْلَم .

قال معاوية : وما هي ؟

قال : اهتف بحلف الفضول .. ثم قام فخرج مغضباً ، فمر بعبدالله بن الزبير فأخبره فقال : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدن ، او قاعد لأقومن ، او قائم لأمشين ، او ماش لاسعين ، ثم لتنفذن روحي مع روحك او لينصفنك ! فبلغت معاوية فقال : لا حاجة لنا بالصيلم .. ثم أرسل اليه : أن ابعث فانتقد مالك فقد

ابتعناه منك » .

ان حلف الفضول كان يعبر عن ثورة منظّمة غير هائجة ولا متخبطة دائبة الحياة دائبة الترويع ، يطلقها الشعب بمقدار ويضمها بمقدار ، يجمعها الصالح الاجتماعي كما ينشرها هو أيضاً في تقدير موزون .

*

في جسم الباطل حاول الحق أن يجد نقطة يتركز فيها ...
وما هو حتى امتدّ وتفرّع ، وأخذ على الباطل سبيل امتداده ...
فذهب في ضمور شيئاً وراء شيء وضاقت به الحياة فلفظته ...
واذا به يبحث عن وجوده في عراء العـــدم ، وهو خِضَمٌ لا يد بالوجود ...

*

في المحيط الملح ينبثق نبع عذب يكون بيئة للآليء ...
فأغري المحيطُ بلآلئه فراح يعتصر طبيعته في مثلها ...
ولكنه تمخض طويلاً وانكشف عن حصى تارة ، وتارة عن دنيا من الملح المرير ..

*

في لوح حالك وقعت نقطة نور ...
فنشرت أشعتها وكان السواد أكثر إظهاراً لطبيعتها ، وإبداءً لما اجتمع في وجودها من سنى وسناء ...
وراح السواد كلما تغيّظ وبالغ في إظهار طبيعته ، يضيف الى كوكبة النور جِدّةَ إشراق ...

*

وكان كلما ذهب يقول : «أنا» يشرق بحسك الشعاع وأشواك الضياء ، فتحتضر كلمته دون لسانه ...

فلم يقع في سمع الحياة، إلا كلمةٌ قالتها كوكبة النور ، ومشت بها الحياة في التاريخ ، ورجّعتها أبدية الضمير ...

obeikandl.com

مع أُرَيْنِب

هناك على شاطيء دجلة في زاوية خليج البصرة، كانت «الأُبلّة»[1] مهوى متماجنين ومتماجنات، ومهبط وحي الهوى والشباب، وملهى كل فتى وفتاة بَلوَرَ المرحُ طبيعتهما ثم أطل ينظر الى صورته فيها. وليس في حس هؤلاء عن الحياة، سوى انها شيء يحلو ويلهو، كانداء السحَر في شفاه الاقاح والياسمين، وكلؤلؤآت الطلّ في خدود الورود والرياحين.. فهم يفنونها سكرى مرح ونشاوى مجون.. ولا يطيف بسمعهم سوى نغمات تتناهى متلاشية في هذا القرار:

يا للشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

ففي اعماقهم صوت يهيب بهم الى التجنيح في فضـــاء المراح، والفناء في لاوَعْي الطَرْف الغزِل.. وهل الحياة من واجهة الشباب سوى اغراءة تقوم في اللهو العابث الى اخرى تستوي في المجانة اللاعبة؟ ثم هل الدنيا سوى إغراء متجلبب باغراء، يبالغ في اسْره حتى ليستدني اليه من احتضر الشباب في قلوبهم بالعمر او بالفكر، فيستهويهم وربما استغواهم ايضاً بما يتنفّس به من خَلَب:

إن بالحيرة فَتّاً قد مجنْ فتن الرهبان فيها وافتتنْ

---

(١) نهر الابلة كان متنزهاً معدوداً في جنات الدنيا الثلاث.

ترك الانجيل حيناً ، للصبا ورأى الدنيا مجوناً... فركن

هذه قصة شاب احتضر الشباب بين برديه بفكرة التقوى ، ولكنه أطلّ الى الحياة من كوّة المعبد المتكلل بالصمت الوقور ، فرأى ما تجيش به من إغراء وما يتموّج فيها من فتون . فملأت عليه نفسه واستوت طيوفها في ناظريه ، فاستيقظ شبابُه الغافي ومشت روح الشباب تتراقص في قلبه سكرى .

مضى في ظنه ساخراً .. يجرب هذا المجون حيناً فقط ، ويروّي ظمأة الصبا المكبوح ، ثم يعود فيحمل كتاب تقواه . بيد انه رأى الدنيا لا تتكشف إلا عن مجون . وكلما نضت ثوباً مسّته لمسةُ فتون ، ودبّ في حناياه من شُواظ الشباب طائف جنون ، فكان طبيعياً أن ركن .. واذا بفكرة التقوى لديه تنقلب هي التجربة ، ويستنيم مسترخياً على متن موجة مزبدة ، من مجانة هذا الوجود المسحور . بهذا كان يتحدث « الدلال [1] » في جمع من ظرفاء الحجاز جمعهم التصادف في الأبلة بينهم أشعب ، فقال له هذا :

من ثَمّ لم يكن من همك ابداً إلا جمعُ الرجال الى النساء ، وملء الدنيا بصخب المجون وعربدات الجنون . ان كل هذا رأيك فعسى ان تضع الاقدار في طريقك صاحبَنا الاعرابي الشوهة ، فتمتع حوباءَ قلبك بالمجانة اليه أسخن الله عينك ، ان المجون لا يملح إلا مع جمال او ظرف .. فقهقه الدلال وانقلب الصحب يسائلون أشعب عن خبره فحدثهم :

---

(١) شخصية فنية غزلة ، وكان يتعاطى سمسرة الزواج وله اشبه ما يسمى اليوم بمكتب الزواج . راجع اخباره في الاغاني .

دخلت يوماً على الحسين بن علي ، وعنده « أعرابي قبيح المنظر أشد ما يكون قبحاً مختلفُ الخلقة مشوّهها ، فسبّحت متأففاً ، وزاد بي التأفف فقلت للحسين : بأبي انت وأمي . اتأذن لي ان اسلح عليه .. فابتسم يظن ان الاعرابي يعرفني بالمزاح فيحتملهامني.

فقال الاعرابي متهكماً : إن شئت .. ومعه قوس وكنانة ففوّق نحوي سهماً وواصل : والله لئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها .. وانقدحت عيناه ولمست منه الجد في الشر فقلت للحسين : جعلتُ فداك . أخذني القَوْلنج وعسر الخروج !» وطفق الصحب يضحكون في رنين متجاوب طويل .

كان يوماً مفعماً بسيل من غرانيق الفتيان وغواني الفتيات ، هذا النيروز .. حتى كأن الحياة اتخذت فيه معرضها ، فاطلعت اقصى ما في إبداعها الفني من آيات الجمال ، الناطقة بالهوى والداعية بألق الاغراء الى الحب ، والمشيرة باسر السحر في العيون والشفاه الى فردوس الخلد السعيد ، ولا عجب فنهر الأبلة معدود أحد مسارح الجنان على الارض في حس هؤلاء .

وكان يزيد — الشاب الطريرالذي بالغ فيه نزق الشباب وذاب في لعابه — قد ذهب موغلاً في الصحراء منذ حين يصيد الظباء ، ويتبع آثار السوانح من الجآذر والآرام والوعول والايائل كيفما ذهبت وانعرجت . ولذته المطاردة واخذته نشوتها فمضى يلهو ولا يألو ، وزمرة لهوه تتبعه . انه لا يلوي على شيء في مداه .

لم يشعر الا وهو بين جموع اللاهين في نهر الأبلة ، فالتفت يضحك الى رفاقه متعجباً : لقد قطعنا صحراء الشام الى العراق

ونحن لم ندرك ... ومال يوبّت على كتف تِرْب من اترابه ضاحكا منتشياً ، ويتأبط ذراع هذا ، ويدفع ذاك لاهياً عابثاً . انه يحس بحياة جديدة ودنيا جديدة .

راح يتنقل بين الجموع وفي إثره « سرجون » راعي طفولته وصباه ، ولكنه وقف فجأة عند سرادق مُنيف عرف انه سرادق امير العراق عبد الله بن سَلاّم القرشي . فقد اخذته بغتةُ وجهِ غانية نصَف ، كبغتة بدر انشق عنه الغمام واسْتَعْرَى دونه ليل بهيم حالك فرجّ نفسه رجاً عنيفاً وتلبّسه دوار الجمال ، الذي مال يتلاشى بطيئاً لينكشف عن غفوة في حب القلب وتلهّف العقل السليب ، تمده يقظة في الغرائز المفعمة .

كان في خياله وجه يتنفس بمثل عَبَق الزَهر ، وعينان تبثان مثل السحر ، وشفتان تنطلقان بمثل ذوب الغرام . وزاده بها أن قلبها لا يتجاوب بصدى عواطفه ، فتدور عاطفتُه نصف دورة وتنكسر متلاشية فلا تتم دورتها ، بل تَمّحي رسومُها في انبهام كالح وغموض يائس متجهم وتَغَوّرٍ فيه ضجيج الانتحار . .

والمرأة تزيد فيها جاذبية الأنوثة نضجاً ورواء اذا أضحت زوجة ، فقد انحسرت أكمام طبيعتها المغلّفة تنشر أريجها كالزهرة ميّاسة ناعمة في الهواء . إن المرأة تحس بشيء مبهم وهو جوهرة الانوثة في أقصى كيانها ، فهي ترعاه بسياج الحياء كأنها تحتضنه بكلله ، فاذا استحالت زوجة فقد استحالت الآن فقط أنثى كاملة المعنى . لقد أضحت لؤلؤة الانوثة الحبيئة في حِقاقها والمنطوية عليها صدفتُها ، وهي حلية منشورة .

فيما بعد عرف يزيد عن عروس أحلامه هذه ، أنها أرينب ابنة

إسحق الامير ، وسيدة السرادق. فعرضت في خاطره كلمات متقطعة هاذية فراح يحدث نفسه :

كيف لي بها ؟ بيني وبينهـــا هُوّة سحيقة ومسافة تزيد مع الايام تنائياً وبعداً ...

وتلبّث زمناً لم يكن بالقصير ، يَرُود مغناها ويُراوِد قلبها ولكنها عربيـة الاعراق وإن كان هو الشابَ النضير ، فبينها وبين قرينها ما شاء الهوى العَبِق وما شاءت سعادة الازواج الخلطاء .

بات كاسفاً أرقاً يردد ولا يفتأ :

وفي الحي نُعْم قرةُ العين والهوى وأحسن من يمشي على قدم نُعْمُ

وتخوّف مربيه سرجون فزين له الرجوع الى الشام لعله يسلو ، فأجابه وعاد بصحبه يريدون دمشق. وبينما هو آخذ بحاجز الصحراء ومفاوزهـا ، حانت من يده لمسة وقعت على قوسه الذي فصل في غدوه يصيد به الظباء ، فتذكر ريمـه الذي صاده .. فشد القوس اليه واعتصره بين يديه في ثورة قلب :

حطّم القوس على صحرائه واتكى يسقيه من ماء الشكاةْ
أيهـــذا القوس انت مَثَلٌ مِثلُ قلبي ، حطّمتْه العاصفات
وسأحييـك بِنَهْلّ الدموع إنما دمع المحبين حيـــاة ...

لم يزده بعـاده في دمشق إلا كمداً وأسى ولم يورثه الهجران إلا لهفة وجوى ، شأنَ الذين يحبون بغرائزهم . فعواطفهم أبداً تكون عنيفة مهتاجة على الذكرى لانها وحي الاعصـاب .. بينما العواطف اذا كانت من وحي القلب او حاسة الفن فانها تذكو وتسمو بالتلهّف العـــاطفي ، فالحب الذي يكون عاملَه القلبُ او حاسة الفن ،

يذهب في استحالات متواصلة : عذرياً ، فمثالياً . بينما حب الاعصاب يشتهي اعصابا وجسداً فقط ، يهيج بالفراغ ، ويهمد بالامتلاء .

فتناهى « أمر يزيد الى ضمور » وسلوى المتع والانكماش على نفسه في أي مكان اشتمل عليه .. فهذا الذي كان يملأ القصر لهواً ومرحاً ، ويقطع الليل عربدة سكرى ، ويزين معاني الانس بشاشة وحبوراً .. والذي لم يكن من همه إلا أن يقطف من رياض الغواني الكواعب باقات زغابق وورود ، ويهتصر منهن غصوناً لدنة ، ويعتصر عليهن رماناً شهياً ، غدا ذاهلاً ذهول المقبل على الموت ، ضاوياً كأنه نِضْو فلاة او منزوف دماء ، حبيسَ هوى ومُبْلَس خيال ، غير شهي الى شيء من ملاهيه ، التي كان لا يستطيع عنها صبراً ولها مجانبة وفي انتهابها احتشاماً . حتى اضطر معاوية أن يزجره في رفق ويأخذ عليه تهتكه في تحيّل ، فقال :

« يا بني : ما أقدرك على أن تصير الى حاجتك من غير تهتك . يذهب بمروءتك وقدرك وأنشده :

انصب نهاراً في طلاب العلا ... واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى اذا الليل أتى بالدجى ... واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي ... فانما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً ... قد باشر الليل بأمر عجيب »

أما اليوم فهو مدنف كَلِفٌ مصروف الهوى ، لا يُرَى إلا منتحياً الى نفسه في ظل شجيرات كان يتشهّى فيئها ساعة غزل او طرب .

وكان سرجون مربيه يراقبه من بعيد ، ويلازمه دون أن يراه

او يلمحه . فانتهى الى سمعه من نجوى يزيد لنفسه :

أواه ، أرينب! يا من لا تشعرين بوجودي وآلامي وخلجات قلبي ، واراك ملء الدنيا لذاذة ومتعة ونعيماً . آه ليتك تشعرين ! إذن لكنت سعيداً .

آه ! هل تصدق أحلامي فاراك عند يدي ، تنحنين عليّ فتضمدين جراح فؤادي ، وتملئين وجودي إشراقاً بألق وجهك العبقري الحسن . حُلم سعيد ، ولكنّ دونه مفاوزَ الجحيم العبقرية الاشواك والأهوال أيضاً .. ثم أطرق وتناهى به الاطراق ، ولبث طويلاً كأنما ابتلعه ضباب المساء في ليلة رمى بها الشتاء في العاصفة . على أنه رفع رأسه اخيراً ، وعيناه تدوران في بريق مخيف يقول :

لا ! لا! إنني لن انتظر هبة الأقدار حتى تضعها في طريقي وردة مُصَوِّحة ، إن الضعيف في شرع الطبيعة الحية حَمَلٌ منهوب ، والقوي هو ابن الطبيعة البكر وقد وهبته سائغاً زلالا ، كل ما استطاعت أن تلفّه قوته ، او مر بي جوها .

هذه هي الحقيقة الفذة التي نراها بين أدنى الاحياء وأعلاها ، من بديّ النبات الى أرفع الانسان .

وأما أولئك الذين شرعوا الشرائع والنظم ، وحددوا مسير الحي فيما سموه أخلاقاً فانهم جبناء ضعفاء وانانيون ايضاً ، قعدت بهم قوتهم عن أن يدركوا أي نصيب من متع الحياة ولذاتها او ادركوا نصيباً حقيراً ،فابتكروا قانون الأخلاق والقانون ،وحددوا سَعي الأحياء على طبقها ، فأوجدوا لأنفسهم أوفر فرص الحياة المانعة .

ان هؤلاء أدنأ من أن أحترمهم ، إنهم ضعفاء مموهون خلبوا الناس بأساطيرهم ، فياويح الجاهلين .

إنهم شاؤوا العيش على حسابنا نحن الأقوياء ، وحيازة النصيب الأوفر أيضاً ، ألا كيف يفكر الناس الحمقى التعساء؟!الا أدري ..

إنني لا أفهم معنى لهذه النظم سوى أنها سموم الضعفاء ، ينفثونها في جونا نحن الأقوياء لنسترخي ، فيجد الضعف في جو القوة فرصة البقاء .

إن ما أفهم هو هذا فقط : إن الحياة واللذة والسعادة فرص ، والقوة وحدها سبيل الاستحواذ عليها ، فالحياة هي القوة .

إن الأسد قد يعف — وهو نهيك جوع — عن الطعام الحقير الوضيع لأنه لا يجد فيه لذة القوة ، ولكنه لا يعف عن الضراوة أبداً والختل والافتراص أحياناً وهي مجلى القوة . فالذي تمليه طبيعة الاحياء : قسوةٌ ، وبغي ، ولذات . هذا ما نجده كلما حللنا عناصر الحياة وانواع الاحياء ، فمن أملى على اولئك الجبناء أساطيرهم ؟ إنه ليس أحداً ، سوى الجبن والعجز وخوف الآلام .

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

نعم ! نعم ! إنما العاجز من لا يستبد !

أرينب ! أنتِ حلم سعيد وقد بت متعة قريبة المنال مني!

أرينب ! لتقم في سبيلك سيول الدماء ورابيات الجماجم والاشلاء ، فانني سأسير عليها اليك في ابتسامة القسوة وقهقهة جبروت البطش ! إن أنين الفريسة — وعظامها تتقضقض بين فكي الاسد — يطربه ويشهيه ، لانه مقاطع من أنشودة كبرياء الذات

وكبرياء الوجود ، فان معنى نشيد الأنين : أنتَ أنت هـو الجدير بالوجود وحدك . . ولذا كان الأسد لا يطعم إلا على ألحـان ناي الأشلاء .

أرينب ! أنت عروس أحلامي ، وستصبحين غما قريب عروس لذاتي! فما أجملها نشوةً وجسمك البض أهتصره بين ذراعي المشتعلين واعتصره في وقدة الضلوع المتلظّية ، وقوامك يتأطّر ويتثنّى تثني الأفعوان ويتلوّى تلوي الحيزران . فما أحيْلَى قربك !.. إنه دنيا من اللذات العذاب ، ولو لُفّ في جحيم العَذاب !

أرينب ! إنني سوف ألهـو بك أمداً كالزهرة ترودها النحال بتلهف الى الامتصاص ، ثم سيان عندي أذكرتك أم نسيتك بعد ، ألست أمرأة والمرأة لعبة الرجل ومتعته فقط ولا شيء وراءهما ؟ ثم أليست النساء في النوع رياحين كما قيل ، وهي تذهب في شمات أو دونهـا وتبلى فتنتها . . فاغتنميها فرصة لذاذة كبرى معربدة ، وأنت فيها فواحةٌ بالعبير .

آه ! إن ظمئي لا يرويه إلا سيل من دماء ، إذا وقف في وجهي ذلك العلج ابنُ سلاّم . إنني أحس بأسناني تتأكّل كأن عليها حكة جرب ، إنها تشتهي مضغة من كبده ألوكها ! إنني لأشعر بان في أسناني أسنانَ هند جدتي يوم أحد وهي تحرّق الأرّم على كبد حمزة ! سوف أبارزه فأقتله أو أترصده فأغمـد فيه وراء السيف يدي . . ولم يزل مع طيوفه التي أخـذت تتجسم له ، فيراها قريبة منه دانية اليه ، وكأن طيف ابن سلام عرض له في بعض الطيوف فهب يخترط سيفه وقبض على قائمته ، وهزه في الهواء هزات ، ضحك

في إثرها ضحكاً عصبياً . وفجأةً تقلّصت تقاطيع وجهه وارتد الى الوراء فزعاً متعقد الأيدي يقول فقد عرض له طيف العدالة : إنني يزيد ! يزيد الامير .. ولكنه لم يزل يرتد الى الوراء في ذعر يقول : لست ، لست أنا ! هي هي أغرتني !.. وعراه دوار فقد أخذته أعراض حمى خبيثة وكان يهذي تحت وطأة الداء ، فوجل سرجون وجلًا شديداً ولم يجد بداً من ان يتعرض له ويقطع عليه ما هو فيه من خيالات .

أفاق بعد حين ، وزايله ما كان فيه من هذيان فقد تماثل نحو الشفاء والابلال من الداء ، وبقي في تصميمه ثابتاً اغتيالُ الرجل وانتزاعُ معشوقته انتزاعاً ، رضيت أم أبت . وعرف منه سرجون ذلك العزم وخشي مجازفته ، فأسرّ الى والدته ميسون ابنة بجدل الكلبية بكل خبره فأطرقت برأسها وقالت :

فذاك مرضه إذن .. وكان يزيد وليدها الاوحد المفدى فلم تطق آلامه في سبيل امرأة ، ولم تطق أبداً لرجل مهما كان خطره ومنزلته أن يحول بين ابنها ورغباته ، فقالت تخاطب سرجون : ومن هذا ابن سلام زوجها ؟

قال : هو أمير العراق من قبل الملك .. فانقلبت ضاحكة تقول: يكون من عمالنا ويقيم له يزيد هذا الوزن ؟ اننا نحن نرفعه او نخفضه . ثم هل هو إلا منفذ لرغباتنا عليه ، هو صنيعتنا فيجب أن تكون زوجته احدى إمائنا ، نتصرف فيه وفيها كيفما نهوى . انني لا اطيق ان ارى يزيد واجماً من اجل امرأة يشتهيها ، ولست اطيق ان اسمع انه يُمنع عنها بالغةً ما بلغت منزلتها .

بلغ الملك أني لا اطيق أن ارى يزيد محزوناً يبكي ، بلغه. أن هذه المرأة يجب ان تكون في جملة اماء يزيد يعبث بها ويلهو !

قال سرجون : لعل زوجها لا يرضيه تركها ، او لعلها لا ترضى هي إن كان منه ذلك ....

قالت وضربت بيدها على وسادة بجنب مقعدها : وما قيمة رضاه أو رضاها؟ اننا نريد ذلك وكفى !

فابتسم سرجون وقال : اظن الاميرة لا تعني تماماً ما تقول او لا تجدّ كل الجد . فلابن سلاّم خطره، ولو لم يكن بذي خطر فلا يسعنا انتهاكه انتهاكاً مكشوفاً وتحدّيه في شرفه. ولكن نستأتيه في غير شعور منه .

قالت متأففة متبرمة وهي تهز كتفيها : إنني لا افهم معنى لخشيتك ...

فقال وتمثل له عهده في بلاط الغساسنة وهو اكثر رعاية للحقوق: ولكنك تفهمين فقط معنى خدش كرامة الرجل ؟!

قالت : اذا كنت ترى في ذلك بأساً فاستأتِ كيف شئت ، فأنا اريد ان يصل يزيد الى غرضه كيفما كان ، وليست تهمني الطرق التي ستسلكها . إنني اريد ان تقر عين يزيد بها، ولا يعنيني ما وراء ذلك . . فاستدار سرجون على عقبيه وهو يقول :

اما كذلك فنعم ...

*

دخل سرجون مجلس الملك ومن حوله حاشيته يتدبرون امر يزيد وما عساه ان يكون طرأ عليه . وبدا معاوية مغتماً فهو لا يطيق

سماع ان يزيد مكتئب ، وهو بكر الامارة المترع بالدلال ، وفي قرارة نفسه ان يقر به عيناً وهو ولي عهده ، كما زاد به ضناً بعد ان « اصاب منه سيف الخارجي مسرى البنين » .

كان فيما يسيطر على المجلس من وجوم ، ما جعل سرجون يقف طويلاً قبلما أسرّ الى معاوية بشأن ابنه البكر ، رغم قربه من معاوية ومنزلته المرفوعة الحجاب لديه . وظل واجماً هو ايضاً . فقد عدته روح المجلس وسيطر عليه جوه حتى قطع الوجوم عمرو بن العاص بقوله :

وماذا تظنون أصابه وهو في جسم الفيل ونشطة النمر ؟ .. وابتسم ، لعل احدى غانياته المدللات فاركته وقطعت اسباب وده .

قال معاوية : ما هذا يا عمرو ؟ !

قال : لم يقع في مدى خاطري سوى هذا ، وعلى كل « فهو امر لا يوقف عليه الا من جهة والدته » ، لعلها تنتزع من بين شفتيه كلمة سره الرهيب ... وأطالها كالساخر .. وهنا وجد سرجون مناسبة الافضاء اليه ، فمال على أذنه يسارّه وما لبث ان ضحك معاوية وهو يقول :

عند ظنك يا عمرو ، ولكنها غانية جديدة !

قال عمرو : وان شئت قل صيدة جديدة ... فابتسم الحضور وطلب معاوية ان يخلو بنفسه سوى عمرو . فقال :

من اربنب ؟ وهل تعرف عنها شيئاً ؟

قال : نعم . هي من « أعرق الحجازيات نسباً ، واكثرهن مالاً ومثلٌ في الجمال بين غرائر زمانها » ، كانت عند عدي بن حاتم من

قبل ، ثم صارت الى عبدالله بن سلام امير العراق اليوم .

قال معاوية : ترى أنه عزيز علينا اصطيادها ؟

قال : هو ذاك ، وأمنع ما تكون .

قال : ولكن كيف برغبة يزيد الحارة ، فانه يحز على نفسي ان يبيت آسفاً ، لا يقضي لبانته ويشبع شهوة نفسه ويروي ظمأ قلبه .

قال : وما هذا ؟؟ أ أنت ايضاً تسايره في مجونه وعبثه ، وما يدريك لعل ما يتظاهر به من كمد هو من حيله على المجون ، ومن دلاله على التنويل كي يجعل منا مطايا شهوات واوطار . ان الناس تحملوا منا ضراوة في السياسة وضراوة في الاموال الى ضراوة وضراوة في الأحكام ، ولا أراهم الا ثائرين بنا اذا جعلنا بيوتهم هدفاً لضراوة شهواتنا ايضاً ...

قال معاوية : هو ذاك . ولكن كيف لي بالترفيه عن يزيد ، فاني لا اقدر ان اراه كاسفاً ؟ ألا ففكر معي وتحايل ما وسعتك لباقة الحيلة .. ففكرا ملياً وكان عمرو أسبقهما فهتف : لقد وجدتها ، وان كان فيها تسخيرك اياي حتى لشهوات ولدك ايضاً .

قال معاوية بغبطة : هاتِ ! هاتِ ! وعساها ان تكون من وحي شيطانك يوم صفين ، وخدعة كخدعة رفع المصاحف .. يعني موفقة ...

قال عمرو : أتأخذها عليّ وبها انقذتك وبوّأتك عرشك ، وجمعت بها عليك ما هو مجتمع في يديك من اسباب الملك ، ومحتبك عليك من مظاهر السلطان ؟

قال : كانت من اجل دنيا جزيناك عليها بدنيا ، وما أظنني

بخستك الأجر .. وكسر جفن عينه اليسرى ، وكان لا يفعل هذا الا وهو يتحدى» وما يجهل عمرو منه ذلك .

فقال وشملته رهبة : رويدك إنني لا اتحداك وانما ظننتك تغمز علي .. فضحك معاوية وقد ادرك سر رهبته وقال :

لك العُتبى يا عمرو حتى ترضى ، وهل مثلك يبخس قـــدره ويُروّع ؟ وانما قصدت مداعبتك فلا تثريب عليك . طالما خدمت آل أبي سفيان ، فلست انسى بالامس كيف انقذتني وكانت يداً لك عندي ، وانا اعرف اليوم تأتّيك لانقاذ يزيد ولدي ،وهي يدٌ لك عنده ليس ينقصها .

قال عمرو : حَمَاداك ، فاني عند ظنك .. رأيت ان تستدرج ابن سلام بالألطاف « وكرائم الأموال والخلـع » ، وتريه جانب الود منك وتغريه بزيارتك والقدوم عليك . ...

قال معاوية : وبعد ؟

قال عمرو : ذلك علي حينَه...

*

فَصَل عبدالله بن سلام مذ اقترن بارينب وهو يرى حلم سعادته ينتشر ليجتمع في حدودها ، فأحلّها منه محـل القلب ، فكان اذا خلا الى قلبه وجد أرينب ، واذا خلا الى ارينب وجدقلبه . وكثيراً ما كان يقول لها : لَيخيّل اليّ أنك لست سوى قلـبي مصوراً ، وشاء أن يتجسد في شكل بنات الخلد ، فيريني كم هو سعادة وكم يجب أن أكون به سعيداً . لوَدِدتُ يا أرينب أنني أتحول هالة في في أبدية عينيك الفاتنتين ... أرينب ! آه أرينب ! ..

آه ! يا ما أسعد الازواج اذا كان لكلهم مثل أرينب !..

وكانت أرينب لا تقل عنه إحساساً بسعادتها به ، فقد عاطته منها ايضاً مثل عواطفه فقالت : او قل ما اسعدهن حقاً اذا كان لكلهن مثل عبدالله ..

قالت له صباح يوم وقد قطفا أول إشراقة من شعاعة الشمس : لا ادري لماذا ؟ لماذا يعاودني في اقصى هواجسي العميقة الخفية منذ ليال ، انك لم تعد لي ، وتعتادني طيوف خبيثة اظل منها في رهبة؟ وتعلقت به . إني خائفة !

ترقرقت في عينيها دمعتان كبيرتان ، تراخت احداهما ساقطة واستمسكت الاخرى متبلورة بين جفنيها اللذين كانا في نصف إغماضة ، فهوى يضمها اليه ضماً عنيفاً كأنه يحاذر ، فقد عراه مثل هاجسها او شر منه ، عراه ان هناك من يحاول اختطافها فهو يشدها اليه يضن بها ويفتديها .

استويا في مقعدهما ثم لم يخطوا إلا قليلاً في حديقة القصر ، حتى استأذن حامل البريد يسلمه كتاب الملك .

استطير فرحاً واستخفه الانعام الملكي عليه ، وكان مفاجئاً حتى لقد ذهل عن انه يغادر زوجته الحفيّة عنده دون ان يلقي عليها نظرة وامقة ، تشير الى انه سيعود اليها بعد متعة قصيرة بالنظر الى ما اهدي اليه .

وقفت تنظر باهتة وعاودتها هواجسها ، فلم تطق وقوفها طويلاً ، فانثنت الى مقعد قامت من فوقه متعانقات « البواري » في شكل جعل منه وَكَنَ عاشقين أو طيري حب . وقالت تناجي نفسها :

آه ! لقد وقع ما كنت اهجس به في خاطري ، والذي كان يحيك في صدري من وساوس . ليت الهدايا التي استخفته كانت عندقدمي لأطأها مستخفة بأنفس ما فيها ، ولا اقطع على نفسي لحظة قلب كان يخفق فيها بمعنى الحب وهو كل الحياة وكل السعادة ...

أتقطعه عني هدايا حقيرة ، مهما بلغت نفاستها فلن تكون إلا حقيرة بجنب ما هو دون حسوة طائر من نشوة ما كنا فيه ، بل بجنب خلجة راعشة من تلك الخلجات المفعمة ...

الآن فقط ،بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة ، ويأخذ أيّا وقع عليه بكل بصره. إذن لم يكن إلا طفلاً ، ولم اكن كل هذا الوقت سوى لعبة كبيرة يلهو بها ، ودمية حية تمتع قلبه البارد بحرارة انفاسها المندّاة...وهؤلاء الذي يرون المرأة دمية ذات حرارات، هم باردو القلوب وانما يطلبون فيها الاصطلاء والدفء فقط ، أما انا وأحس بقلبي مشتعلاً فاريد قلباً مشتعلاً ايضاً يفنيان على بعضهما في تلهب جميعاً ..

أفّ للرجل ! إنه طفل في حس القلب ولا يزيد ، ثم لا يشعر من العاطفة إلا على مقدار العبث ، وليست للاشياء قيمة عنده إلا على قدر ما تملك من ايحاء اللهو عليه وتشيعه فيه .

لا، لا! لست أرضى ان اكون عنده متاعاً صِنْوَ هذه الهدايا ، بل خيل إليّ أني احقر منها في نظره . فغادرني يخفّ اليها ولم يترك عند موقفنا، نظرة أشغَل بها حتى يؤوب ، إنها اخذت بكل هواه حتى لم أعد شيئاً أذكر ...

أفّ للرجل ! انه في دنيا القلب طفل ؛ وايضاً طفل ذو طبع

بليد خشن ...

يا لك من هدايا مشؤومة ! إنك هدايا فيك كل ما في السموم من روح ، وكل ما في الافاعي من معنى مخيف ووجود رهيب .. وما يدريني فلعلهـــا حبائل وشباك منسوجة من حمات العقارب واوبارها .. وما هو حتى رأته مقبلاً مغتبطاً ، تشيع الابتسامة المشعة الضاحكة في وجهه ، يحمل بين يديه كرائم الجوهر وعقود اللآلىء البعيدة السطوع ، المتماوجة بالسنى والسناء ، يقول وهو يقلّبهـــا في كفيه :

اليكِ ! اليكِ ! لقـــد جاءت كأنها تقول كنتُ يتيمةً حتى وجدتُك ! أما تسمعين ؟أما تسمعينها ؟.. وراح في نشوة ضاحكة ، ولكنها ظلت جامدةلا تحير جواباً . فبهت وعراه خدَر كالذهول ، فاسترخى كفاه وتساقط ما استوى عليهما من ثمين الاحجار الكريمة وهو لم يحس . وكانت تنظر وترى ، فألمت بما عراه فاغتبطت ، ولم تلبث حتى اخذته بين ذراعيها نشوى .

عند شرفة الصباح بعد ايام حيث كانا واقفين ينظران الى الافق البعيـــد ، قال وهو يحبس بعضاً من انفاسه التي أحس بانها تخرج جملةً ثم لا تعود :

لعلي لا أغيب عنكِ طويلاً ، وسوف ... قالت مرتعدة :

تغيب عني ؟ ماذا تقول ؟ ! والى أين ؟

قال : رأيت منك يوم الهدايا أنك غير مغتبطـة فلم أخبرك . جاء في كتاب الملك ايضاً انه يعزم عليّ بالحضور ، ولا أدري لماذا ؟ هدايا مفاجئة ودعوة مفاجئة ! ولكني أظن ان سعادتي بك جذبت

اليّ سعادة اخرى .. وربت على كتفها .

انتفخت أوداج أرينب وغصت الكلمات في حلقها ، ولكنها حاولتها كأنها تلوك حروفها لوكاً :

أيتها النفس أجملي جزعاً فان ما تحذرين قد وقعا

فقال يداعبها : هـــذا قول أوس بن حجر يرثي به . وها انا فجُسي يدي .. قالت ووضعت يدهـــا على فمه تأخـذ عليه سبيل الاستمرار ، فقد ارهبها ما ذهب اليه ظنه ولو مداعبة :

إنني لست أرثي سوى نفسي الى نفسي .. وحـــاول الكلام فقطعته عليه بقولها :

لست مغتبطة بسفرك ، وبودي انك لا تذهب ، بل بودي أن ترد عليه عمله وتعتزل . فلي من اموالي الكثيرة ودنياي ما يغنيك عن أمواله ودنيـــاه ، ولك من سيادتك ونشبك ما يغنيك عن التسَوّد به .

إنه يُرهبني ! انني لا أطمئن اليه ، وبه تحيط عصابة لاأدري بماذا أنعتها .. وانتزَعتها من لسانها كلمة . إنها دموية تجري وراء شهوات حمراء ، ثم لا يحول بها عنها شيء من عرف .

قال : هو ذاك . ولكني لا ادري كيف أرد عليـه . إن هي إلا ايام قصيرات المدى ، أعود اليك على إثرها وأصير الى رغبتك باعتزال عمله .. ولكنهـا ظلت ترغب اليه ان لا يرحل ، وحانت منها لفتة فرأت أفراس البريد جاءت تحمله . فلم تطق تراه يسير ، فذهبت تدفن وجههـــا في راحتيها وتجهش في نشيج مرير ، وردد عبد الله وقد تمادى به المسير ولفه قتام الركب :

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه
أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الازرار مطلعه
ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة، واني لاأودعه ...

*

كان عند معاوية بعد ايام لم تكن طويلة في غير حس أريب وحساب عبد الله ، فتلقاه بالألطاف والانس الناعم ، فعجب كثيراً وفكر كثيراً ولكنه لم يهتد لوجه الامر، وتحير به تقديره فلم يطمئن الى اي وجه انصرف اليه . بيد انه مع ذلك كان مغتبطاً ، وتزايد به الاغتباط إزاء ما يلقى من حفاوة واحترام ورعاية مقام ، حتى لم يعد يفكر بشيء الا أنه مخلوق جديد لا عهد له بالزمن .

لمس صدقاً في كل ما يلقاه من مظاهر ، وبات آملاً بشيء لم يدر كنهه الا أنه وجه بُشرى على اي حال. لم يكن يُرى الا مدعواً الى مجالس أنس معاوية ونوادي السمر الغزلية ، وإلا منتشياً على مثل الطيش في ليالي القصور الشرقية الماجنة ، التي كانت ذات نسب قريب بليالي الف ليلة الغارقة في أحلام الشهوات المعربدة .

استيقظت في نفس ابن سلام صبوة لم يكن يعهدها ، صبوة من نوع الصبوات الحادة ، فلم يعد يفكر في مدى انطلاقها إلا بأروائها ودارت فيه نهمة كأنها انفطرت من طبيعة الظمأ . فقد هبط من فردوس الحب القلبي السعيد ، وانبعثت جيّاشة عليه ، نزوات كان يكبتها القلب في نشواته العبقرية الالتهاب ، المتلظية بالشعل الحمراء .

كان في هذا الجو الخمري اللذات الممهود بخمائل الشهوات ، ما

أحال أرينب في جو نفسه الى ذكرى من الضباب لم تزل تتلبد وتحتجب ، وعاد لا يذكر إلا ما هو فيه ، وتمنى لو طال أمد هذه المتعة اللازوردية في لسان اللهب ، وتشهّى أن لا تنقضي ، وغبر منذ قريب لا يستطيع ساعة بعاد عن أرينب مهاته النابضة بالطهر في وثبات الحب القلبي الخالص ...

إنه أسفّ منحدراً الى محيط من الحمأة البعيد القرار ، وأضفت على ناظريه الوحول فلم يعد يرى ، وانما بات يحس في طراوة الوحول نعومة الزُبد ، فراح يهيم في خيال الوحول .

ان الحب في حقيقته رغبة بالاستحالة وبتعبير آخر رغبة في التحوّل ، ولمكان الشعور بوجود الذات ، يذهب الكائن اذا صدم مشاعره انفعال خدِرٌ كانفعالات اللذة على انواعها ، يحاول الاستحالة بهذا الانفعال الى وجود شعوري آخر . ولا يزال يبالغ تحت تأثير هذا الانفعال الذي يتزايد وضوحاً ، رغبة بالاستحالة حتى يطلب ملاشاة كيان في كيان حينما تستوي هذه الرغبة في الاعصاب ، وكلما زادت تمكناً واستواء زاد الكائن نهماً ، وهذا الشعور هو الذي انطق ابن الرومي بقوله :

اعانقها والنفس بعدُ مشوقةٌ اليها وهل بعد العناق تداني ؟
والثم فاها كي تزول صبابتي فيشتد ما القى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان يرى الروحين تمتزجان

فالحب البقائي او الزواجي رغبة بالاستحالة في الولد ، والحب العاطفي رغبة بالاستحالة في العاطفة ، والحب الشهوي رغبة بالاستحالة في الشهوة .

واذا كانت رغبة الاستحالة في كل الوجود ، ففي طبيعة الوجود إذن طبيعة الحب ، بل البقاء لحظاتٌ متواصلة من رغبة الاستحالة واستحالاتٌ بالفعل ، فاذا انقطعت تقلصت أسباب البقاء وذهب مضمحلًا .

تملك ابنَ سلام في ليالي القصر المسحور ، انفعالات حب شهوي طلب معها التمادي في دنيا الشهوات ، وامتلأ رغبة بالتعرف الى كل فنونها وشتى ألوانها .

في ليلة ماتعة من ليالي القصر الزاهية العَبقة ، أدناه معاوية منه وعاطاه حديثاً مُذهّب الأطراف مُغري البَدَوات . وقال له فيما قال :

هل لك زوجة ؟

قال : نعم .. فضرب يداً على يد واصاب وجهه ببعض يده ، فمال على أذنه عمرو وقد أظهر انه اغتمّ من إجابته ،وسارّه :

يا عبدالله ! إن الملك اراد ان يزوجك ابنته لِما عرف من شرفك « وأنت تعرف أن بنات الملوك لا تدخل على ضرائر » .

فقال لعمرو : كيف الحيلة ؟

قال له : اذا دخلت غداً وسألك ، « فقل ليس لي زوجة فقد طلقتها » وأشهدت أبا هريرة وأبا الدرداء ... بات ليلته أرقاً ، فقد استيقظت ذكرى أرينب الغافية في أعماق نفسه قوية عنيفة وأخذته طيوفها البادية كالملائك في أثواب طهارتها ..

فراح يتمتم : أأنا أخونها . أأنا ؟ كلا يا ملاكي ! لن أفعل من أجل شهوات رعناء تذوب لذاتها سريعاً ، وتبقى آلامها مستطيرة

مستفحلة.. واذابه يبدو مبتسماً فقد باركه طيفها. ولكن لا يلبث حتى تستجيش به شهوات موارة، تريه الدنيا والسعادة بل والخلد في حدودها، وتطلع له رؤوس فتونها فيسترخي وهو يرى السلطان والجاه وكبرياء الحكم تعنو أمام قدميه، اذا استجاب الى معاوية ورضي منه بالاقتران الى ابنته .. وتمتم :

حَسْبُ أرينبَ بكرُنا خالد، وأنا اذا طلقتها فلم أفارقها والى الابد، فصِلةُ بيننا أبداً وليدُنا العزيز .. وصمت قليلاً وعاد يناجي نفسه :

وانا اذا فعلت، ألست أخون خالداً أيضاً فوق خيانتي أمه ؟ ألست أكون قد دفعته الى الحقد عليّ ؟ وكيف أطيق هذا ولو في التصور والخيال ؟ إنني لا أطيق .. وبدا له طيف ولده خالد في طفولته الساذجة الموحية بالحب، كأنه يرجو اليه أن لا يفعل. وساورته عاطفة قلبه مُساوَرةً، فصرخ معها :

لا . لا . لن أفعل .. واستغرق في لحظة تهويمٍ انكشفت له فيها زوايا المجهول من المستقبل، ثم استفاق وعلى لسانه :

أليس في هذا التسود الشامخ ما يخدم ولدي في مستقبل أمره، فلا شك في أنه يغفر لي خيانتي، ولا شك في ان أرينب تغفرها لي أيضاً. فأصبح وقد عزم على الخيانة يعلل نفسه : بأنه لم يخنها خيانة قلب ولذلك هو لن ينساها، وحَمّل الهواءَ قبلة وداع من بعيد فهذا آخر العهد بارينب ...

وتعرضت له أطياف راقصة من بدوات الأطماع الكبرى، فساد في بهجتها كأنه يجنّح طائراً، وكان يجتهد ألا يذكر شيئاً،

يجتهد أن يشعر بانه مخلوق اليوم، وليس لهعهد سابق بالوجود .

سار غـــير مثقل باية ذكرى من التاريخ وأية فكرة تتصل بماضيه ، إنه وليد صدفة جديدة ووليد بهجة جديدة ، يقبل عليهـا بما تشاء من بهجات . فكان منه ما أشار عليه به عمرو بن العاص ، فقال معاوية لأبي الدرداء وابي هريرة :

« ادخلا على ابنتي فأعلماها بالامر على وجهه » ... فتظاهرت لديهما بالاهتمام والسرور ، وصرفتهما لتسأل عن دخلة أمره « وأثنت على ابن سلام » .

ولكن ابن سلام شعر فور طلاقه أرينب أن معاوية لم يعـد له كما كان ، بل غدا يلقاه بفتور نفس وانكماش لقاء . فأوجس شراً « وأسرع الى ابي الدرداء وصاحبه يستحثهما » ، فأتيا ابنـة معاوية فقالت :

« إنها سألت عنه فوجدته غير موافق لما تريد » ... فلما بلّغاه جن جنونه وأسقط في يده ، وعلم أنه ذهب ضحية خدعـــة لئيمة ليس يدري غايتها .

انقلب الى الدار التي أعدت لنزوله فوجدهـــا تعج بالأشباح المخيفة ، وتزأر في مثـل تجاوب الذئاب ، فاستطير ذعراً ومشى في أنفاسه هلع نكير . ففر يعدو الى الخلاء وقد انطبعت الاشباح في عينيه ، والتفّت الاصوات تمور في أذنيه . فراح يغمض عينيـــه وكفاه على أذنيه يجري ، إنه يريد ان لا يرى ولا يسمع ، يريـد غفوة في الذهول ولا هذه اليقظة المجنونة . وما استرخت كفاه عن أذنيه حتى استَعوَى به صوت :

خائن ! خائن ! وعلى يديك دماء الجريمة ، تمشي عليها أرواح ضحايا ثلاث : قلب زوجة هي تمثال الاخلاص في الحب ، وقلب غلام هو تمثال طفولة الأحلام البريئة البيضاء ، والثالثة هو قلبك انت ...

بعد ذلك أضحى ينطلق كالذي فارَ في خياله جنون ، ينقل الواقعة ويبث الشكاة وينثر الطعن نثراً دون رهبة أو وعي . وتسامع الناس بالخبر وعلقوا عليه باشمئزاز ونفور ، وبات الكثير ينظر بعضهم الى بعض في شفاه مقلوبة وتنكر ، « وهكذا ذاع امره وشاع وتناقله الناس الى الامصار وتحدثوا به في الاسمار » . ورثوا كثيراً لما انتهى اليه حاله ، فكنت لا تسمع في كل مكان إلا من يقول :

أتبلغ القِحَة بهذه العصابة حد التآمر بسعادة أسرة هانئة ، تمرح في حب وتسرح في اخلاص ؟ أما يسرها يوم ، أما تحلو لها حياة ، إلا اذا ولغت في دم أو عبثت بكرامة ؟ لقد عدَوا اقدار انفسهم ، فلا يرَون إلا راقصين على الاشلاء ، لاهين بالجماجم .

وتناهت بعبدالله الحال الى حيرة بائسة وذهول شقي يائس ، تلاحقه طيوف وتتنكر له أشباح ، وتتفوّر من حوله الآلام ، وكان لا يفتأ يقول يناجي نفسه :

لَوَددتُ اني أفر الى أرينب ، ولكن هيهات ! أنا الذي نكبتها وأشقيتها ، أأزيدها شقاء بوجهي الذي غدا تمثال الخيانة الزوجية على اقبح صورها ؟ فلأتجرّع آلام قلبي وغصص ضميري ومراراتي وحيداً منعزلاً ! كيف القاها ؟ كيف اعتذر اليها ؟ كيف استغفر

وليدي الصغير ؟ ...

رحماك ربي وحنانيك ! أبق اللهم على قلبي لا يتمزّع !

*

ظلت أرينب منذ غادرها زوجها الحبيب ، لا تشيع على شفتيها إلا ابتسامة متماوتة اذا ألحّت عليها احاديث وصيفاتها بالابتسام .

وكان الاكتئاب يتزايدها يوماً بعد يوم ،في إحساس يلحّ عليها بهول غامض تشعر به في اعماقها ينذر بالويل .

وكان لها في كل يوم جلسة تارة عند مقعد اصطباحهما في افياء البواري المخيمات ، وتارة في شرفة المساء تودع النهـــار وتستقبل كواكب الليل تبثها نجواها وزفراتها ، وتتولّه في وقفة الى ذوب الشفق الذي كأنه ذوب قلبها .

وفي يوم على عادتها وهي في شرفة المساء ، رأت عـــند أقصى الصحراء ــ التي تسترخي متكئة على عتبة دارها وفي فِنائها ــ قافلة كأنها مقبلة من جانب الشام . فلبثت تنشد فيها أملهـــا ، وإن لم تطمح به فلا أقل من أن ترسم هذه القافلة في نفسهـا رسوماً مبهمة إلا انها مفرحة ايضاً ، تتنفس في فؤادها بندى رويّ .

مرّت القافلة تخب تحت شرفتهـــا ، وكان حادي الأبل يشجي الركب بصوته العذب النغمات :

أرينب ليتني وُسّدتُ قـبراً ولم أفعـــل ، ففي الاحشاء نار
« ندمت ندامة الكُسَعيّ لما غـدت مني مطلقـــة نوار »
يطيف على فؤادي رُوحُ آهٍ وذوب أسى ،وفي كبدي انفطار
أرينب ، انتِ ذكرى من نعيم ومن طهر ، ومن عبق يثـــار

أرينب ، هل ترفّ عليّ دنيا من الاحلام ؟ هل ثوب يعار ؟
ذكرت وفي فؤادي نَوْحُ باك هـــوانا ، والضمير به أوار
وهل قَـــدَرٌ يطالعنا بفجر ويمرح في مسارحه النهـــار
فنسعد ، والأصيل له افتوار . وننشى ، والغدو له ازدهار .

فسقطت على نفسها هلكى . ولم تك إلا ايام من حلول الركب حتى شاع خبر عبدالله في العراق وتناهى الى سمعها ، فلم تعد تعي . وكانت لا ترى إلا مولهة حتى عن وحيدها المفدى . وكانت لا ترى إلا معتنقة له تشده اليها مدلهة كأنها تطلب فيه رياً ، ولكنها ظلت ظمأى وظلت كأنها لاهثة تطلب الندى والري .

لم تطق بقاءً في العراق بعد ، فقد اسودت نواحيه في نواحي نفسها ، فانطلقت بجشمها وذويها الى المدينة تطلب فيها دنيا جديدة ، تغري خيالها في أنها أصبحت مخلوقاً جديداً ، احتضر في نفسه المـــاضي والذكريات . رثت لها نساء المدينة وذهبن يواسينها بكل ما عنـــد المرأة من خصب عاطفـــة ، والنساء يحسن بالمآسي بنوع خاص مكـــبّرة ذات مبالغات ، وفي شعورهن شيوع . فهنّ يحسن بأنفسهنّ في كل مأساة تقع ، ويجدن قلوبهن في النكبات ، وهـذا الشيوع في الشعور جعلهنّ يشعرن بأحداث الآلام قبل وقوعها ، وجعلهن أصدق تطلعـــاً وأرهف حساً ، بالجانحات الصاعدات من اعماق المجهول ، والغاربات الهابطات الى اعماقه .

فتجاوبت المدينة بمأساة أرينب على ما اضاف اليها النساء من روحهن الآسية ، فكانت مأساة لاذعة الوقع وقيذة الاثر شائكة في نواحي الضمير ...

أرسل معاوية أبا الدرداء وأبا هريرة رسولين من قبله يخطبان أربنب على ابنه يزيد ، فذهبا الى العراق فبلغهما انها انتقلت الى المدينة ، فثنيا رواحلهما اليها .

*

وكان الحسين إذ ذاك قبس الهداية ومشكاة الطهر ونموذج الاخلاق الفاضلة وقبلة الانظار ، وكان الى ذلك مفزع الهاربين من وجه الظلم ، وفي رحابه ينتصف مهضومو الحقوق الضعفاء ، فما من أحد إلا ويحس في اعماقه بأن واجباً عليه أن يخشع بالمثول بين يديه ، بل يشعرون فوق ذلك بأنه رأس الواجبات . فلم يجد كل من أبي الدرداء وصاحبه حينما هبطا المدينة بدأ من ان يبدآ بزيارته قبل أي واجب آخر مهما سمت به قيمته ، فلما مثلا بين يديه يقدمان اليه انواع الاحترام بمناسبة قدومهما ، أنس اليهما وقابلهما بحفاوته التي تعودها الناس منه على اختلاف منازلهم ، وكانت فيه خليقة وطبيعة .

لكنه أحس مع ذلك بأن في مقدمهما المفاجيء حدثاً هاماً ، فقال لهما :

ألأمر قدمتما ؟

قالا : نعم .

قال : وما هو ؟ فما كتماه ان معاوية وجّههما في خطبة أربنب على ابنه يزيد . فابتسم الحسين ابتسامة من قد ادرك كل شيء ، ومن قد فهم غاية المناورة التي بات معاوية يحيك خيوطها وينسجها كالعنكبوت حول فريسته .. ونغى الى نفسه « خدعة معاوية حتى

طلق امرأته ، وانما أرادها لابنه . فئس من استرعاه الله أمر عباده ومكنه في بلاده وأشركه في سلطانه ، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله اليه امره » .. وواصل : لن تهنأ لي حياة إلا باعادة مياه حياتهما الى مجراها ، ولن تقر عيناي وأسعد ، إلا اذا قرت عيناهما بالعودة وسعدا ، ففي سعادة قلبين مخلصين ينبضان بالحب ويخفقان بالعاطفة البريئة سر سعادتي . فعليّ ان اهدم على معاوية أحابيله وأصيده بشباكه . أفٍّ للهاشميين الذين يرقصون على الاشلاء ويبتسمون في دموع الناس ؟ لقد استغواه فبات ابن سلام طُعماً في الطُعم .

فقال الحسين لها : لقد « كنت اردت نكاحهـــا ، وقصدت الارسال اليها ، فاخطبا عليّ وعليه واعطياها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ولتتخير » .. استأذناها بالدخول ، وبعد ان استوى بهما مقعدهما ، قال ابو الدرداء :

أيْ بنية ! انك لم تزالي شابة في عنفوان الشباب وميعـــة النشاط ، وانا بك جد ضنـــين ان تذهبي نهباً للخواطر ، وتذهب نضارتك ستَعاعاً في اكتئاب . واذا ساءك من ابن سلام ما ليس من الوفاء وما لم تكوني به جديرة ، فعسى ان يكون لك في سواه بدل خير .

قالت : معاذ الله يا أبتِ ، فقد خبرت الرجال وبلوت عاطفة قلوبهم فما حمدتها ، وبحسبي فتاي أرعاه .

قـــال ابو هريرة : تمنّيتُ لو كنْتُكِ ، وفعلتُ ما يشير به ابو الدرداء ... فابتسمت وهي لا تنتظر من مثله مداعبة وواصل : وهل مثل ابي الدرداء يرد ويختلف عليه ... ولم يزالا بها ، وتعرضت

لها خيانة عبدالله فمالت الى الكناية ورغبت بالانتقام .

فقالت : وبعد ... فعرفا بذلك إجابتها .

فقال ابو الدرداء : أرادك لنفسه « امير هذه الامة وابن ملكها وولي عهده والمليك من بعده يزيد بن معاوية ؛ وكذلك ارادك الحسين ابن بنت رسول الله وسيد شباب اهل الجنة . وقد جئناك خاطبين عليهما ، فاختاري ايهما شئت » .. وهي ما سمعت اسم معاوية ويزيد حتى وجمت وكظمت بركان حفيظتها ، وهل هدم سعادتها وهناءة ما كانت فيه إلا هذان وعصابتهما ؟ وهي التي طالما حذرت شقيق قلبها من شباكهما وودت لو اعتزل عملهما ، فهل تلقي نفسها بكل اختيار وطواعية في قبضتهما القاسية الرهيبة ، وتُعتصَر ؟ لا ! لا ! اني لست فاعلة ولو اوطأني يزيد الديباج واحاطني بمثل زغب النعام !

ليت شعري ! كيف ارضى به ، وهل اجتويت الحياة إلا بسبيل منهما ؟ وهل فررت وتشردت إلا عنهما ؟. لوددت اني اعيش في دنيا لا تعرف عصابتهما او لا يعرفونها . وطال بها الصمت وهي في معرض خواطرها ، فقال ابو الدرداء :

علامَ عوّلتِ ؟ وأيهما اخترت ؟ فقد خيّل لي صمتك انك غدوت دمية لا تنطقين .. فانقطعت سلسلة خواطرها وكرهت رد وسيلتهما فقالت :

ومن تختار انت ؟

قال الأمر اليك .

فقالت محرجة له وعلمت أنه لن يفضل يزيد بحال : لو أن

« هذا الأمر جاءني وأنت غائب ، لأشخصت فيه الرسل اليك واتبعت فيه رأيك ، فكيف وأنت المُرْسَل . فقد فوضت أمري اليك » ، فاختر لي أرضاهما .

فقال : أي بنية ! إن « ابن بنت رسول الله أحب إليّ وأرضى عندي ، والله أعلم بخيرهما اليك » .. فانبعث أبو هريرة يقول :

نعم . نعم . وأنا والله « لا أقدم أحداً على صاحب فم قبله رسول الله » ، فيا لغبطتك بهذا الفم وهاتين الشفتين ! ليتني كنت أرينب إذن لسال لعابي! وتلحّظ .. فقالت وهي تضحك من قوله:

قد اخترته .. فتزوجها الحسين وساق لها مَهْراً عظيماً ، وبلغ ذلك معاوية فتعاظمه ولامها أشد لوم ، ولكنه انقلب مع ذلك يردد « إن الباطل كان زهوقاً » .

كان جهد الحسين بعد ذلك معها أنه يواسيها ، واذا ذكرت ابن سلام وما سمّته خيانة زوجية ، أثنى عليه وهوّن فعلته ، وأفهمها إياها على غير الوجه الذي راحت تفهمها عليه ، وأبان لها أن الحادث إن كان فيه ما هو عظيم نكير ، فانما هو إقدام من هيأ لهما أسباب الشقاء . ثم ألم تقولي في بعض كلامك إنه طفل ، فلا عجب اذا اختلبوا فيه عقله واستبدوا بهواه . فاذا بها تنظر الى ما اقترف ابن سلام من أفق جديد ، واذا بها ترى فيه أنه لم يكن إلا ضحية أغراض وأهواء وشهوات مِثْلَها ، واذا بها تدرك أن من واجبها أن تواسيه جهدها وقد بات شقياً . فبدأت تحن اليه ، وبدأت تعاودها ذكراه في رغبة قلب . وكان الحسين يحس بهذا منها ، فيفيض بشراً ويطفح بشاشة وإشراقاً ، فقد نجح وأدنى قلباً بات

نَفُوراً ، من قلب بات وقد تشَطّر ويلًا وثُبُوراً .

*

أما عبد الله بن سلام فقـــد ظل في الشام يرمي الهيئة الحاكمة بكل شنار وعار ، ويطعن عليها أبلغ ما وسعه الطعن ، وهو لا يبالي غضباً ولا رضى ، إنه مفجوع موتور .

فاطّرحه معاوية لمكان هـذا الطعن والتعريض بالتشنيع ، وعزله من إمارة العراق وقطع عنه روافده ، فقل ما في يديه قِلّةً بات معها مُعدِماً ، وغدا مَثَلًا للبؤس المالي والشقاء النفسي .

وتحت إلحاح البؤس عليه ، تذكر أنه كان قد استودع أرينب مالاً عظيماً وتذكر أنهـا أضحت في عصمـة الحسين : وهو لن يدع لها سبيلًا للانتقـــام « فتجحده إياه لطلاقها من غير شيء » . فانتقل الى المدينة ولقي الحسين وذكر له ذلك ، وهـو في شكل الضحية الشقية والفريسة الطرية ، التي لم تزل آثار أنيـاب السبع بارزة فيها ، راسمةً انكر آيات وحشيتها ، فرثى لمرآه ، ورقّ له كثيراً وواساه كثيراً . فدخل الحسين عليها وحضها على رد مـاله اليه ، فقالت :

ها هو بطابعه لم أمسسه .. وقصد حسين أن يدخله عليهـــا بشقائه ، فلا بدّ أن تتلقاه بشفقتها وحنانها دون غلظة أو جفوة ، وكذلك كان . فتلاقيا واستصبرا طويلًا في ذهـــول ووجوم ، وغفلا عن وجود الحسين بقربهما ، فتواقَفَتْ نظراتُهما ناطقةً بالحب والدمعةُ طافية ، يخيل لمن رآهما أن من وراء عينيهما قلبين يطلان ، وقد تدانيا كثيراً حتى رسما دائرة تدور فيهـــا لحظة

حب نشوى .

وكانت عينا الحسين تشعان بالسرور .. وأخـــذ طريقه الى الهيكل وقد انصرف عنهما زوجين ، كي يشتمل عليه المحراب من جديد ، إنه جدّ مُغْتَبِطِ الروح ...

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يميس ، وكانت ناعمة تلهو بأغاني سعادتها ...

فبصر بها عنكبوت صغير ، ودلو يروي بهناءتهـا شهوات نفسه الحرّى ...

وما لبث حتى جاء قَرْم العناكب يبادر ، وراح ينسج شباكه من حولها ...

وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأرواح نشوات منعشات ، وحط حيث انتصبت اشراك المأساة ...

فنقد القرمَ نقدة ، ومضى يغرد تغريداً كان معناه : ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ...

*

ظن « الصغير » ان القوة هي كل شيء وفوق كل شيء ...

وظن « الكبير » ان الحيلة هي كل شيء وفوق كل شيء ...

ولكن حين وقع الحق في شخص الانسان الكامل ، بطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ! ...

تقوى

كان يوماً ازدهت فيه دمشق بكل أفانينها وبرزت فيه بكل فنونها ، هذا اليومُ الذي أطل معه الربيعُ في ابتسامة الأزهـــار وعبق ابتسامها ، مُرَصّعاً بخيوط الشمس المتقنعة بقناع من المزن الرقيق الشفاف .

كان عادةً عنـــد ناسها استقبالُ الربيع بكل أشياء الأنس والحفاوة ، وبكل ما توحيه المتعة المستبشرة ، فكان يخيل للمشاهد أنهم نسوا حتى الزمان في وجودهم ، ثم لم يذكروا إلا مـا هم فيه من أسباب اللهو العابث البريء . فيقبلون عليه بلهفة الظامىء على الينبوع وينطلقون في مدى كل مغنى نضير ، وينتشرون انتشار الطير في كل فضاء .

فمن هنا تنبعث ضحكات ، ومن هناك تنطلق زقزقات من غَنَن الطفولة ، ومن هذا الوجه جمع يحلمون في أنس ومتعة شرود ، وعلى ذاك الوجه قوم ينعمون في مثل أبْز الظباء وخَطَرات الوعول ، وتلَفّعت الآفاق في حس هؤلاء اللاهـــين ، بكِمَلٍ من ألَق فرحة كبرى .

وكان هذا اليوم كأنه في حس الفلك ساعةٌ من لاوعي الزمن ،

السبح منها في عربدة حـــالمة أو أحلام معربدةٍ . وعزيز على الحي يشاعر ، أن تُطيِف به هذه الساعة من لاوعي الزمان ، ولا يغرق معها في خضـــم النسيان والانطلاق من قيود الوعي والفكر في الحياة .

في هذا اليوم كان معاوية في قصره المَشِيد وفي الجناح الغارق بالمتع ، يقطف مع جمع من حاشيته زنبقـــة زهو اليوم . وكان بُدَيْح مولى عبد الله بن جعفر يؤنسهم بطرائف أخباره وملَح نوادره ، فانتهى به الحديث الى أخبار صابئـة الاغريق الحَرّانيين وعجائب ما شاهد بينهم ، وكان فيما قال :

كأن نساءهم خُلِقْنَ من طبيعة الجمال ان لم تكن فكرة الجمال صيغت من طبيعتهنّ ، بل لعلهن في بحر الجمال لآلئه . فقد افتَنّ فيهن إبداع الخالق سدًا أبرزهن مُثُلًا ناطقة بالفن . . فأيّة تُقاطيع في أي وجه ؟ ؟ . . ودار به ناظره كالذي تذكر صبابة قديمة طَبَعَ عليها الاخفاق ، فأرسل آهةً طويلة اختنقت في حلقه قبل نهايتها . . .

قال بعض من حضر : لكأن لك بينهن ذكرى طريةً بموقعها عى قلبك وإن قدم بها العهد . . فراح يحـــاول الاخفاء على شتى مذاهبه وأساليبه ، ولكن كان في عينيه ما يفصح بكل خبر قلبه ، فقد غدتا تُغْفيان تحت هَباءة كثيفة من الذهول ، حتى ليظن الناظر الى مقلتيه أنهما جمدتا في غير حياة ، لولا بصيص رفيـــع الخيوط كانتا ترسلانه قَلِقاً ، على أنه مال يتخافت فيما تَمَوّهَتْ به عيناه من دمع رقيق ، لمّا يؤذن له فينحدر .

وبينا هم على تَرَسُّلهم وتَبَسّطهم ، استأذن الحاجب وأعـــلم

الملك أن كبير النخّاسين أتى بجارية فائقة « يود عرضها » فقد كان متعارفاً أنه يُبْدأ بالقصر فيُعْرض عليه ما يَهْبِط من الغِلْمان ، فأذن الملك وأجريت « مراسيم » الدخول .

وكان عجب الحضور كبيراً حينما مثلت بينهم ، فهي تتمتع بأكبر قسط من جمال الرؤى حتى لقد كان يتراءى للكثيرين منهم أنهم إنما يبصرون منظراً من جمال فن خيالي ، يجيء من دونه كل ما في طاقة الحياة من فن الجمال .

هبطت على جمعهم هبوط اليَرَعَة على جماعة الطير في الغاب مع ظلام المساء ، فاهتزت أعصابهم كالأوتار ، ونطقت بلحن الحنين المَوّاج فحامت في مدى بدوات هذا الابداع . كانت على أعصابهم صدمةَ جمال فعلت فيها مثلما تفعل صدمة الضوء أو النغم ، التي يتجاوب معها فضاءُ النفس الخَلاء بنوع اهتزازها ، فتميد أو تذهل ، والصدمـــة الشعورية كلما كانت أشد تمكناً من الأعصاب كانت أكثر تأثيراً وأدوم أمداً .

وهذه الفتاة الكاعب تركت فيهم أثراً أخـــاذاً حاداً لم يزل يتزايد ، حتى باتوا منها مثل النحال وقد عرض لها مصباح كثير التوقد والألَق في لسان الشعاع .

وكان في هذا الذهول الذي عراهم ، ما جعل أحداً لا يفطن الى ما استبد ببديح من اضطراب وما تملكه من تلهف . كما لم يفطن أحد أيضاً الى ما ساورها من خلجات عنيفة كظمتها ، فعربدت على قمم مقلتيها ناطقة باللحظ الوثاب . كان لناظر أن يقدر أن بديحاً أكثرهم أخذاً بها لأنه كان أكثر تذوقاً للجمال ، وأما أن يقدر أنها

بالذات نفس فاتنته التي احتفظ بها ذكرى ندية بالغرام ، وعرضت لنفسه منذ هنيهة في بعض الحديث ، فهذا ما لم يكن يقع في مذهب الخاطر المرسل .

لقد قطع هدأة وجوم الانجذاب ، معاويةُ بقوله مخاطباً كبير النخاسين : لشد ما أدهشتنا حوراؤك ، فمن أين هي ؟ «وما اسمها» ؟

قال الرجل : « اسمها هوى » ... فانبعث بسر بن أرطـــاة انبعاثاً يقول :

« هي والله كاسمها هوى » ، تخفض منه وترفع ، وتطيل بـه وتقصر ، وتنشر منه وتطوي .

قال عمرو بن العاص : وماذا يكون الهوى إن لم تكنه ؟؟.. وكان بديع قد ضبط أرشية قلبـه الفائر بالذكرى والحب والآلام والبعد والقرب ، او القرب الذي كان في معناه نقطـــة الغور في البعد السحيق . شعر الآن فقط أنها نأت عنه والى الأبد ، أمـــا عرضت على الملك ونالت استحسانه وحظيت باعجابه ، فهو لا محالة سيضمها الى جملة وصائف القصر وولائده ، فكان في حس نفسه كأنه يعض على جانب قلبه بضغه .

كيف لم يبتعثه القدر الى الخروج منذ هنيهة ويتلقاها عرضاً ، فقد كان يحول بينها وبين الدخول ويحظى بهـا لنفسه ، وهو الذي ظل يتمنى حياتَه ، لحظة لقاء منها . لقد مده القدر بساعة لقاء عفواً ، ولكنّ فيها مرارة النكاية والتلويع ، ففاضت نفسه حسرات . بيد انه ظل يعالج مشاعره ويحتمي وراء براقع صفيقة من التجلد فقال : مثلما هي براعم الازهار كانت حُقّاً للجمال والعبير في الزهرة ،

للعواطف الحية حقاق او براعم ، تتفتق عن زهرة جمال أحياناً ، وعن زهرة هوى أحياناً ، وعن زهرات معان أخرى ايضاً .

وهذه الغادة كما أراكم تحسون — برعمة الهوى في دنيا القلب الشاعر — تتنفس بأريجه مع السحر الندي كما تتنفس الورود . وفي حسي ، ان الازهـــار تعبر عن العواطف المجتمعة في قلب الطبيعة الصامتة ، كما تعبر هـــذه الغانيات عن العواطف المجتمعة في ضمير الطبيعة الحية وقلب الانسان .

وفي غابر أيامي مع نزوة من نزوات شباب القلب أحدثت هوى وأحدثت فيه بهذا المعنى شعراً :

يا وردةً في رياض الحب يانعـة تزجي الهوى، كلما مر الهوا فيها
هيا انشري عطرك الهـاني الذي امتزجت
به الدموع ، وروّتـــه مآقيهـــا
فسِرّ عطرك هذا ، أدمع سكبت على جـذورك في نجوى لياليها
ثم استحالت عبيراً من طهارتها فنوّهي بالهوى ما شئت تنويها
فانت ذكرى محب طالما احتبست انفاسه ، ثم خانتـــه خوافيها
كم من صريع هوى ، قد عاج منتحياً الى ظلالك شاقته مغانيهـــا
فراح ينظم آهـــاتٍ مقطعة وراح ينثر معنى من معانيهـــا
حتى انتهى ، في خضم الدهر مثل صدى وأنت ذكرى هواه بت تحييها

وكان بديع ينشدها في صوت زافر الرنات خافت المقـــاطع والكلمات في وجه ساهم النظرات بادي الذهول ، حتى لقـد خيل لكثير ممن حضر أنه استحال صدى كما راح ينشد ويقول .

فقال معاوية : لكأني بك — يا بديع — أحـدثت بها هـــوى

جديداً .

قال بديح : بل إنما تعلقت بأسباب هوى قديم ، واستيقظ في قلبي رسيس حب ضاق به النسيان .. وانقطع بهم عارض الحديث فعاد النخاس الى مقاله :

وهي صابئة المنبت والنِجَار ، ترقى اليّ أنها أعدّت لتكون كاهنة في هيكل ربة الجمال عندهم . والصابئة يتحرون في مثلها ، أن تكون نسَقاً في الملامح والتقاطيع والشكل مع إلهتهم ، لتبرز لهم في المواسم والأعياد وكأن ربة الجمال برزت لهم او تقمّصتها ، فانتهت بها صروف الاقدار الى حيث ترى .

والعجب — يا امير المؤمنين — أنها ذات فلسفة في الحياة رغبت بها عن متع الحياة ، والقتها في مثل الزهد .

وأعجب من هذا أنها سكنت الى الاسلام واطمأنت به فاعتنقته ، وأتت في فهمه بالعجب العجاب ..

قال معاوية ناشطاً : كيف تقول ؟

قال : نعم هو ما أقول لك .. فضمها الى قصره ، وقد بذل فيها « مائة الف درهم » . وواصل : لقد صدق والله بديح فيما مضى يحدثكم به ...

ولكن لم تبعد الوصائف بها حتى استوى وكان متكئاً ، فقال :

« لمن تصلح هذه الجارية » ؟

قال عمرو بن العاص : من « سوى أمير المؤمنين تصلح له » ؟ وكذلك « قال آخر وآخر » ، ومعاوية يقول لا ، ويبتسم كالذي يعاييهم .

وبعد ان اخذ منهم التشوف مآخذه وتزايد بهم التلهف ، والراغب يكون آملًا ابداً فكان اكثرهم تشوفاً بديح ، فقد عرض في خاطره ان معاوية قرأ قلبه . وبعد ان نطقت الحيرة البادية على وجوههم ايضاً ، وبعد لأي ، قال لهم معاوية :

انها بروحيتها وكمالها لا تصلح الا للحسين ، « فانه احق بها ، لما له من الشرف ، ولما كان قد شجر بيننا وبين ابيه » .. فارتسمت على وجه الحضور آثار مشاعر مختلفة متناقضة . اما بديح فكان محلًا لانواع شتى من الشعور ، فقد انشرح واكتأب وطرب وحزن في درجة واحدة من الانفعال . إنه أمِلَ ان يكون موضعاً لسقوط هذا الندى وتمنى وهو الظامىء بالهوى ان تكون ريّه هذه الغادة التي هي غادة قلبه ، ولكن خاب أمله فاكتأب . بيد انه مشى في حواشي هذا الاكتئاب عنده إنشراح ، مصدره ان الحسين وهو المنتشي برحيق الهيكل والمستغرق في التأمل الالهي والطافح بخير الانسان ، لن يبخل بها عليه . وإن لم يكن ، فلا أقل من ان مقامها أضحى صنو مقامه بين آل ابي طالب ، هو يتشهّى ان تكون قريبة منه وكفى ، إنه يريدها متعة قلب وقد سقط على امنيته منها .

ففار في نفسه ينبوع بشر ضحك معه ضحكا خفياً في الخيال ، وزاد به حتى انفجر يضحك كالمعربد الغرد ، مما جعل الحضور يرمقونه باستغراب ، وطاف على السنتهم : ما بال بديح ؟.. ولكن قطعه عليهم بقوله :

انها ستكون مفاجأة لذيذة الوقع على الحسين ، لا سيما وقد

كانت كاهنة في هيكل ربة الجمال، وهو الحالم الهائم بالجمال المفعم به ضمير الوجود .

بعد ما تناولتها الوصائف بالتطرية والمندمة مع أسلوب القصر ، برزت كالربة التي تحلم والبحيرة تصطفق بامواجها الرقيقة عند الشاطىء .

كانت ساحرة الفتنة مغرية الجمال، ولكنها ترى مع ذلك كالهائمة في ضميرها . فلم تكن بمنظرها تثير أصداء الشهوات بل تنشر أحلاماً نشوى من احلام الروح، تلقي الناظر قسراً في مثل المحراب الذي يشيع في القلب ، مثل معنى صلاة خاشعة .

وهذا اللون من الجمال غير محبب إلا للهائمين في دنيا ضمائرهم، وأما الآخرون الذين يهيمون في دنيا أعصابهم وينطلقون في مدى رسومها، فانهم ينفرون من هذا الجمال الذي يغريهم بمعنى مبهم لا يتذوقونه ، فيطعمون فيه مرارة الفقد ، ثم لا يحرك أي وتر من أوتار قيثارة خيالهم ، المركبة تركيباً لا تنطق معه بمثل ريشة هذا الجمال، او تنطق بنغمات متنافرة توحي بالمرارة .

إن طبيعة الانسان المعنوية مركبة تركيباً نغمياً (موسيقياً)، وهي - على نسق أوتارها المتحركة بريشة البواعث، اذا صح هذا التعبير، متنوعة الالحان والايحاء . فمنها ما يوحي بالشهوة ، ومنها ما يغري بالتأمل ، ومنها ما يجيش بالدماء ، ومنها ما يمور بالحنان والحب ، ومنها ما يدفع الى الاستعلاء . إن اللذة في حقيقتها انطباعات وارتسامات ، فاذا مرت بالنفس نماذجها استجابت اليها وتحركت معها حركة انسجام لاذّة .

أمضت « في القصر أربعين يوماً » ، كانت لا تفتأ خلالها تفكر

في مصادفة هذا اللقاء مع بديح وهي التي باتت في يأس من لقائه ، وقد باعدت بينهما أسباب وأزمان .

وذهبت تناجي نفسها : ويح بديح ، إنه لم يزل في مثل يقظة عواطفه ليلة لقائنا للمرة الاولى بين أروقة هيكل « فينوس » . ويح بديح ! لقد كابد في سبيلي كثيراً وتجرع أمر الغصص والآلام من أجلي ، ثم تناهى به بعاد يعتصر عليه قلبه ، فكم ذا يقاسي ؟ .

ياما ألذ وقفة انتظار ، في لحظات توله وتلهف ، كنت أقفها عند بعض اعمدة الهيكل ، وبديح مقبل تحت رداء الليل يمتعني بنفسه في جلوة قلب مغرم ، أضفت عليها خلوة الاحلام ! ياما أقدس تلك الرعشات ، وأعذب وقعها !!.

إني لأذكر تلك الليلة وقد هبت فيها الاعاصير ولعبت في مسرحها العاصفة ، وكانت الآفاق تزأر زئيراً مخيفاً ، والغمام يهبط مع جنح الظلام كثيفاً كثيفاً كأنه شاء ان يطمر الارض بما هو منزرع فيها من الحياة والأحياء ، وكانت الرمال تتعالى وتتعانق في شكل الأقواس ، وذعرت فيها حتى طيور الليل فانكفأت منكمشة في المغاور والحفائر ، وقد أمسكت حتى الركز من نأمتها .

واني لتمنيت وأنا واقفة عند عمود الرواق الداخلي ، أنه لا يأتي في ليلة بركان السماء . وبينا أنا واجفة مخطوفة اللب بالتخوف والترقب أحرّق قلبي للربة قرباناً كي تحوطه وترعاه ، اذا هو مقبل كأنما رمى به الاعصار في العراء وتمخضت عنه العاصفة ووضعته في التيار الدائر في جنون .

أسرعت اليه اعتنقه دون الهيكل وهو يلفني كتلة طفولة ، حذراً

ليّ من طيش هـذا الليل ، وفي الهيكل استند الى صدري كالذي خرج من المعركة ظافراً يجـــدد حياته في حسّن مخلوق جديد ، إنه خرج ظافراً من معركة العنـاصر وقد استدارت عليه بضراوتها . استند الى صدري واطمأن كأنه يجد فيه ينبوع حياة ، فهو بستمده بعض مـــا انتهبته العاصفة وهو يصارع الاعصار .

قلت له وأنا أدغدغ جبهته وأعبث بشعره المتطلّل[1] الذي كمنت فيه أصابع العاصفـــة : لماذا ركوبك الاعصار الى محراب حبنا ؟. لكأنك من عدم مبالاتك محب فوق بركان .. فابتسم وأخذ وجهي بين كفيه يقول :

أأعرف أنك تصلين في محراب الحب ولا أسعى اليك في أجنحة الطير ، كي أشاركك ترنيمـة الهوى وترتيلة الهيام ؟ إنك لتقسين عليّ في الظن بي .

قلت : عفوك ! أردت ان تتخذ لنفسك محراباً في الذكرى ولا تتجشم هذه الاخطار اليّ .

قال : إن محراب الذكرى يغري بالظمأ في الحب ويضـاعف شعوره ، واما الري في الحب فانما يهبط في محراب هذا الصدر الذي يمرح في فضائه قلب يمد بندى الغرام .

إيه غادة احلامي ! ليست العاصفة الرعوب هي التي تشهدين في حواشي هـذا الليل ، وإنما هي عاصفة القلب وقد فارت فيه فائرة التياع ، بل تلك بجنب هذه ، زغردات وابتسامات وزقزقات ترسلها الطـير مع السحر .. قسماً لو حالت دونك أرض زرعت فيها كل

(١) نعني بالمتطلل المتخذ شكل الاطلال. وتفعل بهذا المعنى قياسي .

البراكين ، لتخطيتها اليك مغتبطاً مسروراً .

فقلت معترضة : لا تبالغ ، فان هذا بين البشر لا يكون وإنما هو من طباع الربات والأرباب .. فذهب ضاحكاً يقص عليّ قصة ذلك العاشق الكردي ، الذي طلبت منه فتاة هواه وردة حمراء وأخرى صفراء . وكانت حديقة الورود في يقظة حراس أشداء وفي عين أسود غضاب ، ويفصل دونها نهر يعج بالتيارات . فانطلق العاشق في مدى رغبتها يخوض النهر ، وتقلب في حديقة الورود يبحث عن الوردة الحمراء فلم يجدها . فعاد مبلل الثياب يقول لها مبتهجاً : لقد أتيتك بها .. فانه كان يحمل في يده الوردة الصفراء ، وأما الوردة الحمراء فكان يحملها في صدره ثغرة فوارة بالدماء ، فقد أصاب سهم الحراس قلبه فشطره ...

قلت له متفجعة : أيكون ذلك حقاً ؟ !

قال : ليس هو بعيداً عنك ، ألا فامتحني فيّ العاشق الكردي . أقول لك وأنا أعني ما أقول ، لو تحدتني كل أرباب الأولمب كما تحدت « هرقل » لقاومتها في سبيلك ساخراً بقوتها ... فأخذت عليه سبيل الاستمرار وقلت له :

بحقي لا « تجدف » على الأرباب ، وأيضاً في هيكل ربة الجمال « فينوس » إني أخاف عليك .. فانقلب يقهقه قائلاً :

لماذا لا تفكرين أنكِ انت الربة الحقيقة ، وأما « فينوس » فربة خيالية أثيرية فقدت حرارتها ، وبابرازك كاهنة في هيكلها يمدون وجودها البارد في الخيال ، بحرارة أنت تنشرينها وتوزعينها . فوضعت يدي متوطة على فمه أقول :

لا ! لا أريد أن اسمع منك تجديفاً . آه لقد فجعتني ، أأنت أيضاً يا بديح تتكلم « بالهرطقات » ؟ ! .. لقد كنت في ذلك الحين مؤمنة بقدرة الرب وأنا أرغب على من أحب بأن يكون مثلي رأياً وإيماناً ، لكنني عرفت بعد ذلك أن بديحاً كان أعمق مني معرفة وأهدى تفكيراً .

لقد كنت مفعمة بالايمان، فصوره لي حديثه بصورة منكرة توحي بالشر الكريه ، فانقبضت عنه وذعرت منه ، وبالغ في هذا الذعر فكرهته ، وعدت بعد ذلك أتحاشاه وأنفر منه ، أود ان لا اراه . وكنت أسائل نفسي : أيكون بديح مجدّفاً ؟ وهو في نفسي صورة من ملاك. كلا ؟ لا اود ان اخنق بيديّ بديحاً العائش في خيالي ، اود ان لا تتشوه صورته في نفسي ، وانا اذا اجتمعت الى بديح ستمتد يده الى تشويه ما استوى في خيالي عنه ، ولكن بديحاً الخيالي محبب اليّ ألطف كله وأتمنى أن اظل متمتعة به منتشية بمثاليته ، ومثلي كاهنة راضت نفسها على الأحلام، إنما تحب في أحلام الروح دون حب في أحلام الاعصاب ، فكان طبيعياً ان كنت اتوارى كلما تعرض لي بعد ذلك . وهذا ما يقع اذا لم يكن الايمان فكرة في النفس ، بل كان عقدة في الروح او أزمة في الوجدان . وكلما كان إيمان المرء عقدة في الروح تكون عواطفه قاصرة على من يشاركه هذا الايمان دون سواه ، بل يتعدى ذلك فنساوره نزعات يتحرك معها تعصبه .

اما الفكر المجرد فانه لا يعرف تعصباً ، وإنما التعصب عقد في مكان الوجدان من النفس ، فهي تتحكم بالعواطف على لونها .

وكلما كان الفكر اكثر ضيقاً والوجدان اكبر عقـــداً ، فهناك يوجد شر انواع التعصب ،وعنده يستضيق المرء حـــتى بوجود من لا يشارك كونه عقيدة الايمان . ولا شك في أن هذا بعض من طبيعـة الانانية في الانسان ، فاذا كان في التـدين فكرة إيمان فهناك تدين صحيح على نهج إنساني ، واما اذا كان في التدين انانية إيمان فهناك أخطر شكل من أشكال اللاإنسانية النكراء .

فنزعة التدين الصحيحة هي التي تجعلنا نحكم الايمان بالفكر دون العكس ، الذي يتولد من ازمة نفس ويُولّد أزمـة نفس وحياة ايضاً . اما الفكر فليس يقبل عقدة بل من وظيفته ان يحل العقد في النفس الانسانية والحياة والوجود ، وهو اذا قبل العقد احياناً فانما يقبلها في ضرب من الامتحان وفي ضروب خفية من الارتياب . فالفكر يرادف الامتحان او النقد المجرد ، وتقدم الانسان معناه تقدمه في الفكر ، الذي ينتج حل اكبر مقدار من العقـد . وفي ظني اليوم ان تقدم الفكر ليس معناه القدرة او الغنى في التفكير بل معناه الكفاءة على التفكير بدون اعصاب اي بتجرد للفكر ، ومن ثم لا نحب او نكره ولا يضر بنا القرب او البعد بل تَمّحي فكرتهما ثم لا تتصرف بعواطفنا تبعاً لهما .

ليتني كنت اعرف هذا من قبل إذن لما جافيته ونفرت منـه وظللنا في متعة الحب الخالدة .. لقد رأى بديع مني ذلك الاعراض فلم يطق الحياة واجتواها ، فذهب على وجهـه لا أدري اين وقعت به يد الأقدار ؟

ولقد احسست والله بعد ما فقدتـــه بالأسى الفظيع ، فطلبت

السلوة في الشرود بالمعرفة ، فاندفعت الى فكر جديد . فهجرت الهيكل وابتدأت رحلتي وراءه من نقطة هائمة ، فانتهت بي قراصنة الروم الى حيث مكاني ، وكان قدَراً ماتعاً فقد رأيت بديحاً ..

بعد مقام قصير في البلاط « حملت الى المدينة مشفوعةً باموال عظيمة وهدايا كثيرة متنوعة ، ومحاطة بكوكبة من الفرسان . وزود الملك رئيس الركب كتابه الى الحسين جاء فيه :

ان امير المؤمنين اشترى جارية فأعجبته فآثرك بها » .

أدخلت على الحسين وهو منصرف الى القرآن ، سابح في مدى تأملاته يقرأ « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى ، هذا غلام . واسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون »

وكان في الجو الذي يحيط فوق الحسين ، ما اعاد اليها ذكرى الهيكل ونقلها الى مثل المحراب ، وزاد بها هذا الشعور فاعتقدت يقيناً انها لم تعد في شيء مما يتصل بدنيا الناس ، فحفتها سكينة ولفتها هدأة الروح وغرقت في خضم بعيد القرار من الابديات ، واحست بانها مثل غرنيق ـ طير الماء ـ تتأرجح به الامواج الحالمات ، وكانت سكرى بما يتساقط الى سمعها من نغمات مسحورة تشعر بها في مدى روحها عذبة ندية .

كانت لها هدأة طويلة لم تفق منها الا على صوت الحسين يستقبل رئيس الركب ، وراح هذا يخبره بكل خبرها ويروي له كل ما ترقى إلى سمعه من انبائها . فالتفت الحسين اليها في ابتسامة مواسية يقول :

لظنّي بك ، وأنت جديدة عهد بالاغتراب ـ أنك مُوحشة

النفس ، وبودي أن تتدارك حال تأنسين بها وتطمئنين .

قالت له هوى : كنت خليقة بالوحشة في غير مكانك ، ولكنني وأنا فيه فاني جديرة باطمئنان في النفس والضمير... شاعت على وجه الحسين ابتسامة هادئة هانئة وقال دَهشاً :

لقد سبق الى ظني أنك لا تجيدين العربية على نسق ما أسمع ، ولكن أمَا وأنت مثل أصيلة في اللسان ، فلن تكوني غريبة عن حياة بيئتنا العربية ، إن لم تتذوقيها مثل أصيلة فيها ايضاً . فابتسمت في استحياء وإغضاء وقالت :

بل — يا مولاي — لأحس في كنفك أني عربية صليبة عريقة الهوى والقلب في مواقع رغباتها وميولها . ولقد حبّب إليّ لسانَ العرب أنه يتمتع باكبر قسط من وحي الطبيعة والفطرة ، ففيه صور واصداء ومناظر تامة صادقة انتزعت من الطبيعة مباشرة وسكبت في قوالب الألفاظ بدقة وحقيقة ، بل لقد أفرغت الطبيعة اشياء ذاتيتها في الكلمات كأنها طلبت حركتها الحية في اللغة .

وفي لسان العرب أيضاً مشاعر وأحاسيس انسانية وحيوية ، لم تتحرف وتتكسر بتحكم الفكر واختلاقه وبعبارة أصح تشويهه . فهذا اللسان طبيعة وحياة وانسانية في أصدق ألوانها ، ومفرداته كلمات الطبيعة اول ما تحركت ونطقت . فقد تصيّدها العربي وانتحتها وهو بَعْدُ يتوجه بالقريحة النقية ، دون التوآت الفكر والتفافاته ، فهي أنقى ما تكون لغة في مذهب التعبير .

ولقد عمدت إلى كهف روحي فوجدته قاتماً حالكا ، ورأيت مصباح فكري خابياً وهو إذا توقد وشع ، فلا يضيء كهف روحي

واظل منه في ديجور ، فقد حيل بينهما بسدود كثيفة صفيقة. لكنني وجدت دينكم الجديد قد حاول ونجح الى أكبر حد في رفع هذه السدود القائمة في دروب النفس ، وأذكى شعلة الفكر فاتصل ما بين الفكر والروح بالشعاع وبت متألقة المعنى ، فسكنت الى دينكم وطمعته ايضاً فتعشقته ، انه رفع السدود في دروب روحي وكانت هائمة متخبطة بين سد وسد ، واطلال خرافات واساطير .

قال : لله انت ! أكنت حكيمة ام اديبة ؟ هل «تجيدين القرآن» تلاوة ؟

قالت : نعم .

قال : « فاقرئي عليّ » ان شئت ... فراحت تتلو « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ، ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى اجل مسمى ، ثم اليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى اذا جاء احدكم الموتُ توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو اسرع الحاسبين » ... وكانت تتواجد في تلاوتها تواجد من قد اخذ بنشوة مفعمة .

قال لها : يخيل اليّ انك اكثر وعياً لهذه الآيات من كثير من العرب انفسهم ، لِما رأيت عليك من سَبَحات الخشية .

قالت : بودي ان اكون عند ظن مولاي بي . ولِم لا يعروني

ما قد عراني ؟ وانا اتلو هذه الآيات القوارع ، التي تجعلني في محيط علم الله وكأني كل ما في المحيط اوليس غيري فيه . على اننـــا من هذه الحياة في مسرح نقوم عليه بأدوارنا ، ولسنا ندري أمحسنون نحن في ادوارنا ام مسيئون ؟ ثم هل هناك أنقى تصويراً لعلاقة الله السببية في الوجود ولعلاقة الله الادبية بالانسان ؟ اما في كل هذا ما يبعث على الدهشة والخشية جميعاً ؟ أما فيه مـا يغري الروح بلحظة سكينة وهدأة تأمل ؟ وكان الحسين يقاطعها بقوله :

إيه ! إيه اي بنية ، فقد أحسنت والله !... وواصلت تقول :

أما يجد مولاي في الوقوف عند هذا التعبير « مفاتح الغيب » ، ما يبعث على التأمل الطويل وينشر في القلب وجمة تفكير مديد ؟ هذا التعبير الذي يرسم الغيب في الخيال على هيئـــة ادراج قامت عليها الاغلاق ، وفي كل اشياء الوجود والطبيعـة غيب مستور ،او فضاء ودنيا من عالم مبهم غيبي محجوب . فالشيء من الوجود درج غيبي يسبح فيه عالم خفي مديد وعند الله مفتاحه ، وما محاولاتنـــا الحثيثة في استكناهه الا غوص ووقوف عند الشاطيء بازاء المجهول .

قال : لقد زدت على الاحسان ، اي بنيـة ... واضفى صموت طويل كان مسرح خواطر شتى ، ولكن الحسين قطعه بقوله :

الا تروين «شيئاً من شعر العرب» وادبهم ؟

قالت : بلى ... وكانت لم تزل في اثارة من صوفيتها المفعمة ، فأنشدته ابياتاً جاء بينها :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لا بقـــاء للانسان

ولذها الانشاد في هذا اللون المبطن بالروح ولفتات الاشراق ،

فانشدته شعراً سبق لها انها انشأته معبرة عن شعور نفسها «في مجلس معاوية» ، وما قد كونته من نظرة الى الحياة وقيمتها وجهد الحي فيها :

«رأيت الفتى يمضي ويجمع جهده رجاء الغني ، والوارثون قعود
وما للفتى الا نصيب من التقى اذا فارق الدنيا عليه يعود»

فلم يملك الحسين الا ان يتواجد ، وما هو إلا أن فاض في قلبه ينبوع حنان تندّت معه مقلتاه وتبلور فيهما مثل الدمع ، والا فهو عصارة شعور بعبق التقوى . ثم قال لها : اذهبي «فانت حرة وما بعث به معاوية معك فهو لك» ، على انك عندي ابداً مثل كريمة ، عزيزة المكان في هوى أهلها ...

وما هو حتى اقبل بديح يستأذن عليه فقد أوفده مولاه عبد الله بن جعفر الى دعوة الحسين . ولكنه ما مَثُل بين يديه حتى رأى مهاة قلبه مرة اخرى ، بيد أنه في هذه المرة كان اعنف شعوراً بها . فقد جددت عهد هواه في دمشق ، وقد احالت قلبه الذي كان كشلو تناهى في حب ضامر قديم ، الى قلب جديد حياة ، انصب فيه جديد حب ما فصل عنه امس وغد . فتاهت حروف كلماته في فمه ، واحتضرت مضطربة على لسانه ، وقسراً وجم في ذهول طال به مداه .. وتدارکها مثل شعوره وغصة قلبه فانخطف لونها . والحسين يرى فأطرق اطرافة مائجة بالايحاء ، مرّ في خاطره معها ان بديحاً ينتهي الى مثل غربتها ، فغير بعيد ان تكون ذات هوى به وضرب الزمان بينهما ، فباعدهما قدر ، عاد في دورة اخرى يضمهما .. وجدير بي ان اكون خط النهاية في دورة القدر المبهمة . فالتفت الى

بديح وقال :

كنت على اهبة ان استقدمك اليّ يا بديح ، فسقطت من نفسي على موعد . أنت عندي مثل كريم عزيز ، وهي عندي مثل ... فاستخف ببديح عاصف فرحة كبرى ، حتى كأنه دفع الى الخلد من نافذة بعد ان حيل بينه وبين الباب طويلا . ولم يُرَ إلا مكباً على يد الحسين يقبلها ، في موضع تلاقى عليه ثغران ثغره وثغرها .

وكان في منظر وضعهما ما أفعم قلب الحسين بغبطة الروح «ففاضت مقلتاه» بدمع السرور ، السرور غير المحدود . وبذل لهما «الف دينار» ، وقام الى صلاته « هانيء القلب ريان ، ناعم الضمير نشوان ...

*

جاؤوا يقتنصونه بغانية من فتون الدنيا ...
لعلهم يهبطون به الى مثل حضيضهم ورُغامهم ...
بيد أنها ما استهوته على أنه قد استهواها ...
فقد مسها بشعلة من الاشراق ، غدتْ بها خلقاً آخر ...

*

وجد قلباً حائراً يبحث عن قلب تائه ...
وكلما أوشكا ان يلتقيا ، يُضيعان الطريقَ مرة اخرى ...
فكان همه ان يصنعهما سعيدين .. فضم قلباً الى قلب ومزج نفساً بنفس !...

استثارة

افاق من في البلاط الأموي ، على حركات غير عادية امتازت بالنشاط في تجمّعات تشاور هامس، وكان جو هذا التجمع مطبوعاً بطابع الاهتمام والجد ، فقد أزمع أساطينه إحداث انقلاب خطير يمس القاعدة الأساسية للحكم . وفوق ذلك أزمعوا على أخذ العرب بحكومة الفرد ، بعد أن راضوهم عليها أمداً ليس بالقصير ، وبأساليب كلها العنف والاعتساف في فترة طالت ذؤابتها ، فكانت تاريخاً امتلأ بشهداء الحرية والشعبية في مذهب الحكم .

وكان قد سبق الملكُ ووجه دعوة عامة الى أمراء الأمصار ، فاجتمعوا لديه ينتظرون سماع المفاجأة ، التي من شأن هذا الاهتمام ان ينطوي عليها .. وما هو إلا أن تكلم المغيرة بن شعبة ، وكانت السن قد تناهت به فلم يكن صوته يُبين فقال :

تعرفون أنكم الشعار دون الدثار عند الملك فعليكم يعتمد . وأنتم البطانة التي عليها يتكل ، فمصالحكم بمصالحه مرتبطة ، وأمركم بأمره متصل . وقد اتجه رأي الملك الى أمر خطير أحب أن يفاوضكم به ، ويستشيركم قبل أن يعتزمه ويعقده .. فاشرأبت أعناقهم وتطلعوا في إصغاء مرهف وواصل المغيرة :

رأى الملك ان لا يترك الناس بعده سدى « كالضأن لا راعي لها » وقد اختار ابنه الرشيد يزيد ، ومن اكفأ بأعباء هذا الامر منه ؟ ! ورماهم بنظرة فاحصة متحدية ، وراحوا ينظر بعضهم الى بعض ولفهم صمت طويل قطعه زياد بقوله :

« ان علاقة امر الاسلام وضمانه عظيم ، ويزيد صاحب رسلة وتهاون ، مع ما قد أولع به من الصيد ، فرُوَيدَنا بالأمر .. فأقمِن أن يتم لنا ما نريد . ولا نعجل ، فان دركاً في تأخير ، خير من تعجيل عاقبته الفَوْت » .. فقذفه المغيرة بنظرة شزرة ضاحكة وقال :

اكنت تظن ان المشورة هنا معناها إبداء الراي ؟ وهل نحن بحاجة الى رأي امثالك ؟ إن المشورة هنا معناها السماع والتنفيذ والطاعة فقط حسبُ .. فهب عبيد بن كعب النميري وكان مستشار زياد ، يشرح كلامه وما قصد اليه فقال :

نعم . هو ما تقول ، فليس علينا إلا السمع والطاعة وزياد « لم يرد ان يفسد على الملك رأيه ويمقّت اليه ابنه . وإنما قصد ان يخوّف يزيد من خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، فتستحكم للملك الحجة على الناس ويسهل له ما يريد .

فقال معاوية : نعم ما قلت ، ونعم ما ذهب اليه زياد » ..

ولم يكن زمن طويل حتى أعلن ذلك في مسجد دمشق على الناس ، وكان معاوية قد حفل له وطلب الوفود من كل الأمصار ، « وقرأ على الجموع عهده وفيه عقد الولاية ليزيد » فأصيب بعض بمثل الذهول ، وبعض بمثل الطيش ، وكان بين هؤلاء وهؤلاء صنائع ذهبوا يطرّبون ويزينون ، « فقام الضحاك بن قيس فقال :

يا أمير المؤمنين : إنه لا بد للناس من والٍ بعدك ، والأنفس يُغدى عليها ويراح ، وإن الله قال كل يوم هو في شأن ، ولا تدري ما يختلف به العصران . ويزيد ابن امير المؤمنين في حسن معدنه وقَصْد سيرته ، من افضلنا حلماً وأحكمنا علماً ، فوَلِّه عهدك واجعله لنا عَلَماً بعدك . فانا قد بلونا الجماعة والألفة ، فوجدناها احقن للدماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة والآجلة) .

وقال عمرو بن سعيد »

« ايها الناس : إن يزيد امل تأملونه ، واجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع . اذا صرتم الى عدله وسعكم ، وان طلبتم رفده أغناكم . جذع قارع ، سوبق فسبق ، وموجد فمجد ، وقورع فقرع . خَلفاً من امير المؤمنين ، ولا خلف منه »...

فقال معاوية : اجلس — أبا امية — فلقد اوسعت وأحسنت...

فقال الاحنف بن قيس : يا امير المؤمنين : « انت اعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان كنت تعلمه لله رضى ولهذه الامة ، فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب الى الآخرة » .. فأحمس يزيد بن المقفع فوثب مرعداً مبرقاً وقال :

« أميرُ المؤمنين هذا ..) وأشار الى معاوية . (فان هلك فهذا .. » وأشار الى يزيد . « فمن أبى فهذا .. » وأشار الى السيف .

فقال معاوية : اجلس فانك سيد الخطباء ..

وقام المسكين الدارمي الشاعر فانشد :

اذا المنبر الغربي خلاه ربه فان امير المؤمنين يزيد

وتهيأ معاوية فدعا الناس الى المبايعة « فقال رجل : اللهم إني أعوذ بك من شره .

قال معاوية له : تعوذ من شر نفسك فأنه أشد عليك ، وبايع .

فقال : إني أبايع وأنا كاره للبيعة .

قال له : بايع أيها الرجل ، فان الله يقول فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وما هو إلا ان حمل الناس على البيعـــة في الشام والعراق ، فتوجه معاوية لأعداد الرأي العام في المدينة من اجل البيعة « فكتب الى مروان بن الحكم وكان عامله على المدينة ، أن ادعُ الناس عندك الى بيعة يزيد ، فان اهل الشام والعراق قد بايعوا . فخطبهم مروان فحضهم على الطاعة وحذرهم الفتنة ، ودعاهم الى بيعة يزيد وقال هي سنة ابي بكر الهادية المهدية » .

فكأن لهذه الدعوة وقع النـار في الهشيم ، وسرت بين الجموع نأمات استنكار وأصوات تسخّط ، وتزايد بهم هذا الاستنكار وهذا التسخط ، فاندفعوا يطعنون ويقذعون في الطعن ، ومضوا ينثرون الاحتجاج نثراً دون رعاية او حذر .

فقال عبد الرحمن ابن ابي بكر : « ما صدقت ، إن أبا بكر ترك الاهل والعشيرة ، وبايع لرجل من بني عـــدي رضي دينه وامانته واختاره لأمة محمـد » .. وتزادّا طويلاً وانتقل بهما التجاوب الى التناوش والمهاترة من قبل مروان فقال :

أيها الناس . إن « هذا المتكلم هو الذي انزل الله فيه ، والذي قال لوالديه أفٍ لكما اتعدانني ان أخرج وقـد خلت القرون من

قبلي . فقال عبد الرحمن :

أفينا تتأول القرآن » .. وقطع الحسين عليهما إذ هب واقفاً ، وعلى سيمائه مشت غضبة مكظومة راحت تنطلق وقد وجدت سبيلها :

«أإلى النار ؟ تدفعون الناس بعد العار » ، لقد حملوا أطماعكم متبرمين ، وتركوا لكم انتهاب الدنيا كما شئتم وشاء الهوى ولكن احلولى في افواهكم المستوخَم فتخطيتم الدنيا الى العبث بالدين ، فأحر بنا أن ندفع النار بالنار .. وما هو حتى هب الناس ينكرون ولاية يزيد في مثل الزئير الدامي .

فكتب مروان الى معاوية بذلك ، فأقبل الى المدينة في ألف ، فلما قاربها تلقته الجموع عند مآتيها ومداخلها ، وما أخذ نظره الحسين حتى قال : مرحباً « بسيد شباب المسلمين» ، قربوا دابة لأبي عبدالله ، وقال مثل ذلك او قريباً منه لعبدالرحمن بن ابي بكر ولابن الزبير . ثم انطلق بهم حتى أتى مكة فقضى حجه ، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقدمت وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ، وهنا بدأ مفاجأته الانتخابية دون تقيد بعرف او قانون ، فأرسل الى الحسين وعصبته ، وهؤلاء لم يخف عليهم ما يعتلج في نفسه ، فاجتمعوا وتدبروا الأمر من كل وجوهه وتركوا المرادّة والمدارهة لابن الزبير ، فأقبلوا على معاوية فرحب بهم ، وقال :

« قد علمتم نظري لكم وتعطفي عليكم وصلتي أرحامكم ، ويزيد اخوكم وابن عمكم . وإنما أردت ان أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم الآمرين الناهين بين يديه » . فرد ابن الزبير :

« عندنا إحدى ثلاث ، ايها اخذت فهي لك رغبة وفيها خيار ،

إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله (ص) قبضه الله ولم يستخلف فدع هذا الامر حتى يختار الناس لانفسهم .. وإن شئت فما صنع ابوبكر عهد الى رجل من قاصية قريش، وترك من ولده ومن رهطه الادنين من كان لها اهلا .. وإن شئت فما صنع عمر صيرها الى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم، وترك ولده واهل بيته وفيهم من لو وليها لكان لها اهلاً » .

قال معاوية : هل غير هذا ؟ .. قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير . فقال معاوية : إني اتقدم اليكم وقد اعذر من انذر ، « فأنا قائم فقائل مقالة ، وأقسم بالله لئن رد عليّ رجل منكم كلمة في مقامي هـذا ، لا ترجع اليه كلمته حتى يضرب رأسه » .. وأمر ان يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المنبر وحف به اهل الشام ، واجتمع الناس .

فقال بعد حمد الله والثناء عليه : » إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار ، قالوا: إن حسيناً وابن ابي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا نبرم امراً دونهم ولا نقضي امراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا واطاعوا » .. ثم قربت رواحله فركب ومضى الى الشام ، تاركاً الناس في دهشة المفاجأة ينظر بعضهم الى بعض ، على انهم انهالوا أخيراً على الحسين واصحابه يستثبتونهم فأجابوا : « كادنا بكم وكادكم بنا » .

كذلك انتهت المفاجأة التي حبكها معاوية وطلع بها على الناس ،

غير عابيء بانه اقام ولاية ولده على البركان ، وأطلق القنبلة في أسس البناء .

فان الحسين – الذي شهد المثل الاعلى للحكم أزمان جده وابيه ومن بينهما ، وتقلب في الثورة على الحكم الشاذ ، وخاض معمعة البطشة الكبرى التي كلها والده في كل مكان تأشب عليه اعداء الشعب وخصوم حريته ، ورافق حركة التطهير التي بذل فيها من قلبه ونفسه - يجب ان يغضب وان يتنمر وان يندفع متلظياً وان يثور مهدماً فبنّاءً .

فان البناء على الفساد، ترميم للفساد واصطناع لفساد آخر جديد. بيد انه في صورته الجديدة فساد مركب ، وهو اعقد امراً واكثر حيوية واطول بقاء ونضالاً .

لذلك كان عمل المصلحين الحقيقيين هدماً وبناء ، ولذلك كان الشطر الاول دائماً أروع واشقّ واقدس ،فهو كفاح وتضحية وتعبيد .

وبهذا وله فقط ، رأينا الحسين يولي وجهه قِبَل الثورة ، قبل الانشاء والخلق من جديد .

*

قلما يبرز الأسد ، إلا عندما تتناوح الأرجاء بالعواصف ...

كأنه يأبى عليها أن تبدّد أمن الغاب وسكون جلاله ...

وعندما احتدمت عواصف الاهواء ، انطلق اسد الانسانية يدفع العاديات عن الانسان ...

*

البركان نذير بالانقلاب ...

وكان الحسين بركانَ الاصلاح ...

وقد مضى كل مصلح بقبس من ذلك البركان ، يرسله منار آيهدي في الحَلَك ! ...

obeikandl.com

الى الله !

في صبيحة يوم من رجب سنة ستين ، أفاق الناس في المدينة على اصوات الغلمة ، يمرحون في الأزقة وهم يتناشدون مقال عبدالله ابن هلال السلولي :

اصبر يزيد.. فقد فارقت ذا مِقَة واشكر حباء الذي بالملك حاباكا
لا رزء اعظم في الاقوام قد علموا مما رزئت ، ولا عقبى كعقباكا

فادركوا ان معاوية قد قضى ، وان يزيد قد خلفه . فانقلبوا وبعضهم يحرق الأرّم ويتميز حنقاً ، وبعضهم يشدّ غضونه تجهماً ويدع وجهه يتمدد ويتقلص دهشة ورعباً . ومشى الخبر كما يمشي النعي حتى انتهى الى الحسين فغِيرَ عليه ، كأن الارض دارت به دورتها سريعة سريعة ، وألم به إطراق عنيف كان مزيجاً من اللوعة المرة والأسى الحاد والتنمّر الغضوب . على انه طفق يناجي نفسه ، وقد تبدت له ماضيات النبوة ودنيا القرآن وجلائل العدل الاسلامي :

إلاهي ! ماذا اسمع ؟ أيكون يزيد خليفتك في عبادك ، وهو من عرفتُه صارماً لا يشعر بغير وجوده ، او يشعر بوجود الآخرين ولكن في مذهب نَهَمه الدامي المفترس مثلما تشعر الذئاب بوجود فرائسها ، الذي هو مبالغة في عدم الشعور بغير وجودها فقط ، انه

يشعر بهم شعور الامتصاص وإرواء نهم الذات ، ان ظمأته تطيف بهم محاولةً لو تحيلهم قطرة تندّي بها لعابها .

أيكون يزيد القائم على شريعة رسولك ؟ وشريعته ذَوْب رحمة في ذوب عدالة ورفق ، وهيهات ان تجد مكانها في غير ضمير فيه من معناها وفيه من روحها . وإلا فهي عافية كالطلل ، وذاوية كالهشيم يعبث بها الهوى ويتقاذفها مثل اوراق الخريف ، في اودية الشهوات وبين المغاور والكهوف الضاجة بالفسوق .

إن الشريعة ككل تعليم ، كائنٌ يزدوج بالحياة ، فينفعل بها ليحيى ويفعل فيها لترقى . فاذا لم يتماسّا ظلت الحياة جامحة فاجرة ، وظلت الشريعة مثل شرارة مخزونة لم تنقدح في فم المصابح فتحيى به وينطق بها ، صادعاً بلسان الضياء ومعلناً بنداء النور .

ان شريعة رسولك وجدت حياتها في حياته ، واستمدت روحها من روحه فترامت بالضياء الى كل مكان وطبعت بحقيقتها مادة الزمان ، فسعدنا حيناً بدنيا القرآن .

على انه عاد الى استغراقه وكان ايضاً عميقاً ، ولكن لم يبرح حتى ساوره غضب مكظوم ، اشتعل في عينيه وراح يناجي نفسه في نبرات حادة كأنها تلتهب :

نعم . نعم . نحن بايعنا الله على التقوى ، ولن نبايع الا عليها أو نموت في سبيلها . ألا إنه اختارنا لحمل امانته العظمى ، وانتظر منا الوفاء والاقتداء بكل عظيم . ومن نذر نفسه لله فقد أرخصها له .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة

والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهـده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

ان السموأل – وهو جاهلي لم يتأنس قلبه بالاشراق – عاهـد إنساناً ، واستجاب حين دعاه الوفاء وكان دامياً .

استجاب جاهلي للشرف ، فكيف لا استجيب للايمان ، إني اذن لنكل خوّار ...

« الموت خير من ركوب العارِ ...

والعار خير من دخول النار ...

والله من هذا وهذا ، جاري » ...

فكيف اذن بالعار والنار ، اجمعهما على نفسي في دنيا الظالمين..!

وبينما الحسين في سبحاته القدسية ونجواه المائجة بروح الاصطفاء ، تبدى لناظريه في وجهة قلبه اطياف يشتملها الرضى وتلفعها نشوة الاغتباط ، وهي تباركه وتشد عزمه وتهيب به الى الوثبـة ، الى الوثبة الكبرى ، فهتف مستبشراً :

رباه ! ماذا أرى ؟ انها أطياف جدي المصطفى ، وابي الشهيد ، من ورائهما الملائك ، تدعوني الى الله ، الى التضحية العظمى .

كان الكبش في يوم ، فداء نبي ...

ولكن النبي الاعظم ، انما يكون له الفداء الاعظم ...

وحبيبٌ الى نفسي ، أن أكون ذلك الفداء ...

*

كان الحسين لم يزل في نجواه ، حـــين « استأذن عليه وهو في المسجد ، رسول الوليد بن عقبة يدعوه ، وكان يومئذ امير المدينة .

فأمره الحسين بالانقلاب اليه ، وقام الحسين وجمع بعضا من غلمانه ومواليه وأمرهم بحمل السلاح ، فانتهى الى الوليد وقال لاصحابه :

اذا دخلت فاجلسوا على الباب ، وان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا ، فاقتحموا عليّ بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم . . فدخـــل الحسين على الوليد - ومروان عنده - وجلس ، فأقرأه الوليد الكتاب ونعى اليه معاوية ، فقال الحسين :

إنا لله وإنا اليه راجعون . أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سراً ، ولا اراك تقنع بها مني كذلك . . قال أجـل . قال : فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم ، فكان الأمر واحداً . فقال له الوليد: على اسم الله ، حتى تأتينا مع جماعة الناس .

قال مروان لما ولى :عصيتني والله ، لا قدرت منه على مثلهـا أبداً ، حتى تكثر القتلى بينكم وبينه . . وكان مروان قد اشار عليه أن ابعث الى الحسين فان بايع ، والا فاضرب عنقه .

قال الوليد : ويحك ! أتشير عليّ بقتـل الحسين ؟ والله إن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة ، لخفيف الميزان عند الله » .

رغم ما يعتلج في قلب الحسين من عاصف يكاد ينطلق ، وبركان يكاد يثور ، أبدى في هذا الموقف الحرج الدقيق ، أقصى ما يتصور من ضبط الاعصاب ، وحسن التأتّي الفائق في تصريف الامـور ، واللباقة البالغة في الحوار السياسي .

خرج الحسين من مكان الوليد مزمعاً على خطـــة وان تكن رهيبة فقد خفق لها قلبه ،واستجاب اليها بكل مشاعره ،حتى لبدت على سيمائه وجرت على لسانه ، وهو قاصد الى مسجد المدينة ، فقـد

سمعه ابو سعيد المقبري يتمثل بقول يزيد بن مفرغ :

لا ذعرتُ السوام في فلق الصبـ ـح مغيراً ، ولا دُعيتُ يزيدا
يوم أعطى من المهـــانة ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا

وماهو حتى هبط بأهله مكة لثلاث مضين من شعبان سنة ستين ولبث فيها حتى يوم التروية من ذي الحجة ...

*

في مكـة حيث الذكريات الملهمة، التي تضفو على كل مكان من ارضها وسمائها، وعنـــد معتنق الارض والسماء ، حيث يقع الافق المكلل بالوحي ، لبث الحسين يرنو وقد ذابت في نظراته اوهـــام الناس في الموت والحياة .

إن نظره اعتلق بالابد الفسيح ، التي تبدو الدنيا بكل اشيائها من آفاقه ، صدفة حقيرة في لُجّ الفناء .

وقد رأى هناك ان الاحياء يعيشون في عالم اعمالهم على حقائقها ، والاعمال فيه ليست مآتي فقط تنقضّى مع آنها ، بل هي مواليد يحياها المرء في حلاوتها ومرارتها، وفي نورها وظلامهـا . والمرء هناك لا يحس بالألم او اللذة والقبح او الجمال إحساساً مثلما هو شأن إحساس الفناء ، بل تحيى فيه كليات هذه المعاني حياة جوهرها .

وكانت تلك الذكريات الخالدات لا تفتأ تتنادى به الى استئناف الجهاد ، استئناف الجهاد الاول الذي بدأه جـدّه المصطفى مكافحاً وحيداً وبطلاً فريداً ، حتى أمال دنيا وأثبت دنيا ، وما قعد به أن الناس كلهم على الباطل إلبٌ ، وهو وحـــده الذي يدعو الى سبيل الرب .

إن كلمة الله في فم الانسان تنتشر مثل شعلات .
تحرق في مداها كل ما ليس منها .
فاذا لها على الارض ضياء كما لها في السماء ضياء.
الله نور السموات والارض ...

كانت تمر به هذه التصورات وقد مسحها جو مكة بما فيه من اقداس وذكريات عزم لايقهر، فهب ناشطاً في مثل الزئير الذي يبادر الانطلاق، غير ثابت أم ناظريه إلا « ولكم في رسول الله أسوة حسنة ».

وأسوتي به ، ان أجالد جلاده وان اكافح كفاحه وان انتهي لغايته .

ألا إن رسول الله غل البغي والباغي ودك دنيا الأوثان بما فيها ، وإن الباغي اليوم يحاول الانفلات وأوثان الآلهة استولدت أوثان الناس . فكيف اتلبث دون ان اغل ذاك واعتصر هذا ، وما أبالي أكانت فيه منيتي ام امنيتي ...

وإن محمداً خرج مهاجراً يدعو الى الله في مبالغة العيون والارصاد، فكيف لا اخرج داعياً اليه غير مبال بالحياة ، ولا مكترث بالموت في سبيله ؟

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على اي جنب كان في الله مصرعي

وكفى بعملي عند الله رضى ، ان يكون الهجرة الثانية .

ان الهجرة الاولى هجرة رسول الله كانت ، وغايتها البناء .

وإن الهجرة الثانية هجرة ، سبط رسول الله كانت ، وغايتها المحافظة على البناء .

وما هو حتى تسامع الناس بعزم الحسين ، وما هو حتى مشى

الكثيرون بينه وبين غايته ، يرغبون عليه أن لا يفعل ويثبطون منه ويوهنون مااستوى عليه عزمه . فقال ابن عباس، وقال ابن الزبير ، وبذه هذا ،وثنّى ذاك ،الى كثير كثير ، وكلهم قوم عشير وفخر قبيل .

وكان الحسين يستمع اليهم وكأنه بطل المعركة المنتظر ، يرى في تحامي الفرسان جبناً أكبر عاراً ، فيزيده تلظياً وحمية ، وفي تقهقر الشجعان خوراً ابلغ غوراً وأثراً ، فيوقده عزماً ويصطنعه شكيماً.

*

مر نسر يحلّق فوق الآكام ، فتكنّفته بُغاث النسور من كل مكان ...

تُهيب به أن لا يمضي بعيداً ، فهناك صقور تعبث فساداً وتبث رعباً .

ولكن النسر ..شد جفنيه طويلا ، كأنه لا يصدق ان هذه لغة نسر ...

على انه مضى وهو يقول : إن النسر شيء في المعنى وليس شيئاً في الشكل ...

فاذا استحال المعنى شكلاً فقط ،فهناك مسوخ لا نسور !...

وانطلق يهوي غير مبال بما سوف يعترضه .

وما هو حتى واثبته جماعة الصقور ، فنال منها كثيراً ونالت منه مقتلا ...

على انه كان مغتبطاً أيضاً فقد همس في انفاس المحتضر...

سوف يظل في الاجيال أنه هنا يرقد نسر وجد حقيقته ...

وهناك تحيى نسور فقدت حقيقتها ...

إنني أقضي ، ويبقى في ضمير الوجود : أن اقتحام الطريق، دائماً في الامكان ...

انطلق الحسين مودعاً الكعبة بيت الله ، حاملاً روحها بين جنبيه وشعلتها بكلتا يديه ...

تواكبه الملائك وتباركه ، وتطيف به كأنها حذرة عليه ...

فانه البقية من إرث السماء على الارض !...

رَعْياً لذكراك أبا عبدالله ، فقد أحسستَ بروح الأخلاق في في روح الوجود ...

فأردتَ الحياةَ ، دنيـــا من الأخلاق والفضيلة والحب ...

وأرادها الآخرون ، دنيا من الشهوات والرذيلة والاحقاد ...

أردتَها كوناً من لذة الروح ، ولو في شعور الأعصاب بالألم...

وأرادوها كوناً من لذة الاعصاب ، ولو في شعور الروح بالألم ...

فاستحالت الآلام الكبرى في حس الناس ، لذةً كبرى في حسك !..

*

حتى لقد شعرتَ بِحيال الدم المسفوح ، بأنه شفـــق من شعاع الروح ...

ورأيتَ في حمرة الدماء ، لؤلؤةَ جمال الحسن ...

ولا بدع ، فقديماً قيل : « إن الحسن أحمر » ...

فهرست

الفاتحة	٣
مقدمة	٥
يوم المدينة	١٣
يوم القران	٣٠
يوم الايمان الشامخ	٤٦
يوم الميلاد	٥٩
مشاهد	٦٩
يوم الدولة	٨٢
دموع	٩٢
مع خليفة	٩٩
جهاد الشباب	١٠٣
في الثورة	١٠٩
في الزوبعة	١٣١
التياع	١٥٥
في الهيكل	١٦٧
في وجه الظلم !	١٧٥
مع أرينب	١٨٩
تقوى	٢٢١
استثارة	٢٤٠
الى الله !	٢٤٨

obeikandl.com